

فيرد عليهم قد تبين لكم الحق ، وانتصر الله ورسوله . فانتهوا خير لكم ، فلا تستعينوا بي علي .. وإن تعودوا ثانية نعد لعذابكم ، ثم قال الله ﴿ وَلَنْ نُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فاستعمل لفظة ( الفئّة ) لأنه في سياق نفي العون عنهم وتجريدهم من المعاضدة .

مما يقطع أن لفظة فئّة في المواضع الثلاثة السابقة تفيد المعاضدة ، ولذلك عندما أراد الله ﴿ دحر أعداءه نفي عنهم الفئّة أي قطع عنهم من ينصرهم . فعند مواجهة الكفار مع الله يتحدث عن انعدام نصرة الفئّة ، والفئّة هنا هي الجماعة التي تنصر الكفار، فلن تجدى شيئاً في مواجهة الله .

وعندما التقى المؤمنون بقيادة طالوت بالكفار بقيادة جالوت:

﴿ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ ﴾ (البقرة) .

ذكر التقابل الذي يعبر عن عدد كل منهم ، فأنصار طالوت (فئّة قَلِيلَةٍ) وأنصار جالوت (فئّة كَثِيرَةٌ) ، وصدق المؤمنون بقولهم (كم من فئّة قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) . وجاءت هنا غير منفية لأنه يثبت النصره ، واجتهاد كلتا الفئتين في نصره نفسها .

وهكذا لن تكون هناك مواجهة تبدأ قتالاً بين طرفين يريد أحدهما القضاء على الآخر إلا وكل منهما فئّة ، وقد يذكر القرآن فئّة واحدة ، لكن أسلوب الاحتباك <sup>(١)</sup> (التقابل) يفهم منه دوماً أن الطرف الآخر أيضاً فئّة : فلا فئّة إلا في مواجهة فئّة : فأسلوب الاحتباك يتضح في قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ﴾ (آل عمران) .

تتحدث الآية عن فئتين : الأولى : مؤمنة بدليل مقابلها ( وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ) والثانية تقاتل في سبيل الشيطان بدليل مقابلها ( تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) وبذلك توضح الآية أن ثمة فئتين :

١- الأولى : مؤمنة تقاتل في سبيل الله .

٢- والثانية : كافرة تقاتل في سبيل الشيطان .

(١) الاحتباك هو أسلوب تقابلي . يتم فيه السكوت عن أمر لأنه قد ذكر مقابله في الجهة الأخرى . فأنت تفهم المسكوت عنه من خلال المقابل له المذكور .

والأمر نفسه في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَّا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ (٤٨) (الأنفال) .

والأسلوب نفسه ( الاحتباك ) طبق مع آية أخرى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٤٥) (الأنفال) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ ﴾ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلِ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٦) (الأنفال) .

الآية الأولى : الذين آمنوا سيثبتون للفئة المقابلة لهم ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة كافرة فاثبتوا . والآية الثانية تتحدث عن مواجهة بين (الَّذِينَ ءَامَنُوا) و(الَّذِينَ كَفَرُوا) ويطلب من المؤمنين إلا يولوهم دبرهم إلا منحازين إلى فئة مؤمنة .

وقد جاءت لفظة (فَتَتَيْنِ) في المثني : مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ (٨٨) (النساء) .

وهذه الآية نزلت في قوم منافقين خذلهم الله ، استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج من المدينة متعللين باجتواء المدينة ، ثم لحقوا بالمشركين ، وهنا اختلف المسلمون في هؤلاء المنافقين ، وانقسموا فيهم إلى قسمين ، كل قسم ينتصر لرأيه ويدعمه ، فمنهم من يراهم كفاراً ، ومنهم من يحسن بهم الظن وبأنهم مسلمون مازالوا . فجاءت الآية متعجبة من المسلمين الذين يجب أن يكونوا فئة واحدة في مواجهة العدو ، فإذا بهم يقفان اليوم فريقين كل منهما في وجه أخيه من أجل بعض المنافقين الذين لا يستحقون أن يتفرق فيهم المسلمون إلى فتنتين ، كل فئة تعاضد نفسها لإثبات أنها على حق .

وقد استخدم القرآن هنا لفظة (فئة) لوصف المسلمين استنكاراً ، لتبشيع موقفهم ، عندما يشبههم بأنهم بهذا الموقف فعلوا ما لا يجب ، فالمسلمون يجب ألا يكونوا فتنتين ، فهم دوماً فئة ، والأخرى فئة مقابلة هي عدوهم ، فكيف يكونون لأنفسهم ما يجب أن يكونوه لعدوهم .



## ٥ | الطائفتان :

أصل الكلمة كما جاء في مقاييس ابن فارس يدلُّ على دَوْران الشيء على الشيء، وأن يُحْفَ به. لذلك استخدم في الطواف بالبيت، ويقال لما يدور بالأشياء وَيُعْشِيها من الماء طُوفان. قال الخليل: وشبهه العجاج ظلام الليل بذلك، وكذلك الطَيْفُ والطَّائِفُ: ما أَطَافَ بالإنسان من الجنان. فأما الطائفة من الناس فكأنها جماعة تُطِيفُ بالواحد أو بالشيء. كل جماعة يمكن أن تحف بشيء فهي عندهم طائفة<sup>(١)</sup>.

وكلام ابن فارس لا مزيد عليه. فقد أصاب الحقيقة، وأمدنا بما نحتاجه من حدود الكلمة، فالطائفة يجب أن تتمحور مركزاً، تدور حوله.

أما علاقة الطائفة بالفئة، فالفئة يمكن أن يكون فيها طائفتان، أما الطائفة فلا بد أن يكون لها زعيم، أو قائد، لذلك استعملها القرآن في التعبير عن رجل واحد من أهل الكتب يتبعه قومه، فأصبح وحده طائفة، لأن الناس برأيه يتحركون:

● ﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ ﴾ (آل عمران).

● ﴿ وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفِرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران).

فهناك تحركات من زعماء يهود لتحويل المسلمين إلى اليهودية أو إبعادهم عن الإسلام، وفي الآية الثانية يتضح الأمر بأن القائد هو موجه الجموع، الذي يرسم الخطة لهم: فهو يقول لأنصاره: ادخلوا الإسلام ثم ارتدوا عنه، لتشكيك الناس عندما يجدون من يتراجع عن الإسلام بعد اعتناقه.

أما قوله تعالى: ● ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ مَنَّا أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتِ طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (الصف).

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة غرف.

تبدأ الآية بقوله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ) وهو نداء مخصوص لزمن محدد ، وليس لكل الأزمان ، ولا يكون لكل الأزمان إلا بتجده . ونرى أنه أمر من الله لمحمد ﷺ ليقوله لمؤمني عصره . والتقدير قل يا محمد لمؤمني عصرك . كونوا أنصار الله مثلما قالها عيسى للحواريين فقالوا : نحن أنصار الله .

**فَأَمَّنْتَ** ○ أميل أن الطائفة التي آمنت ، يقصد بها ليس أيام المسيح ، بل أيام محمد ﷺ ، فأمنت طائفة من بني إسرائيل وهي طائفة قليلة جداً منهم مخيريق ، وعبد الله بن سلام ، وصفية بنت حيي . والفاء ترتيباً على طلبه عليه السلام : كونوا أنصار الله فأمنت طائفة لتكون مثل الحواريين عندما قال لهم عيسى من أنصار إلى الله قالوا نحن أنصار الله ، فذلك الطائفة أيضاً استجابت لمحمد كما الحواريون استجابوا لعيسى . وقد كان الحواريون قليلاً تحديداً كانوا اثني عشر رجلاً ، فلذلك لا عجب إن كان المثل المنشود اثني عشر أن يكون من نطلب أن يكون مثلهم دون هذا العدد .

**طَائِفَةٌ** ○ نكرة ليعظم شأنها ، وهي الطائفة التي آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

**مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ○ تشریف للفة التي آمنت أن ينسبها إلى من يتشرفون بالانتساب إليه .

**وَكَفَرَتْ** ○ هي الطائفة التي قال عنها الله **يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُفِرْتُمْ بِمُحَمَّدٍ** .

**طَائِفَةٌ** ○ لم يذكر (من بني إسرائيل) لدلالة ذكرها الأول عليها ، وثمة ملمح في الاستعمال ، فلأنها ستذكر مرة واحدة ذكرت مع التي آمنت . وجاءت نكرة لتحقيرها ، وكأنه يقول : وكفرت طائفة لا تستحق أن تكون من بني إسرائيل .

**فَأَيَّدْنَا** ○ قوله تعالى ( كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ) هو تشبيهه قد انتهى وعدنا إلى الكلام السابق : وهو : قل يا محمد كونوا أنصار الله مثلما قال عيسى ، فإن نصرنا الله ، أيدهم الله على عدوهم .

التأييد تم للذين آمنوا (بمحمد) على الذين كفروا من بني إسرائيل ومن شايعهم ، والواقع يصدق ذلك . ولا يقبل أى كلام على أن المقصود أيدينا الذين آمنوا

بعيسى على عدوهم من الذين لم يؤمنوا به ، فالتاريخ يقطع أن ذلك لم يحدث ، فلم يصبح الذين آمنوا بعيسى ظاهرين على عدوهم ، لكن الواقع يقطع بأن الذين آمنوا بمحمد من بني إسرائيل أيدهم الله فأصبحوا ظاهرين على عدوهم من اليهود ومن شايعهم حتى طردوا من الجزيرة العربية شر طردة .

○ المقصود بالتأييد ليس أنصار عيسى ، بل أنصار محمد . قال ابن عاشور : وإنما قال: فأيدنا الذين آمنوا ولم يقل: فأيدناهم لأن التأييد كان لمجموع المؤمنين بعيسى لا لكل فرد منهم.

○ وفي رأينا أن الأمر هو العكس تماماً ، فلو أراد تأييد المجموع لقال فأيدناها ، وانتقاله من الكتلة إلى الأفراد دلالة على أن التأييد كان لكل فرد منهم ومن ثم المجموع . وقد انجر أستاذنا ابن عاشور لهذا التفسير لأنه يظن أن التأييد لعيسى عليه السلام .

○ أعداء الإسلام سواء كانوا كفاراً أو مشركين أو يهوداً أو منافقين . واستخدم حرف الجر (عَلَى) لإعطاء الفوقية والاستعلاء على العدو المقهور .

وقد استخدم لفظة طائفة للتعبير عن الجماعتين ، لأن المجموعة الكافرة يقودها أحدهم ، وقد قال رسول الله S: لو آمنت بي عشرة من اليهود لآمن بنو إسرائيل ، يقصد زعماء يهود ، فلو آمنوا ، لآمن بإيمانهم أتباعهم الذين يقتدون بهم.

يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ<sup>(١)</sup> : فرعون يستضعف بني إسرائيل ، وقد عبر عنها القرآن بكلمة طائفة ، لأنهم أمة لهم كبير يستمعون لأمره .

وَلْيَشْهَدْ عَدَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup> : يحدد الله √ الحد للزانية والزانية : (فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) . وأن يكون هذا الجلد علناً . وقد اختار كلمة (طَائِفَةٌ) في إشارة إلى إقرار الحكم من إمام المسلمين .

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا

(١) سورة القصص . الآية (٤) .

(٢) سورة النور . الآية (٢) .

فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ <sup>(١)</sup> : تلك صلاة الخوف ، يقسم الجيش قسمين ، أحدهما يظل بسلاحه متيقظاً ، بينما يقوم النبي (أو القائد) بالصلاة بالقسم الآخر ، وقد أطلق الله ﷻ على الجماعة التي سيصلى بها القائد كلمة (طَائِفَةٌ) ، وذلك لوجود القائد بينهم ، فقد أصبحوا طائفة لتحلقهم حول القائد . ولاحظ قوله تعالى (طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ) فكلمة معك هي التي شفعت لتسميتهم بالطائفة . ثم لم يعبر عنهم بالطائفة بعد فروغهم من السجود ( فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ) .

أما القسم الثاني فلم يطلق عليه طائفة إلا بعد حضوره لصلاة النبي ﷺ به : (وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ) وانظر أيضاً إلى قوله (فليصوا معك) . فهو لم يطلق عليهم طائفة إلا بعد أن حضرت للصلاة ، بينما عندما كان يصلى بالمجموعة الأولى لم يكونوا هم طائفة ، وقد أطلق عليهم طائفة أخرى لأنه كان هناك طائفة قبلها (لم تعد طائفة الآن) لكنها سبقتهم إلى كونها طائفة مثلما هم الآن طائفة بصلاة النبي ﷺ بهم . فلا طائفة إلا بقائد يتحلقون حوله . كأنه مركز وهم دائرته .

ولهذا لا يصح أن نقول : فاجعلهم طائفتين ، لأنه لا قائد إلا واحد ، فالمجموعة التي معه هي في تلك اللحظة طائفة . والأخرى التي ليست معه .. حتى إذا تبادلوا الأماكن ، أصبحت المجموعة التي معه في هذه اللحظة هي الطائفة ، والتي رجعت إلى أماكن الحراسة (وكانت طائفة) وهي الآن ليست طائفة .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ <sup>(٢)</sup> : سرق طعمة بن أبيرق من رفاة بن زيد درعه ووضعه في كيس من الدقيق ، وجعلها عند أحد اليهود ، واشتكى رفاة لقتادة بن النعمان ابن أخيه ، الذي اتهم طعمة بالسرقه ، وتبعوا أثر الدقيق ، فقاد إلى بيت اليهودي ، فدافع اليهود عن صاحبهم ،

(١) سورة النساء . الآية (١٠٢) .

(٢) سورة النساء . الآية (١١٣) .

وقالوا أتى به طعمة ، فهنا اجتمع بنو ظفر أهل طعمة واشتكوا إلى رسول الله ، وطالبوه أن ينصر أخاهم كما ينصر اليهود أخاهم . فنزل القرآن يعاتب المسلمين لدفاعهم عن المسلم لمجرد أنه مسلم . ويبرئ اليهودي ، فلولا فضل الله ورحمته لجادل النبي S عن المسلم طعمة وهو السارق الحقيقي ، وذلك بسبب عائلة طعمة التي كادت تدفع النبي S للدفاع عن أخيهم ، واستخدمت كلمة (طَائِفَةٌ) ، لأن بني ظفر اجتمعوا ولهم كبير وراء هذا الاجتماع .

فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ <sup>(١)</sup> : يجالس المنافقون رسول الله S ويقولون لما يأمر به طاعة ، فإذا خرجوا من عنده خرجوا ليسوا معاً ، بل خرجوا واحداً وراء الآخر من عند الرسول S لينتهوا إلى بيت أحد زعمائهم ليدبروا لبيل بقيادة هذا الزعيم ما يناقض تلك الطاعة ، ولا يدرون أن الله ﷻ يكتب ما يبببونه . وقد استعمل طائفة لأن هذا الاجتماع الليلي له رأس من المنافقين .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعِذْ بِنُورِكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا <sup>(٢)</sup> : والأمر نفسه حدث من المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بتحريض من زعمائهم أمثال أبو عامر الراهب . ولأنهم جماعة تأتمر بقائد استخدم القرآن للتعبير عنهم كلمة (طَائِفَةٌ) .

لَا تَعٰذِرُوٓا۟ فَاذْكُرْتُمْ بَعْدَ اٰمٰنِكُمْۗۙ اِنْ نَعَفَ عَن طٰٓئِفَةٍ مِّنْكُمْ نِعٰدَبْ طٰٓئِفَةٌۭۙ بِاَنَّهُمْ كَاثُوٓا۟ مُّجْرِمِيْنَ <sup>(٣)</sup> : الأمر للمنافقين ، فهناك طائفة قادها أبو عامر الراهب ، وأبت التوبة فهي طائفة توعد الله ﷻ بعدايبها وعدم العفو عنها (نُعَدَّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَاثُوٓا۟ مُّجْرِمِيْنَ) . والتعبير عنها بكلمة (طَائِفَةٌ) لأنها جماعة تتحلق حول زعيم . بينما ثمة جماعة أخرى من هؤلاء المنافقين صاحبت رسول الله إلى تبوك ولم تتخلف ، لكن لتثبُط عزيمة الجند ، وعندما بدأوا عملهم وقالوا : أتحسبون جلا د بنى الأصفر - أي الروم - كقتال العرب بعضهم البعض؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال . فلم يحقق كلامهم ما يرجون في الناس ، وأخبر الله رسوله بما قالوا ، فلما واجههم خجلوا من أنفسهم وتابوا عن موقفهم ،

(١) سورة النساء . الآية (٨١) .

(٢) سورة التوبة . الآية (٨٣) .

(٣) سورة التوبة . الآية (١٦) .

حتى أن أحدهم وهو مخشي بن حمير تسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً ، لا يُعلم مكانه . فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر ، فتلك الطائفة التي عفى عنها ، وكان لهم أيضاً زعيم يدفعهم إلى ما يصنعون .

وإذ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا<sup>(١)</sup> : المناقون يحركهم زعماءهم يبثون الشيط في نفوس المسلمين المرابطين في مواجهة العدو أمام الخندق فيقولون : ما وعدنا محمد إلا غروراً كان يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ، واليوم لا يستطيع أحدنا أن يذهب إلى الغائط ، فيطلبون منهم ترك مواقعهم لأنه لا أمل لهم في النصر .

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِءِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ<sup>(٢)</sup> : يتحدث شعيب إلى قومه ، ويطلب منهم أن يصبروا حتى يحكم الله بين المؤمنين وغير المؤمنين ، وقد عبّر شعيب عليه السلام عن الذين آمنوا بكلمة طائفة لأنهم يتحلقون حوله ، وعبر عن الذين لم يؤمنوا أيضاً بكلمة طائفة لأنهم يتحلقون حول كبرائهم يحضونهم على عدم الإيمان .

فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ<sup>(٣)</sup> : بعد غزوة تبوك وفضح المتخلفين عنها ، عزم المسلمون ألا يتخلفوا بعدها عن أي سرية يرسلها النبي ﷺ للجهاد ، ومن ثم يتركون النبي ﷺ وحده في المدينة ، فنزلت الآية تمنع هذا النفي العام إلا إذا أَرَادَهُ النَّبِيُّ ﷺ . فأمرتهم أن تخرج الفرقة للقتال ، وتبقى طائفة مع النبي ﷺ يتعلمون منه أحكام الدين ، ويتفقهون فيه ، فإذا عاد المجاهدون أبلغوهم بما فقهوه من النبي ﷺ . ومن هنا تتكامل مصلحة المسلمين بالجهاد بالسيف والفقه في الدين . وقد عبّر القرآن عن هؤلاء الباقيين مع الرسول ﷺ بكلمة (طائفة) لأنهم سيتحلقون حوله يتعلمون منه .

(١) سورة الأحزاب . الآية (٣) .

(٢) سورة الأعراف . الآية (٨٧) .

(٣) سورة التوبة . الآية (٢٢) .

وما أروع المباينة بين كلمتي (فِرْقَةٍ)، (طَائِفَةٌ)، فالفرقة هي التي تنطلق بعيداً عن مجموع المسلمين للقتال ، والطائفة هي التي تبقى محيطة برسول الله ﷺ .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ<sup>(١)</sup> : في غزوة أحد ، أزال الله عن المؤمنين غمهم ، وأنزل بهم الأمن ، وأتم ذلك بأن أنزل عليهم النعاس فغلبهم النوم ، كان ذلك لمجموعة من المؤمنين بينهم الرسول ﷺ قال أبي طلحة ، رضي الله عنه : « غشينا النعاس ونحن في مصافنا ، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه ، وما أحد إلا ويميل تحت حافته » وعن ( الزبير ) رضي الله عنه : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف ، فأرسل الله علينا النوم .

فهذه الطائفة التي غلبها النعاس هي طائفة الصدق الذين التصقوا بنبيهم بعد أن وقفوا في الدفاع عنه دفاع صدق . فتعسوا ليتجدد نشاطهم وهو بينهم .

أما الطائفة الأخرى التي لم تصدق ، فلم يصل لها النعاس وغلبها الهم ، لأنهم تبعوا النبي ﷺ لينالوا الدنيا ، فلم ينالوها ، فظنوا بالله غير الحق . لكن لم تخل تلك الجماعة من قيادة تشكك في هذا الدين ، فهاهو معتب بن قشير : يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . يقول الزبير والله إني لأسمع قوله والنعاس يغشاني . فعبر القرآن عن كلتا الفئتين بكلمة طائفة ، لأن لكل طائفة مركزها التي تتعلق حوله .

أما المثني .. فلم تأت لفظه ( طائفتان ) في القرآن سوى أربع مرات :

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا<sup>١٢٢</sup> ﴾ ( آل عمران ) .

﴿ وَإِنْ طَّائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا<sup>١٢٣</sup> ﴾

الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ<sup>١٢٤</sup> ﴾ ( الحجرات ) .

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا<sup>(١)</sup> : حيان من الأنصار هما : بنو سلمة (من الخزرج ) وبنو حارثة (من الأوس ) ، عندما انخزل ابن أبي بن سلول بمن معه ، هم هذان الحيان باتباعه ، لكن عصمهما الله . وقد استخدم القرآن لفظة ( طائفة ) لأن لكل حي زعيماً ، يقودهم . مثلما كان ابن أبي بن سلول يقود طائفته .  
وعبر بالمشى ، لأن كل منهما جماعة لها رئيسها في الوقت نفسه .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup> : طائفتان مثنى لأن الرأى اثنان ، كل طائفة تعتق رأياً ، فالإصلاح يتم بين الرؤساء ، أى ستجمع بين اثنين ، تحاول أن توفق بينهما ، فالتثنية هنا تعود على الجماعة ، ولا يوجد إلا جماعتان ، كل جماعة بأفرادها شيء واحد ، فالإصلاح يتم بين اثنين ، والبقى يتم من واحدة على الأخرى ، لكن القتال يتم من الأفراد ، والأفراد جمع لذلك جاء الحديث عن الجماعة كأنها فريق فهى بمثابة المفرد ، يتحدث عنها بصورة المفرد ( التى تبغى ) فإذا تحدث عنها هى والجماعة الأخرى أصبحتا مثنى ( بينهما ) فإذا تحدث عن أفراد كل جماعة تحدث عنهم بالجمع ( اقتتلوا ) .

وبذلك نرى أنه لا يصلح سوى كلمة ( طائفة ) لأنها تبين أن الجماعة لها رئيس ترجع إليه هو الذى يحسم الأمر بالسلام أو الحرب ، فإذا أمر بحرب اقتتل الأفراد . أما الصلح فيتم بين زعيمة المجموعتين . وقد جاءت الكلمة مثنى لوجود الطائفتين في وقت واحد ، لكل طائفة منها مركزها أو محورها الذى يتحكم في أمورها .

بخلاف عندما كان يتحدث عن صلاة الخوف ، فلم تكن هناك طائفتان ، لأنه لا يوجد سوى زعيم واحد هو رسول الله S ، فكل مجموعة ستأتى ليصلى بها تصبح طائفة ، فإذا مضت جاءت مجموعة أخرى فصلى بها ، فكل منهما طائفة ، لكن كل منهما في وقت ليس نفس وقت الأخرى ، لهذا لم يعبر عنها

(١) سورة آل عمران . الآية (١٢٢) .

(٢) سورة الحجرات عمران . الآية (٩) . ونصها (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي بَغَتْ حَتَّى تَقْبَلَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ )<sup>(١)</sup>

بالمشى ،أما عند اقتتال المؤمنين ، فكل منهما في الوقت نفسه طائفة ، لأن كل واحدة منها لها زعيمها الخاص بها .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴾ (١٥٦) (الأنعام) .  
 ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧) (الأنفال) .

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا (١) : أنزل الله ﷻ كتابه على العرب حتى لا يقولوا أمرين :

١- إن الكتاب نزل على طائفتين غفلا عن دراستهما .

٢- حتى لا يقولوا إن الكتاب لو نزل عليهم لكانوا أهدى الأمم .

وبذلك جاءت لفظة (طَائِفَتَيْنِ) يقصد بهما أهل التوراة والإنجيل ، وهما موجودان معاً ، وكل طائفة منهما تأتمر برجل الدين فيها .

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ (٢) : يقصد بالطائفتين : العير الذى يتمحوره زعيم القافلة أبو سفيان ، والنفير الذى يتزعمه أبو جهل ، فكل منهما طائفة ، تلتف حول قائدها ، وقد وعد الله ﷻ المؤمنين بأحد الطائفتين بمركزها ، وكان المسلمون يتمنون العير ، ولا يريدون النفير ، لكن شاء الله أن يعطيهم النفير والنصر على جيش الكفر ، وقتل الزعيم ومساعدته .

وقد جاءت مثني لأنهما متواجدان معاً في الوقت نفسه ، وإن كان كل منهما في مكان ، المسلمون يطلبون العير بأبي سفيانه ، والنفير بأبي جهله خرج من مكة يطلب المسلمين حتى بعد أن علم بنجاة النفير. فهما طائفتان لوجود زعيمين .



(١) سورة الأنعام . الآية (١٥٦) .

(٢) سورة الأنفال . الآية (٧) .

## ٦ | الخصمان :

أصل الكلمة قاطع بحدودها وأصل كلمة ( خصم ) : كما جاء في مقاييس ابن فارس : المنازعة . الخصم الذي يخاصم ، الخصم جانب العدل الذي فيه العروة. ويقال إن جانب كل شيء خصم . وأخصام العين : ما ضمت عليه الأشفار . ويمكن أن يجمع بين الأصليين فيرد إلى معنى واحد . وذلك أن جانب العدل مائل إلى أحد الشقين ، والخصم المنازع في جانب<sup>(١)</sup> . وفي مفردات الراغب الأصفهاني : أصل المخاصمة : أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر ، أي جانبه وأن يجذب كل واحد خصم الجوارق من جانب ، وروي : ( نسيتَه في خصم فراشي )<sup>(٢)</sup> .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ (٢١) ﴿ (ص) .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ (٢٢) ﴿ (ص) .

وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ<sup>(٣)</sup> : مع كثرة نساء داود ، إلا أنه خطب امرأة مخطوبة ، فضله أهلها لأنه الملك على خطيبها ، وهنا أرسل الله إليه الملاكين ليسألاه : أخي له تسع وتسعون نعجة ويريد أن يأخذ نعجتي الواحدة . فحكم داود بأن لا يجوز لذي الكثير أن يأخذ واحدة الواحدة . ولم ينتبه إلى أنه يحكم على نفسه .

وكتبت الهمزة في ( نَبُؤُا ) على واو لأنه نبا خاص ، يختلف عن غيره من الأنبياء ، فالقرآن يفرق بين النبا الذي تخبر به ، والنبا الذي يتجسد لك ، فإذا كان النبا خبراً أضيف إليك كتبه على الألف ، لكن إذا كان النبا حادثة لا تصدق ثم تجسدت وتحولت من الخبر غير المصدق إلى الواقع ، فهو يكتب الكلمة على واو للإشارة إلى أنها ليست نبأً فحسب ، بل هي

(١) ابن فارس ، مقاييس اللغة ، مادة خصم .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب .

(٣) سورة (ص) ، الآية (٢١) .

تجسد ملموس ، فالنبأ الذى أخبرهم به من أنه رسول من عند الله ، هو نبأ ليس كغيره من الأنبياء التى عرفوها ، ولو تجاهلوه ولم يصدقوه خسروا خسراناً مبيناً ، فهو نبأ خاص لا يمر في حياتهم ما يماثله .

والثاني نبأ عجيب وهو قصة سيدنا داود ، فهو درس من رب العزة يكشف أن الإنسان لا يرى غلطة نفسه . بل هو نبأ ملموس في اللحظة نفسها ، وكذلك عندما كان يحكى قصة الخصمين الذين تسوروا المحراب ، كان يجسد له القصة ، فهو يحكيها هذه اللحظة ، فهو نبأ لم ينصرم ، وأيضا لا ينتظر ، بل هو نبأ يقص عليه في تلك اللحظة .

واستعمل لفظة الخصم مفردة لأنه لا توجد خصومة حقيقية ، فالخصمان ليسا خصمين حقيقيين . وإطلاق لفظة المثى : إثبات أن بينهما خصومة ، وهذا غير صحيح ، فليس بينهما خصومة .

لكن بعد أن تسور الملائكة محراب بيته ، فزع داود لأن بيته له سور لا يدخله أحد إلا بإذنه ، فلما دخلوا عليه أصابه الفزع ، فطمئنوه ، وبيدوا أنهم كانوا أكثر من اثنين ، أي أن الخصمين قد حضر معهم آخر .. وقد عدل القرآن عن لفظة (الْخَصْمِ) بعد الدخول على داود إلى لفظة (حَصَمَانِ) لأنهما يجسدان له ما فعله ، فليست بينهما خصومة حقيقية حتى يقال عنهما الخصمان قبل الدخول ، لكن الغرض من الدخول على داود أن يظهر له ما لم يره من فعله ، فجسدها في شكل مادي يظهر له ما لا يراه :

وبذلك نرى :

**الخصم** • قبل الدخول لأنه لا توجد خصومة حقيقية .

**الخصمان** • بعد الدخول لأنهما يمثلان الخصومة أمام داود .

فهي تذكر بما فعله الخضر مع موسى عليه السلام عندما جعله يستنكر قتل الغلام .. وهو الذى قتل رجلاً قبلاً .

إن لفظة الخصم : تقتضى أن يكون هناك من يميل على غيره ، ويحتاج لحكم يفصل بينهما .

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ<sup>(١)</sup> : لما وصف الله معبودات الكفار من دون الله بأنها حسب جهنم ، قال ابن الزبيري لرسول الله S : خصمتك ورب الكعبة ، ألسنت تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبيّ وتثنى عليه خيراً وعلى أمه ، وقد علمت أنّ النصرارى يعبدونهما . وعزير يعبد . والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا معهم . فوصفه القرآن هو وقومه بأنهم خصمون أي يريدون الجدل لذات الجدل ، وليس للوصول إلى الحق .

هَذَا نِ خَصْمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَجِيمٍ<sup>(٢)</sup> : أميل إلى قول قتادة بأن الخصمين هما أهل الكتاب الذين قالوا بأنهم أولى بالله من المسلمين ، بينما قال المسلمون أنهم أحق بالله من اليهود الذين رفضوا الإيمان بمحمد S .

ولم يقل القرآن (هذان فريقان) اختصموا في ربهم . لسببين :

١- أن لفظة فريقين لا تفيد الاحتياج إلى الفصل بينهما .

٢- أن قوله بالفريقين يعنى أنهم كانوا مجموعاً وانقسم لسبب ما ، ولم يجتمع المسلمون وأهل الكتاب على شيء وجاء محمد S فقسّمهم . بينما جاء في موضع آخر تعبيراً عن ثمود الذي جاءهم صالح عليه السلام يأمرهم بعبادة الله : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ<sup>(٣)</sup>) فتحوّلت المدينة إلى فريقين فالفريق لا يكون إلا بانفصال بعد تجمع ، ودون احتياج للفصل أو الحكم .



(١) سورة (الزخرف) ، الآية (٥٨) .

(٢) سورة (الحج) ، الآية (١٩) .

(٣) سورة (النمل) ، الآية (٤٥) .

## المبحث السابع : الكل والمتبقى :

عند تقسيم الميراث ، يستخدم القرآن الكريم تعبيرين مفايرين للتعبير عن كمية محددة ، مما يعنى أن العدد لن يكون واحداً في الكميتين المتفقتين مادام التعبير مفايراً ، هذا المبحث يوضح أن الميراث يتوقف على فهم دلالة اللفظة المستعملة ، فإن حدث مساواة للفظين المختلفين دل هذا على سقوط الفروق المختلفة ..

### • ثلثا :

أضيفت إلى (ما) فأخذت بالإضافة (ثُلُثًا مَا تَرَكَ) اتجاهها مفايراً عنها بدون الإضافة (أَلثُلثَانِ) ، وقد جاءت الكلمتان بالإضافة وبدون الإضافة في شأن الميراث ، وسوف يلعب الفارق بين الإضافة وعدم الإضافة دوراً كبيراً في توضيح مسائل الميراث .

﴿ يُوْصِيكُمُ اللّٰهُ فِيْ اَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْاُنثٰىيْنَ فَاِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اٰثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَّا تَرَكَ ﴾ (١١) (النساء) .

﴿ فَاِنْ كَانَتَا اُنثٰىيْنَ فَلَهُمَا الْاُلثُلَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ (١٧٦) (النساء) .

لو نظرت إلى التعبيرين :

الأول : (فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَّا تَرَكَ) .

الثاني : (فَلَهُمَا الْاُلثُلَانِ مِمَّا تَرَكَ) .

التعبير الأول خاص بأولاد المتوفى الإناث ، فإن زادت النساء عن واحدة فلهن الثلثان ، لكن من المتبقى ، لاحظ أنه لم يقل (مما ترك) .

التعبير الثاني خاص بإخوات المتوفى الإناث الذى ليس له زوج ولا ولد ولا أب ولا أم ، فذلك جاء التعبير مما ترك ، أي أن لهن أيضاً الثلثين لكن من أصل المال ، ولاحظ استعمال حرف الجر من الذى يفيد ابتداء الغاية (مِمَّا تَرَكَ) .

وهكذا يفاير القرآن الكريم في التعبير الأول (ثُلُثًا مَّا تَرَكَ) عن التعبير الثاني (أَلثُلثَانِ مِمَّا تَرَكَ) ليبين مكان اقتطاع الثلثين ، فالأول إضافة بدون (من)

مما يشير إلى أنه ليس من أصل المال ، والثاني بدون إضافة بوجود ( من )  
مما يشير إلى أنه من أصل المال .



## المبحث الثامن : العدول عن العدد :

إن العدول عن العدد لا يكون إلا في سياق عدد ، أي أن العدد تم التعبير عنه بكناية ما ، فهي كناية عددية ، ومن الكنايات العددية :

## المثال الأول | آخر : | أخرى :

﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة) ١٨٥ .  
 ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَىٰ ﴾ (طه) ١٨ .

{	أَيَّامٍ أُخَرَ	}	1
{	مَنَازِلُ أُخْرَىٰ	}	2

[البقرة] { ١٨٥ }  
 [طه] { ١٨ }

الصورة الأولى 1-ى : { أَيَّامٍ أُخَرَ } : جاءت كلمة (أُخَرَ) في القرآن الكريم خمس مرات :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة) ١٨٥ .  
 ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة) ١٨٥ .  
 ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرٌ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (٧)

آل عمران .

﴿ وَسَبَّحَ سُبْحَاتٍ خُضِرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءُؤِي ﴾ (يوسف) ٤٣ .  
 ﴿ وَسَبَّحَ سُبْحَاتٍ خُضِرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ (يوسف) ٤٦ .

مما سبق نرى أن القرآن استخدم لفظة الجمع لوصف (الأيام ، الآيات ، سنبلات) : أَيَّامٍ

أُخْرَ ، وَأُخْرٌ مُتَشَبِهَةٌ<sup>ط</sup> ، وَأُخْرَ يَأْسَتِ . وذكر الموصوف في ( الأيام ) وحذفه في الآيات والسنبلات . وعند وصف المآرب ، الآلهة : استخدم الله لفظة المفردة ( أُخْرِي ) لا الجمع ( أُخْرَ ) .

أما سر الاستعمال : أن ثمة فارقاً ينتبه إليه القرآن هو الفرق بين اختلاط المفردات وعدم تجانسها ، وبين المفردات المتجانسة ، فكلمة ( أُخْرَ ) جاءت لوصف ثلاث جموع هي ( السنابل ) ، ( أيام الصيام ) ، ( آيات القرآن ) ومفردات كل نوع منها متساوية ، من جنس واحد ، ولا يوجد فيها تمايز .

**الصورة الثانية ②** { مَآرِبُ أُخْرِي } : أما الجموع التي وصفت بالمفرد ( أُخْرِي ) فقد جاءت لوصف جمعين ( مَآرِبُ أُخْرِي ، ءَالِهَةٌ أُخْرِي ) فالمآرب ليست من جنس واحد ، وقد يكون بعضها أفضل من الآخر ، وكذلك الآلهة ليست من جنس واحد منها ، فقد عبدوا الأشخاص والملائكة والشمس والقمر ، والنجوم ، والنار ، والبقرة ، والأصنام وبلغ عدد الأصنام حول الكعبة وحدها قبل الإسلام ( ٣٦٠ ) صنم ، أي صنم لكل يوم من أيام السنة ، ولم يبق إلا أن يكون هناك صنماً لكل بيت .

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ ۖ وَمَنْ بَلَغَ أَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۗ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١٩) ( الأنعام ) .

وبذلك نقف على قانون لغوي لوصف الجموع المتقابلة ، فإن كانت متماثلة فتوصف بكلمة ( أُخْرَ ) ، وإن كانت متداخلة وأخلاقاً متعددة توصف بالمفرد ( أُخْرِي ) ، : فبالرغم أنه نحوياً يجوز استعمال المفرد والجمع لوصف جمع التكسير ، إلا أن الاستعمال مقنن وهذا التقنين :

**المفردات المستقلة** عن بعضها البعض : عند الجمع : توصف بجمع ( أُخْرَ ) .

**المفردات غير المستقلة** التي لا تفصل أفرادها بعضهم عن بعض : عند الجمع توصف بكلمة ( أُخْرِي ) .

أُخْرَ  
لوصف المفردات المتماثلة .

وَأُخْرِي  
لوصف المفردات المتداخلة .



## المثال الثاني | قرنا : قرونا :

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٣١) ﴿ (المؤمنون) .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ (٤٤) ﴿ (المؤمنون) .

جاءت كلمة قرن مفرداً وجمعاً موصوفة في المرتين بكلمة آخرين :

[المؤمنون]	{ ﴿٣١﴾	قَرْنًا آخَرِينَ	}	1
[المؤمنون]	{ ﴿٤٤﴾	قُرُونًا آخَرِينَ	}	2

**الصورة الأولى 1** : { قَرْنًا آخَرِينَ } : النص يتحدث عن الأمة التي أعقبت قوم نوح ، فلا يقصد ما جاء بعد نوح من أمم ، ولكنه يقصد الأمة التي خلفت قوم نوح مباشرة ، وهي أمة واحدة ، لذا عبر عنها بالمفرد ( قَرْنَا ) لأنه لا يتحدث سوى عن أمة واحدة . انظر إلى سياق القرآن : ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنَ الْقَوَارِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴿ (المؤمنون) .

يقصد بقولهم ( مِنْ بَعْدِهِمْ ) أمة نوح الهالكة بالطوفان ، والقرن ( الأمة ) التي جاءت بعدها مباشرة هي أمة عاد . فالأمة الهالكة ( قوم نوح ) قرن ، والأمة التي أعقبتها ( أمة عاد ) قرن آخر ، والقرن يتكون من مجموع ( أفراد الأمة ) ، لهذا قال عن القرن الهالك مِنْ بَعْدِهِمْ ، وقال عن القرن الذي حلَّ مكانه ( آخَرِينَ ) .

**الصورة الثانية 2** : { قُرُونًا آخَرِينَ } : ولعل ما يوضح الصورة بأن القرن هو الأمة الواحدة التي تعيش في زمن واحد : ، أن الله ﷻ استخدم في السورة نفسها التعبير نفسه بالجمع ( قُرُونًا آخَرِينَ ) وسر الجمع أنه يتحدث عن هلاك الأمة التي خلفت قوم نوح وهي أمة عاد ، وقد هلكت هي أيضاً لتكذيبها هوداً ، ثم خلفتها بعد ذلك أمم متعددة ، لذلك عبر

عن تلك الأمم بلفظة (قرون) .

- الأمّة الهالكة (قوم نوح) خلفتها أمة واحدة هي (قوم عاد) قرن واحد .  
 الأمّة الهالكة ( قوم عاد ) خلفها أمم عدة إلى وقت الرسول S قرون .  
 • عند التعبير عن محدد واحد : هو التالي مباشرة استخدم المفرد .  
 • عند التعبير عن محددات متعددة : كل من جاء بعد الأمة الثانية استخدم الجمع .

والخلاصة :

﴿ تَرَأُونَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخِرِينَ ﴾ (٣١) (المؤمنون) .  
 ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ ﴾ (٤٢) (المؤمنون) .

- قَرْنًا آخِرِينَ : يقصد الأمة التالية مباشرة لأمة نوح وهي أمة واحدة هي أمة هود . يناسبها المفرد .  
 قُرُونًا آخِرِينَ : يقصد كل الأمم التي أعقبت الأمة الثانية الخاصة بهود ، وهي أمم كثيرة . يناسبها الجمع .



## المثال الثالث | معدودة : معدودات :

- ① ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة) .
- ② ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُوتُونَ ﴾ (آل عمران) .
- الآيتان على لسان اليهود ، يزعمون أنهم لن يمكثوا في النار إلا أياماً قليلة: لكنه استخدم في النص الأول ① صفة مفردة للأيام (مَعْدُودَةٌ) ، واستخدم في النص الثاني ② جمعاً سالماً (مَعْدُودَاتٍ) .

**والقاعدة اللغوية :** أن الموصوف الجمع يتحدد زيادته أو قلته حسب النعت ، فالنعت المفرد يشير إلى أن الموصوف أكثر من عشرة ، والنعت الجمع يشير إلى أن الموصوف من (٣ : ١٠) وذلك لأن العرب عندما تستخدم التمييز للأعداد تضع لجمع القلة (من ٣ : ١٠) جمعاً ، فإذا زاد العدد عن عشرة جاء التمييز مفرداً ، فنقول سبع بنات ، عشرة أولاد ، خمسة عشر ولداً ، تسعون ولداً ، مائة ولد ، ألف ولد ، وهكذا إذا زاد عن عشرة نستخدم له تمييزاً مفرداً ، وإذا كان عشرة فأقل نستخدم التمييز جمعاً ، والنعت بعد الجمع يعادل العدد ، فإذا كان العدد من عشرة إلى ماتحتها وضع النعت جمعاً ليوافق تمييزها الذي يأتي جمعاً ، وإذا كان العدد فوق العشرة ، تأتي بالنعت مفرداً ليوافق تمييزها الذي يأتي مفرداً ، فالصفة توافق التمييز ، فقولك ثلاث أشجار ، ثلاث عشرة شجرة لورفعت العدد ووضعت صفة ، لقلت :

ثلاث أشجار (التمييز جمع) أشجار باسقات (النعت جمع)

ثلاث عشرة شجرة (التمييز مفرد) أشجار باسقة . (النعت مفرد)

فكما ترى أن باسقات جاءت جمعاً لتعادل الجمع في التمييز ، وجاءت باسقة مفردة لتعادل الإفراد في كلمة شجرة .

لقد قال اليهود قولين بشأن دخولهم النار ، فمرة قالوا إن الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإن الناس ستُعذب في النار سبعة أيام ، بمعدل يوم واحد في النار عن كل ألف سنة ، ومرة أخرى

قالوا : سنعذب أربعين يوماً لأننا عبدنا العجل أربعين يوماً فسنعذب عن كل يوم يوماً ، وثمة رواية أخرى في تعليل الأربعين يوماً هي أن النار طولها مسيرة أربعين يوماً ، فهم سيعذبون بقدر قطعهم للنار وكان النار شارع سيمشون فيه حتى نهايته (١) .

وما يعيننا هنا أن ثمة قولين بشأن دخولهم جهنم : **الأول** : سبعة أيام .

**الثاني** : أربعون يوماً .

{ ٨٠ }	أَيَّامًا مَّعْدُودَةً	{ 1 }
[البقرة]		
{ ٢٤ }	أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ	{ 2 }
[آل عمران]		

**الصورة الأولى 1** : { أَيَّامًا مَّعْدُودَةً } : جاء الوصف المكني عن العدد مفرداً ليوافق التمييز المفرد ، والتمييز لا يكون مفرداً إلا إذا كان العدد من ( ١١ / ٩٩ ) فهذا التعبير يعبر عن قولهم أن النار ستمسهم عدداً من الأيام بين هذين العددين ، وهو ما يوافق أحد القولين لهم وهو ( الأربعون يوماً ) .

**الصورة الثانية 2** { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ } : جاء الوصف المكني عن العدد جمعاً ليوافق التمييز الجمع ، والتمييز لا يكون جمعاً إلا إذا كان العدد من ( ٣ : ١٠ ) ، فهذا التعبير يعبر عن قولهم بأن النار ستمسهم عدداً من الأيام بين هذين العددين ، وهو ما يوافق القول الثاني لليهود وهو سبعة أيام .

ونزل القرآن يحكي مقاتلهم ، معبراً عن الأولى بجمع القلة ( مَّعْدُودَاتٍ ) وعن الثانية بالمفرد الذي يعني أكثر من عشرة ( مَّعْدُودَةٌ ) . وبذلك جاء القرآن دقيقاً كامل الدقة ، فعبر عن قولهم ( أربعين يوماً ) بكلمة ( مَّعْدُودَةٌ ) المفردة لتواكب التمييز ( يوماً الدال على الكثرة ) وعبر عن قولهم ( سبعة أيام ) بكلمة ( مَّعْدُودَاتٍ ) الجمع لتواكب التمييز ( أيام الدال على القلة ) .

عبادة العجل	٤٠ يوماً	مَّعْدُودَةٌ	1 البقرة
اقتراء كاذب	٧ أيام	مَّعْدُودَاتٍ	2 آل عمران

(١) ابن جرير الطبري . ج . الجزء الثاني . ص ٢٧٥ .

**مثال آخر : مَعْدُودَاتٍ •** جاءت كلمة معدودات ثلاث مرات :

﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة) ﴿٢٠٣﴾

كلمة (مَعْدُودَاتٍ) تقصد أيام التشريق الثلاثة ، وبذلك جاء جمع القلة معبراً عن عدد دون العشرة .

ويبقى من استعمالات القرآن لكلمة (مَعْدُودَاتٍ) استعمال واحد :

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة) ﴿١٨٤﴾

إذ يشير كثير من المفسرين بأنه يعني بكلمة ( أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ) شهر رمضان ، وهو تفسير يوقع القرآن في مشكلة لغوية وهي استعمال جمع القلة للتعبير عن عدد ليس قليلاً (٣٠ يوماً) . ونحن نرى أنه لا يمكن أن يكون المقصود بها شهر رمضان ، ولو أراد بها شهر رمضان لقال أياماً معدودة :

والجدول التالي يوضح الخلط الذي ستفيده كلمة (مَعْدُودَاتٍ) لو اعتبرناها تعني شهر رمضان ، إذ ستدل على القلة والكثرة معا :

#### جدول لفظة معدودات

آل عمران	مَعْدُودَاتٍ	٧ أيام	زعم اليهود عن إقامتهم في النار
البقرة	مَعْدُودَاتٍ	٣٠ يوماً	شهر رمضان
البقرة	مَعْدُودَاتٍ	٣ أيام	أيام التشريق في عيد الأضحى .

وفي رأينا أنها تعني عدداً أقل من العشرة .. ولو كانت كذلك فهي لم تأت في القرآن سوى في سياق متسق يفيد القلة التي تقف عند العدد عشرة في جميع استخداماتها .

ونحن نرفض القول بأنها جمع قلة ، لكنها عبرت عن شهر رمضان لتفيد التخفيف ، فالقرآن لا يخطأ في اللغة . بل هو يقنن اللغة : فنحن في آيات سورة البقرة أمام نوعين من الصيام ، صيام تدريبي فرضه الله ﷻ على المؤمنين قبل فرض شهر رمضان ليهيئهم

لشهر رمضان ، وهذا الصيام التدريبي سبق فرض شهر رمضان .

وهذه الآية ليست خاصة بشهر رمضان حتى يكون المقصود ثلاثين يوماً ، فسوف يأتي بعدها الحديث عن شهر رمضان . أي أن هذا لم يكن سوى الحديث عن تكليف المسلمين بصيام قبل شهر رمضان ، وكان هذا الصيام مثل الأمم السابقة أياماً معدودات لا يتجاوز عشرة أيام .

فقد درب الله المسلمين على الصيام عدة أيام ، ثم نزل بعد ذلك التكليف بصيام رمضان . وسياق الآية يقول : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، فصوموا مثلهم أياماً معدودات ، فلفظة (أياماً) مفعول به لفعل محذوف تقديره (صوموا) . أي أن كلمة أياماً معدودات تفسير لصيام الأمم السابقة .

وبعد ذلك فرض عليهم صيام شهر رمضان ، ففي الآيات التالية يتحدث عن شهر رمضان ويأمرهم بصيامه إن شهدوه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (البقرة) .

وتمة اختلاف نوعي بين الصيامين ، يمكن أن نقض عليه في الجدول الآتي :

رمضان	الصيام التدريبي	الإعفاء
كَانَ مَرِيضًا	كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا	
عَلَى سَفَرٍ	عَلَى سَفَرٍ	
	وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ	
فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ	كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ	التكليف

شَهْرُ رَمَضَانَ

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ

المدة

الجدول السابق يكشف أن هناك افتراقاً بين النوعين في الرخصة فرمضان لم يرخص الله لأحد سوى المريض والمسافر ، وفي الصيام التدريبي رخص لهذين الاثنين ، وأباح لكل قادر على الصيام أن يفطر في مقابل إطعام مسكين ، وهذا لا يوجد في رخص رمضان .

وإلى جوار الاختلاف في الرخص : صدر تكليفان ، ولو كان كلا الصيامين واحداً ، لصدر تكليف واحد . وصف أحد الصيامين بأنه كتب على الذين من قبلهم ، ورمضان لم يكتب لأحد قبل المسلمين ، مما يعني أن مشابهة الأمم الأخرى لم تكن في صيام رمضان ، لكن في معنى الصيام . ولو كان الصيامان واحداً ما صلحت كلمة معدودات ؛ لأنها جمع قلة لا تحل وصفاً إلا مكان تمييز جمع لا يتجاوز العشرة .

نخلص مما سبق أن الآيات تتحدث عن صيام تمهيدي فرض سنتين أو ثلاثاً على المسلمين قبل فرض رمضان ، وهو يماثل صيام الأمم الأخرى ، وكان تدريجياً للمسلمين وتهيئة لفرض صيام أشد هو صيام شهر كامل ، ولذلك أعفى منه القادر وحببه فيه .

وبذلك نرى أن لفظة (مَّعْدُودَاتٍ) جاءت ثلاث مرات لتعبر عن :

١. سبعة أيام يقضيها اليهود في النار

٢. لتعبر عن ثلاثة أيام هي أيام التشريق

٣. بضعة أيام من ٣ : ١٠ لتعبر عن الصيام الذي فرض على المسلمين قبل فرض صيام رمضان .

فقبل رمضان كان من يطيق الصيام مُخَيَّرًا بين أن يصوم أو أن يفطر ويطعم بدلاً منه مسكيناً ، فمن تطوع فهو خير له ، وصيامه خير له ، لكن له الرخصة في أن يفطر ويطعم بدلاً من ذلك مسكيناً . في رمضان لا يجوز ذلك لابد أن يصوم . ولا يعفى من الصيام إلا لعذري السفر والمرض ، فيؤجل له الصيام .

مما سبق نفهم أن ثمة لبساً في فهم الآية أدى إلى الظن بأن المقصود رمضان ، برغم أن

الحديث عن رمضان لم يأت إلا بعدها ، وبناء على ظنه فهم أن الجمع يعبر عن ثلاثين يوماً هم أيام رمضان . ولو كان يقصد رمضان ما قال أياماً معدودات ، لأن رمضان يحدد المدة فلا داعي لإبهامها في قوله : . مَعْدُودَاتٍ

مَعْدُودَةٌ • جاءت كلمة معدودة وصفاً لجمع مرتين :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة) .

﴿ وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (يوسف) .

جاءت كلمة معدودة وصفاً لجمع : مرتين :

فالقول الأول (أَيَّامًا مَعْدُودَةً) يقصد به أربعين يوماً وهي المدة التي زعم اليهود أنهم سيقضونها في جهنم سواء لأنهم عبدوا العجل أربعين يوماً ، أو أن طول جهنم مسيرة أربعين يوماً .

أما القول الثاني : فيتحدث عن الثمن الذي بيع به يوسف (دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) مما يعني أنه بيع بأكثر من عشرة دراهم ، وقد نميل إلى أنها أربعين درهماً ، وليس ثمة ما يمنع أن تكون اللفظة الواحدة قد جاءت لتعبر عن عدد واحد ، ويكون الثمن البخس الذي بيع به يوسف الصديق هو أربعون درهماً . والله أعلم .

البقرة	مَعْدُودَةٌ	٤٠ يوماً	زعم اليهود عن إقامتهم في النار
--------	-------------	----------	--------------------------------

يوسف	مَعْدُودَةٌ		ثمن يوسف
------	-------------	--	----------



## المثال الرابع | اثنان : آخران :

❁ إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴿١٠٦﴾ ❁ (المائدة).

[المائدة]	{ ﴿١٠٦﴾	اثنان	}	1
[المائدة]	{ ﴿١٠٦﴾	آخران	}	2

**الصورة الأولى 1** : { اثنان } : استخدم العدد الصريح في الشهادة على الوصية لأنه يريد تحديد العدد.

**الصورة الثانية 2** { آخران } : ثم قال بعدها (أو آخران من غيركم) <sup>(١)</sup> ولم يقل ( اثنان من غيركم ) : لأن لفظه (اثنان) لا تفيد سوى تحديد العدد ، والعطف على قوله (اثنان) يستوفى له العدد ، فأصبح ذكرها لا يضيف جديداً ، لهذا عدل عنها إلى لفظه تعطي العدية والوصفية .

**اثنان من غيركم** : لو قالها لكان المقصود تحديد العدد كما في قبلها ، لكن العطف يضمن له تحديد العدد ، فلا حاجة له للقول (اثنان) .

**آخران من غيركم** : تعطي العدد وتضيف أمراً آخر هو : غيبة الاثنين ، أو أجنبيتهما.



(١) سورة المائدة . الآية (١٠٦) .

## المثال الخامس | بضع :

وردت لفظة بضع في القرآن الكريم مرتين للدلالة على عدد أبهمه القرآن الكريم ، والعدد (بضع) كناية عن عدد يتراوح بين (٢ ، ١٠) فهو يعبر عن العدد الأحادي الجمعي . وأميل إلى أن الدقة من ثلاثة إلى تسعة ، لحديث النبي ﷺ لأبي بكر الصديق في شأن رهانه مع أبي بن خلف ، عندما أمره أن يجعلها إلى تسع ، وكذلك لأنك لو قلت بضع عشرة ، أو بضعه عشر ، فلا يمكنك أن تضع مكانها أبداً إلا عدداً من (٣-٩) .

وأصل الكلمة من تقطيع اللحم ، فكما قال ابن فارس في مقاييسه : البَضْعَةُ القِطْعَةُ وهي الهَبْرَةُ. قال الأصمعيّ: البَضْعَةُ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ مَجْتَمِعَةٌ. فاللفظة تطلق على المدة من الزمن ، مقتطعة لهذا الغرض ، أي أنه لا يمارس في هذه المدة شيئاً آخر غير السجن . وكذلك الروم في بضع سنين يتحقق لهم النصر ، لكنه في خلال هذه المدة لا ينشغلون بشيء غير طلب النصر على الفرس .

ومن هذا قولهم: بَضَعْتُ الغُصْنَ أَبْضَعُهُ، أي قَطَعْتُهُ. فأما المَبَاضِعَةُ التي هي المباشرة فإنها من ذلك، لأنها مُفَاعَلَةٌ مِنَ البُضْعِ، وهو من حَسَنِ الكِنَايَاتِ.

إنما سُمِّيتِ البِضَاعَةُ بِضَاعَةً لأنها قِطْعَةٌ مِنَ المَالِ تُجْعَلُ فِي التِّجَارَةِ ، والشَّجَةُ البَاضِعَةُ التي تُشَقُّ اللَّحْمُ وَلَا تُوضِحُ عَنِ العِظْمِ . وقال الدَّرِيدِيُّ: البُضِيعُ جَزِيرَةٌ تَقَطَعُ مِنَ الأَرْضِ فِي البَحْرِ.

**الموقف الأول :** المدة التي قضاها يوسف عليه السلام في السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ  
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (يوسف) .

يطلب يوسف عليه السلام من المظنون نجاته أن يذكره عند الملك ، وقد عبّر يوسف عن الملك بلفظة الخطاب (ربك) لأن الملك رب للناجي ، ولا يراه يوسف كذلك ، لذلك لم يقل (عند ربي) ، فأنسى الشيطان هذا الناجي أن يذكر ربه الملك بما طلبه منه يوسف ، وترتب على نسيان الناجي أن بقي يوسف في السجن بضع سنين .

فَلَبِثَ استعمل (لبث) لأنه بقاء مع انتظار . والفاء لأنها مترتبة على ما قبلها ( فعدم ذكره للملك أدى إلى لبثه في السجن تلك السنين .

قَدَّمَ المكان على الزمان ، لأن هذا المكان يسلب الزمن جوهره ، فالسجن يحول الزمان إلى مكان .

بِضْعٍ بضع لا تزيد عن عشرة سنين .  
سِنِينَ اختار القرآن لفظة سنين لاتصال المدة ، وشدة المعاناة فيها ، فلا راحة في سجن .

**الموقف الثاني :** الأجل الذي سيحول فيه الروم هزيمتهم إلى نصر :

﴿ الْم ١ ۞ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥ ۞ ﴾ (الروم).

لقد انتصر الفرس المجوس عبدة النار على الروم الذين يدينون بدين سماوي ، فاعتبر كفار مكة أن تلك موازة ، وأن انتصار أصحاب الديانة غير السماوية على الديانة السماوية هي بشرى بانتصارهم على محمد S بصفته ديناً سماوياً ، وإن تعجب فاعجب لهؤلاء ، لأنهم بموقفهم هذا يقولون أن محمداً S نبي منزل من عند الله وليس كما يتقولون عليه .

ويغتم المسلمون ليس لهزيمة الروم ، لكن لانتصار الأوثان ، وينزل الله √ تلك الآيات التي تحمل بشرى انتصار الروم ، فخرج أبو بكر الصديق فقابل أبي بن خلف فقال له : لا يقرّر الله أعينكم ، فو الله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف. كذبت يا أبا فضيل ، اجعل بيننا أجلاً أنا حيك عليه<sup>(١)</sup> فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله S فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدة في الخطر وماده في الأجل. فجعلها مائة قلوصل إلى تسع سنين.

وقد ربح أبو بكر الخطر من ذرية أبي الذي مات في جرحه من رسول الله S فأمره النبي S بالتصدق به . والآيات كما يقول الزمخشري من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، ولم لا ؟ وقد تحقق النصر للروم في بضع سنين كما حددت الآية ، وليس في هذا فحسب ، فالآية

(١) والمناحية: المراهنة .

تشير إلى مكان المعركة الذي سيحدث بعد بضع سنين ، وهو أدنى الأرض ، والدنو قرب رأسي ، وليس لم يحدده هو أدنى بالقياس لأي الأمكنة ؛ لأن القرب هنا بالقياس للأرض ، فالمكان الذي ستحدث فيه المعركة هي أكثر أماكن الأرض انخفاضاً ، وهو حوض البحر الميت ، ولذلك قال في أدنى الأرض ، أي أكثرها خفضاً . ولم يقل بعد بضع سنين ، لأن النصر الذي تم بعد بضع سنين استغرق الإعداد له سنين ما قبل النصر ، فكأن الروم قبل تلك المعركة في معركة ، فقد بدءوا بعد الهزيمة مباشرة في الإعداد للنصر حتى تحقق لهم كما حددت الآية . ولا تكتفي تلك الآية بما قدمته من آيات على علم الغيب ، بل تقول أيضاً ( وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ) لتقرر أن نصر الروم على الفرس سيتزامن مع انتصار للمسلمين على الكفار ، ليفرح المؤمنون بنصر الله .

وبذلك تحمل الآية : الدلالات الآتية :

- ١- تحديد مكان المعركة في حوض البحر الميت .
- ٢- هذا المكان هو أكثر أماكن الأرض انخفاضاً عن سطحها ، وهذا يعني إحاطة كاملة بتضاريس الأرض المكتشف منها أيامها والمجهول وقتها .
- ٣- تحقق النصر في البحر الزمني الذي حددته الآية الكريمة .
- ٤- بشرى بتزامن نصر للمسلمين موازياً لانتصار الروم على الفرس .
- ٥- الإخبار بأن النصر لن يتم صدفة ، ولكن بإعداد جاد في كل السنين التي تسبق المعركة .







## الفصل الرابع

قضايا متعلقة  
بالأعداد



## الفصل الرابع

### قضايا متعلقة بالأعداد

## ١ الساجدون ليوسف :

لم يرد الرقم أحد عشر في القرآن الكريم سوى مرة واحدة في حلم يوسف عليه السلام معبراً عن أحد عشر كوكباً يسجدون له ، وهذا العدد مطابق لعدد إخوته ، والمنام نبوءة لهذا الصغير بأنه سيصبح ملكاً ، ويسجد له إخوته جميعاً وقد عبّر الحلم عن ذلك بطريقة رمزية ، فرمز إلى الإخوة بالكواكب ، ورمز للأب بالشمس ، ورمز للأم بالقمر . وفي ختام قصة يوسف نرى أن الحلم قد تحقق : (وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا <sup>١٠٠</sup>)<sup>(١)</sup> . لكن قبل أن نصل إلى تحقق الحلم ، فلنبدأ من الحلم أولاً ، كما ذكرته السورة :

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ <sup>٤</sup>

إِذْ استخدم الظرف الماضي لأنه يحكى قصة قد مضت من عشرات القرون .  
قَالَ البدء بقال ، هو وضع المستمع في قلب القصة بدون مقدمات ، ليشارك بخياله في بناء القصة .

يُوسُفُ هو الكريم بن الكريم بن الكريم ، فهو نبي ، وأبوه يعقوب نبي ،  
وجده إسحاق نبي ، وأبوجه إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء .

تقول التوراة أن الاسم معناه : يزيد لأمه لما ولدته قالت : قالت يزيدني الرب ابناً آخر . ولا نميل إلى ذلك ، والأرجح أنه بمعنى الآوي من الأصل العبري بمعنى (أسف) بمعنى ملم وقد ملم يوسف شمل أخوته والأسرة .<sup>(٢)</sup>

(١) سورة يوسف . الآية ١٠٠ .

(٢) رؤوف أبو سعدة . من إعجاز القرآن . العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن . الجزء الأول . دار الهلال . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٩٩٣ . ص ٣٢٢ .

، وتاريخ يوسف يكشف أن تلك الصفة تحققت فيه ،

لم يقل لوالده كما قالها نوح : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ (نوح) .

لِأَبِيهِ

وذلك لأن نوحاً لم ير من والده اعتناء واهتمام ، كما رأى يوسف من يعقوب ، لهذا استخدم يوسف لفظة (أب) واستخدم نوح لفظة (والد) والفارق : أن كل من أنجب : والد ، فإذا ربي واهتم واعتنى فهو الأب ، فليس كل والد أباً .

وظيفة النداء أن تستحضر الغائب ، فإذا كان المنادى حاضراً ، فنداؤه يفيد التنبؤ به بأهمية الخبر الذي ستقدمه له أهمية تماثل أهمية طلبك لحضور الغائب .

يَتَأَبَّتْ

التاء : للتلبس ، أي استحضار الأبوة في أجلى معانيها . ولا نوافق على القول بأن أصل الكلمة يا أبي : حذفت الياء ، وعض عنها تاء التأنيث اللفظي ، فلا سبب لذلك ، كما أن الياء تحذف كثيراً ولا يعوض عنها بتاء التأنيث اللفظي ، وكذلك لا نوافق على ما قاله ابن عاشور أنها هاء السكت للوقوف على آخر الكلمة لنقص لام الكلمة ، ثم لما شابته هاء التأنيث بكثرة الاستعمال عوملت معاملة آخر الكلمة ، فقالوا عند الإضافة ( يا أبتى ) ثم استغنوا عن الإضافة بالكسرة لكثرة الاستعمال ، ويدل على ذلك ببقاء الياء في قول الشاعر :

أيا أبتى لا زلتَ فينا فإنمّا لنا أملٌ في العيش ما دمت عائشاً

فلو كانت هاء السكت لحذفت عند الإضافة . كما أن القرآن الكريم كثيراً ما يحذف ياء الكلمة ويترك دليلاً على الحذف الكسرة ، دون أن يضع مكان الياء المحذوفة شيئاً . ونرى أن التاء هنا تاء التلبس التي لا تفيد تأنيثاً ولا إفراداً : فتاء التأنيث : تحذفها تحصل على المذكر كقولنا : مسلمة ، حذف التاء : مسلم (مذكر) إذن التاء للتأنيث ، وهنا تاء الوحدة التي لو حذفها حصلت على الجمع مثل قولنا : نملة ، حذف التاء يحول الكلمة إلى الجمع ، فدل أنها تاء الوحدة ، والتاء الثالثة هي تاء التلبس : مثل قولنا : مرضعة ، تحذف التاء لا تحصل على جمع ، ولا مذكر ، فدل على تجسد الحدث

لحظة الكلام أي تقوم بالإضاع الآن ، كذلك تاء ( أبتى ) أي أحتاج إلى أبوتك بشدة الآن .

أما حجب الياء الذي دلت الكسرة عليه فهي مثل حذف ياء ( رَبِّ ) عند النداء ، ومثل حذف ياء ( يَنْقُومِ ) عند النداء ، فالحذف يتبع قانون الرسم القرآني الذي يسقط ياء الإخفاء عند حضور المنادى لحظة النداء . فعلة حذف الياء أنه يخاطب متجسداً أمامه ، فأخفى ياء الإخفاء لأنها لا تناسب ظهور المخاطب .

• التأكيد لأن ما سيقوله عرضة للتكذيب . وإدغام النونين لأنه لا يريد المفارقة ، فبرغم أنه ما في الحلم لا ينتوي أن يفارق أهله .

إِنِّي

رؤية المنام . وهي تكشف أن الله اختاره للنبوة ، وإرهاصات النبوة : الرؤيا الصادقة . وقال ابن عباس كانت الرؤيا في الأنبياء وحياً .

رَأَيْتُ

جاء الفعل ماض للدلالة أنه لم يحلمه سوى مرة واحدة ، ولو جاء به مضارعاً لدل على رؤية الحلم أكثر من مرة كما سيأتي بعد ذلك في حلم صاحبي السجن (إِنِّي أَرْنِيكَ ) ، وحلم الملك (إِنِّي أَرَى ) .

إعادة للعد من جديد فالمنى واحد بعد عشرة ، ولذلك يسري عليه ما يسري على الرقم واحد وهو مطابقة التمييز . ولم يقل واحد عشر ، حتى لا يفهم أنه يقصد عشرة واحدة .

أَحَدَ عَشَرَ

• جاء العدد كذلك لأنه يطابق عدد إخوته ، والحلم سيتحقق فيما بعد ، وسيسجد له إخوته ، فلا بد أن يكون العدد مطابقاً لعددهم . وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً بيوسف .

ولاشك أن الحلم لم يكن خيراً ليوسف فحسب ، بل لهم أيضاً ، لأنه على الأقل قد كفل لهم البقاء وعدم الموت حتى يتحقق الحلم ، لكن الغيرة ستجعلهم لا يرون الجانب المضيء في الحلم ، فالحلم أول درجات الخير فيه أن لا أحد

منهم يموت حتى يصل يوسف إلى تلك المكانة .

اختار كوكباً لأن الكوكب يختلف عن النجم ، فالنجم يتوهج ذاتياً ، والكوكب يعكس ضوء النجم ، فإن كان الأحد عشر كوكباً يرمزون إلى الأبناء ، فالابن انعكاس لأبيه . لولا أبوه ما كان . فلفظة (كوكباً) لأن أبناء يعقوب (الكواكب) يستمدون نورهم من أبيهم (الشمس) .

كوكباً

الأب ، برغم ان لفظة الشمس مؤنثة ، والشمس هي المحور ، فهي نجم يتوهج ذاتياً ، ويكسب الكواكب نورها عندما يسقط عليها ضوءه فتتير . وقد جعلها مستقلة لأن الأب كذلك .. وقدمها على الأم التي رمز لها بالقمر . وقد جمع الشمس والقمر في الرؤيا ، وهما لا يجتمعان معاً ، فكل منهما يظهر في زمن غير الآخر : يرمز إلى أن الله سيدلل له كل شيء كما جمع له الزمنين في زمن واحد .

وَالشَّمْسِ

الشمس منصوبة .. والنصب هنا يعني أحد أمرين :

١. معطوف على ما المفعول به قبله (أحد عشر كوكباً) ، وهذا يعني أنه الأب والأم سجدا له في الرؤيا ، وما الواقع فيما بعد إلا تحقيق للرؤيا بحذافيرها كما وقعت .

٢. مفعول معه ، والمفعول معه يعني وجودك في موضع الحدث لكن دون أن تشارك فيه ، أي حدث الشيء أمام عينيك دون مشاركة منك ، فعندما نقول : جلست والتلفزيون ، فهذا يعني أنك جلست مع وجود النيل ، لكن دون مشاركة منه في فعلك . وإذا اعتمدنا هذا الإعراب : فهذا يعني أن الأب والأم لم يسجدا ، لكن كانا شاهدين على سجود الإخوة ليوسف دون مشاركة منهما في السجود ، أي أن الإخوة سجدوا في حضرة أبيهما لأخيها .

وأنا أقطع أن الإعراب لا يجوز إلا ذلك ، وأن الله لا أكرم الأبوين ولم يفرض عليهما السجود ، وأن الأخوة فحسب هم من سجدوا لأخيهم .

يرمز للآم ، والقرآن بذلك يقطع أن أم يوسف ستظل حية حتى يرفعها مع أبيه على العرش ، بخلاف ما جاء في سفر التكوين أن راحيل قد ماتت وهي تلد بنيامين . فهي ليست خالته كما يزعمون . فمادام قد رأى رؤيا تقرر أن الأم ستسجد له ، إذن فيجب أن تظل الأم على قيد الحياة حتى يتحقق الحلم ، لأن موتها يهدم كون الحلم رؤيا واجبة التحقق .

وَالْقَمَرَ

والقمر لفضة مناسبة للآم لأنه تابع للشمس ، فهو فوق الكوكب ودون الشمس ، وتلك هي الأم ، تلى زوجها وتفضل أولادها .

كرر الرؤية ؛ لأن الرؤية الأولى للذوات ( الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ) والرؤية الثانية للحدث الصادر منهم وهو السجود له تحديداً . ولو حذف الرؤية الثانية ما قطع بأن السجود اختص به يوسف ، فقد رأى الذوات أولاً غير ساجدة ، تقف أمامه ، ثم بعد ذلك رأهم وقد قاموا بالسجود ، فقطعاً السجود له ، أما لورآهم من البداية ساجدين ، فقد يكون تلك حالتهم له ولغيره .

رَأَيْتُهُمْ

• لورآهم ساجدين من أول مرة ، ما فهم أنه يسجدون له ، فعمل تلك طبيعتهم لكل أحد ، لكن كان لا بد أن يراهم في حال أولاً ، ثم يقومون بالسجود له .

تكررت ( رأيت مرتين ) في تلك الآية : لاختلاف الرؤيتين ، فالرؤية الأولى كانت للذوات ، والثانية للحدث الذي صدر من تلك الذوات .

ومادام الأبوان لن يسجدا ، فلا يمكن أن تكون الرؤية واحدة ، وإلا لو كانت الرؤية واحدة لرآهم ساجدين ، لكنه رأى الجميع بلا سجود ، ثم رأى فعل السجود من الإخوة فحسب . فكان يجب أن تكرر الرؤية . لتكون رؤية ذوات ثم رؤية حدث يصدر من بعض الذوات لا كلها .

لو حذف ( لي ) لدل أن السجود تم ، لكن ليس له . أو أنه أقبل وهم ساجدون ، لكن وجودها يؤكد أنهم لم يسجدوا إلا بعد أن أصبح أمامهم

لي

السجود خاص بالعقلاء ، قيل في سبب جعله للعقلاء أنه لما أخبر عنهم بالسجود

سَجِدِينَ

الذي لا يكون إلا لمن يعقل أجراهم مجرى من يعقل<sup>(١)</sup> في سبب ذلك فعندما فعلته الرموز ، استخدم معهم تعبير العاقل . قيل في

تقول التوراة أن راحيل ماتت وهى تلد بنيامين .. ويقول القرآن عن يوسف عندما أصبح ملكاً ( وَرَفَعَ أَبُوبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ ) مما يفيد أن أمه لم تمت مبكراً كما قيل .

وقد حاول المفسرون المسلمون أن يجدوا حلاً وسطاً بين الأمرين فقالوا أن يوسف رفع أباه وخالته والخالة أم مثلما العم بمثابة الأب، فيكون النصفان صحيحين ، وأن راحيل الأم قد ماتت ، وأنه رفع خالته التي هي بمثابة أمه . وكل ذلك لأن سفر التكوين قال إن أم يوسف قد ماتت ، فأرادوا أن يوفقوا بين التوراة وبين القرآن ، لدرجة أن بعضهم قال إنها ماتت ، لكن الله أحيها ليحقق الحلم . وهذا البحث يناقش هذه القضية .. هل حقاً ماتت راحيل قبل الحضور إلى مصر ، وأن التي رفعت إلى جوار يعقوب على العرش هي أختها ، وليست الأم الحقيقية التي ولدت يوسف ؟؟ تعالوا بنا .. نذهب في رحلة إلى الحقيقة ..

### • موت راحيل عند المفسرين المسلمين .

كثير من المفسرين ، قالوا أن القرآن يقصد خالته لأنها زوجة أبيه وبمثابة أمه ، هي أم أخوته ، لكننا نرى أن القرآن الكريم لا يترك ظاهره لموافقة كتاب حكم الله عليه بأن أصحابه قد حرفوه ، ولعل كل من قال بذلك لويصله هذا الموروث التاريخي من موت راحيل : لو سألته ما المقصود بأبويه ما قال إلا شيئاً واحداً : هما أمه وأبوه . لكن لأنه يفسر بعد أن عرف أن سفر التكوين قال بموتها أراد التوفيق . لكن : أالتوراة حكماً على القرآن الكريم؟؟ لقد ترك الله التوراة لأهلها ليحفظوها فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وكتبوا بأيديهم ما لم يقله الله ، بينما لم يترك للمسلمين حفظ القرآن ، وحفظه هو ، وهو خير حافظاً فأيهما يكون الحكم على الآخر ؟

نرى إذن أن كلمة (أبُوبِيهِ) في القرآن يقصد بها : يعقوب وراحيل . كما يمكن أن

(١) أبو الحسن المجاشعي النحوي - النكت في القرآن . تحقيق عبد الله الطويل . دار بدر . المنصورة .

نُفهمهما من المرة الأولى لو لم تكن هناك توراة . وإني لأرجو أن يفسر القرآن من الوهلة الأولى التي يقدمها ، لأن التفسير إذا حاول التوفيق بين اللفظ القرآنية وما جاء في التوراة ، يبعد اللفظة القرآنية عن مسارها .

وقيل: عُنِي بقوله: (ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ ) : أبوه وخالته. وقال الذين قالوا هذا القول: كانت أم يوسف قد ماتت قبل، وإنما كانت عند يعقوب يومئذ خالته أخت أمه ، كان نكحها بعد أمه. وذكر ابن جرير أن السدي من قال ذلك . وذكر الطبري أيضاً أن ابن إسحاق قال : أباه وأمّه . وعلق ابن جرير على ذلك :

وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق ؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في «أبوين» ، إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها ، فيسلم حينئذ لها .

وذكر ابن كثير الرأيين: وأضاف إلى السدي في القول بالخالدة عبد الرحمن بن أسلم ، وذكر أن ابن جرير نصر الرأي بالأم لأن ظاهر القرآن يدل على حياتها ، وقال ابن كثير : وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق. أما البغوي فقال : قال أكثر المفسرين : أبوه وخالته ليا لأن أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين . وذكر البغوي أن بعض التفاسير قد ذكرت أن الله ﷻ أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر .

وفي البحر المحيط : ذكر للحسن وابن إسحاق أنها أمه راحيل ، وأنها كانت بالحياة ، وذكر لهما أيضاً : أو أنها قد ماتت وأحياها له ليصدق رؤياه . وذكر البحر أيضاً الرأي الثالث عن ابن عباس : أبوه وخالته ، وكان يعقوب تزوجها بعد موت راحيل والخالدة أم وكانت ربت يوسف ، والرابة تدعى أمماً . وقال بعضهم : أبوه وجدته أم أمه ، حكاه الزهراوي .

والأمر نفسه طرح الرازي :

١. أمه ( حية ) أو ( أحياها له ) .

٢. خالته التي تزوجها أبوه بعد أن ماتت راحيل في نفاسها ببنيامين وسميت بذلك لأنها خالته والخالدة أم كما أن العم أب ، أو لقيامها مقام الأم .

وقد قال بالرأي القائل خالته كل من : مقاتل ، وهب بن منبه ، سفيان الثوري ، ابن

عباس ( ذكر كل ذلك السمرقندي ) . وجاء في الدر المنثور ( سفيان بن عيينة ) وعرض ذلك أيضاً النيسابوري ، وكذلك الزمخشري .

### جدول رقم ( ٢ / ٢ )

أبوه وأمه	أبوه وخالته
أمه حية	خالته
الحسن وابن إسحاق ، وقتادة ومال إلى رأيهما الطبري وابن كثير	
السدي وعبد الرحمن بن أسلم وابن عباس ومقاتل ووهب بن منبه ، وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة	

وقد عرض الآراء كلها البغوي ، البحر ، الرازي ، السمرقندي ، جرير طنطاوي، وتفسير اللباب ، والنيسابوري والزمخشري وصاحب الدر المنثور ، والخازن ، والثعالبي . وابن عبد السلام ، وسيد طنطاوي والهداية إلى بلوغ النهاية ، وانفرد ابن عاشور بترجيح أنها خالته لكثرة اطلاعه على التوراة . وكذلك القرطبي لكنه مال أيضاً إلى أن تكون الأم قد أحياها الله .

### تحليل الكلام :

لا خطأ علينا أن نغلط أحدهما ، ف كلا الفريقين أسماء توزن ذهباً .

١- القول بأنها خالته يرجع إلى أن المشتهر في التوراة أن أمه ماتت في نفاس بنيامين . وقد حاول العلماء أن يوفقوا بين القول بالخاله والآية القرآنية بأحد اثنين :

أ. أن الخالة أم ، كما أن العم أب . واستشهدوا بقول الله تعالى في التعبير عن إسماعيل عم يعقوب بالأب : ( وَإِلَهُ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ) (١) .

ب. قيام الخالة مقام الأم .

(١) سورة البقرة . الآية ١٣٣ .

## نقول :

إن كلمة الأب لم تطلق على إسماعيل بشكل مطلق ، فقد جاءت مقيدة بوجود إسحاق الأب . فلا مانع أن يسمى العم أباً مع عدم وجود اللبس ، ووجود إسحاق الأب الحقيقي يمنع اللبس . والخالة هنا من الممكن أن تُعدّ أماً مجازاً إذا ذكرت الأم معها . ولو كان العم أباً مطلقاً ما ذكر القرآن الكريم الآباء ، ثم عطف عليهم الأعمام في سورة النور : فقال في إباحة الأكل (أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ) ثم قال (أَوْ بِيُوتِ أَعْمَامِكُمْ) <sup>(١)</sup> . وكذلك عطفت الخالة على الأم في تحريم الأمهات ، فلو كانت أماً لكفيت لفظة الأمهات عنها ، وما كانت ثمة حاجة لذكر (الخالات) <sup>(٢)</sup> . كما أن ليس كل ما يقال على الرجل يقاس به على المرأة ، فكلمة أب تشير إلى نقاء النسب <sup>(٣)</sup> .

لقد حكّت قصة يوسف أدق التفاصيل ، ومنها ارتداد بصر يعقوب ، فلماذا إن كانت الأم قد ماتت لم تحكها القصة . وماذا يفعل القائلون بهذا الرأي إذا صدق القول بأن التوراة لم تقل الحقيقة .. وأن موت راحيل رأى لا أساس له من الصحة .

## ثالثاً : عدم موت راحيل في التوراة .

إذن الدافع وراء القول في التفسيرات الإسلامية بأن راحيل قد ماتت هو ما قالته التوراة ، فهل التوراة حقاً قالت إن راحيل ماتت ؟ الحقيقة أنها قالت ذلك ، فهي تخبرنا بأن راحيل (أم يوسف) ماتت عقب عودة يعقوب من رحلته الطويلة من عند خاله لابان الذي توجت بزواجه من ابنتيه ، وإنجاب عدد كبير من الأبناء ، وعند إنجاب راحيل لآخر أولاد يعقوب (بنيامين) شقيق يوسف ، ماتت وهي تلده ، عند أفراة قرب بيت لحم .

١٦ وَلَمَّا كَانَ مَسَافَةً مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ حَتَّى يَأْتُوا إِلَى أَفْرَاتَةَ وُلِدَتْ رَاحِيلُ وَتَعَسَّرَتْ وَوَلَدَتْهَا .

(١) سورة النور . ونصها ( ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ ﴾ ) (النور) .

(٢) سورة النساء . ونصها ( ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ ) (النساء) .

(٣) محمد نور الدين المنجد . الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق . . دار الفكر . دمشق . الطبعة

١٧ فقالت القابلة لها: «لا تخافي لأن هذا أيضاً ابنُ لك» .

١٨ وكان عند خروج نفسها (لأنها ماتت) أنها دعت اسمه «بن أوني» . وأما أبوه فدعاه بنيامين .

١٩ فماتت راحيل ودفنت في طريق أفراتة (التي هي بيت لحم) . (١)

ويعقوب يؤكد لابنه يوسف موت أمه في هذا المكان :

٧ وأنا حين جئت من فدان ماتت عندي راحيل في أرض كنعان في الطريق إذ بقيت مسافة من

الأرض حتى أتيت إلى أفراتة . فدفنتها هناك في طريق أفراتة (التي هي بيت لحم) (٢) .

وثمة نصان آخران يؤكدان موت راحيل :

تك ٣٥ : ١٩ فماتت راحيل ودفنت في طريق افراتة التي هي بيت لحم .

تك ٣٥ : ٢٠ فنصب يعقوب عموداً على قبرها . وهو عمود قبر راحيل الى اليوم .

ولعل تسألني : مادامت التوراة قالت إنها ماتت ؟ وأنت تدري ذلك ، فلماذا تقول : هل التوراة حقاً قالت إن راحيل ماتت ؟ هل تقصد أنها حتى لو قالت ذلك فكان يجب على العلماء المسلمين ألا يأخذوا معلوماتهم منها ، وقد نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ أقصد ذلك طبعاً ، لكن ليس هذا ما أقصده فحسب ، بل أقرر أنها فعلاً كما رأيتم قالت أن راحيل ماتت في أربعة نصوص ، لكن ماذا لو أنها أيضاً قالت أن راحيل لم تمت ، هذا ما أنا بصددده الآن ..

### الوقفزة الأولى :

والعجيب أن يستند علماء المسلمين على تلك القصة دون غيرها من سفر التكوين ، على الرغم أن علماء من الغرب استندوا على تلك القصة تحديداً على أن " موسى لم يؤلف سفر التكوين ، ولم يكن بمقدوره أن يكون مؤلفه ، فالسطر التاسع عشر من الأصحاح الخامس والثلاثين يقول : إن راحيل دفنت على طريق افراتة وهي بيت لحم . ولكن هذه المدينة لا يمكن أن تكون قد حملت اسم افراتة في زمن موسى لأن الذي أعطاها هذا الاسم هو كاليب

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٣٥ .

(٢) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٨ .

، وقد سماها افراتة تيمنا باسم زوجته! <sup>(١)</sup> ، وهذا يعني أن اسم افراتة التي جاء على لسان موسى لم تحمل هذه المدينة إلا بعد موت موسى .

### الوقفزة الثانية :

• عندما حلم يوسف حلمه كان عمره سبع عشرة سنة كما تقول التوراة ، وكان يرعى الغنم مع إخوته بعد موت أمه طبعاً ، لأنها ماتت وهم في الطريق ، وهم الآن قد استقروا ، فماذا حدث عندما قص يوسف الحلم على أبيه ؟ قال له الأب :

١٠ « مَا هَذَا الْحُلْمِ الَّذِي حَلُمْتَ ! هَلْ نَأْتِيْنَا أَنَا وَأُمَّكَ وَإِخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الْأَرْضِ؟ » <sup>(٢)</sup>

• هل سمعتم ما سمعته أنا من فم الأب يعقوب ، يقول له ( هَلْ نَأْتِيْنَا أَنَا وَأُمَّكَ وَإِخْوَتُكَ ) ؟ هل نسي يعقوب أنها ماتت ؟؟ أليست زلة لسان تكشف أن الأم لم تمت ، وأنها يجب أن تظل حية ليتحقق الحلم ؟؟

• إن يعقوب يسنفه حلم يوسف الذي تفسيره هو سجد أبي يوسف وأمه وأخوته له ، يعني لو مرت الأيام وتحقق الحلم وأصبح يوسف ملكاً ، ستكون الأم موجودة ليتحقق الحلم الذي لم يكن أضغاث أحلام .

أمامنا بزلة لسان يعقوب هذه .. احتمالان :

- إنه يقصد راحيل ( أمه الحقيقية ) ، وإذن فهي لم تمت كما قالوا .
- إنها يفرض عليه أمماً ، ليست أمه . أو لعله رباه على أن ينادي زوجة أبيه بأمه .

### الوقفزة الثالثة :

• لما جاء إخوة يوسف ليبتاعوا قمحاً منه دون أن يعرفوه ، اتهمهم بأنهم جواسيس ، فأخبروه بأنهم اثنا عشر ابناً لرجل واحد ، وهناك أخ مفقود ، وصغير تركوه عند أبيهم ، فحبسهم ثلاثة أيام ، ثم أطلقهم محتجزاً واحداً ( شمعون ) متظاهراً بأنه صدق روايتهم وطالبهم ببرهان على صدق روايتهم بأن يأتوا له في المرة القادمة بهذا الصغير . وإلا اعتبرهم جواسيس وعاقب أخاهم المحتجز . فلما رجعوا لأبيهم رفض ، وقال :

٣٨ فقال : « لَا يَنْزِلُ ابْنِي مَعَكُمْ لِأَنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ . فَإِنْ أَصَابَتْهُ أُذْيَةٌ فِي الطَّرِيقِ

(١) ليو تاكسل : التوراة . كتاب مقدس . أم جمع من الأساطير . ترجمة حسان ميخائيل إسحاق .

الجندي للطباعة والنشر . الطبعة الأولى . ١٩٩٤ . ص ١٤٠ .

(٢) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٣٧ / ١٠ .

النَّيِّ تَذْهَبُونَ فِيهَا تُنْزَلُونَ شَبَبِيَّيَ بَحْزَنَ إِلَى الْهَائِيَةِ» . (١)

زلة لسان أخرى ليعقوب (لأنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ) . وحده بالنسبة لمن ؟ إن كان لأبيه فهو ليس وحده لأبيه ، هناك عشرة غيره ، إن كان النسبة لأمه التي لم تلده ، فلم يكن وحده لها ، فلها أولادها الكثيرون . لا يمكنك مهما فعلت أن تحمّل العبارة إلا لأمه الحقيقية التي ولدته ، فأخوه قد مات ، ولم يبق لها سوى هذا ، لهذا لا يستطيع يعقوب أن يجهز عليها بتعريض وحيدها للخطر بعد أن فقدت أخاه ، ولم يبق لها سوى هذا .

راحيل مازالت حية ، ألم أقل لكم ؟؟ ولا يستطيع يعقوب المحب لها أن يسلبها الوحيد الباقي لها . ولعلك تعجب عن سر رفض يعقوب أن يترك بنيامين تحديداً ليذهب معهم . حتى لو كان الثمن أن يمكث أحد أبنائه في الحبس ، لأن ثمن انفكاكه من الحبس هو تعرض بنيامين للخطر ، وهو لا يستطيعه لإحساس بالذنب أنه أفقدها يوسف قبلاً ، ويخشى أن يرسل وحيدها الباقي ليفقد هو الآخر فيكسر قلبها كسرتة الأخيرة .

وهكذا ترك يعقوب ابنه محبوساً حتى نفذ القمح ، برغم تأكيدات رؤبين له بأنه سيحافظ

عليه

«أَقْتُلْ ابْنِي إِنْ لَمْ أَجِءْ بِهِ إِلَيْكَ . سَلِّمُهُ بِيَدِي وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ» (٢) .

هي الحقيقة تظهر على استحياء ، ثمة من تخشى على ابنها الذي لا تملك سواه ، فلا يمكنه لأجل خشيته على المحبوس أن يغلبها على ابنها . بل ويقول لهم :

«لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْبَرْتُمُ الرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخًا أَيضًا؟» (٣) .

إن الرجل الذي يسمح برحيل كل أبنائه الآخرين ، ولا يحفل بسجن أحدهم ، يحجم بشدة بالنسبة لبنيامين ، لماذا ؟ لأن الأمر ليس في يده وحده ، نعم هي لن تقف في وجهه ، لكن رحيل ابنها سيحطم قلبها . إن الأمور لا تبدو منطقية إلا بافتراض حياة راحيل .

• وعجيب وصف إخوة يوسف لعزير مصر ( يوسف ) أن لهما أخاً صغير تركوه عند أبيهم ؟ إنهم في هذه السنة بعينها سيحضرون إلى مصر ، وسيكون هذا الأخ الصغير الذي يتكلمون عنه يملك سبعة من الأبناء وثلاثة من الأحفاد !

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٢ / ٣٨ .

(٢) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٢ / ٣٧ .

(٣) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٣ / ٦-٤ .

## الوقفزة الرابعة :

• لما استخرج يوسف الفضة من وعاء بنيامين كان هذا يعني أن يصبح بنيامين عبداً ، ومن ثم لا يبرون بوعدهم لأبيهم بإرجاعه له ، وهنا يطلب يهوذا من يوسف أن يأخذه بدلاً منه ، وحاولوا إطلاعه إنه لا يدري ماذا يحدث لو احتجز هذا الابن تحديداً ؟؟  
 ٢٧ فَقَالَ لَنَا عَبْدُكَ أَبِي: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ امْرَأَتِي وُلِدَتْ لِي اثْنَيْنِ ٢٨ فَخَرَجَ الْوَاحِدُ مِنْ عِنْدِي وَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ قَدْ افْتُرِسَ افْتِرَاسًا. وَلَمْ أَنْظُرْهُ إِلَى الْآنَ. ٢٩ فَإِذَا أَخَذْتُمْ هَذَا أَيْضًا مِنْ أَمَامِ وَجْهِي وَأَصَابْتُهُ أَذِيَةً تَنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِشَرِّ إِلَى الْهَآوِيَةِ. (١)

زلة لسان ثالثة ، قالها يعقوب ، ونقلها إلينا ابنه يهوذا ، نقلاً عن أبيه في سياق استعطافه لعزيز مصر لكي يشفق عليهم ولا يحتجز هذا الابن خصيصاً ..  
 إذن يعقوب قد قال لأبنائه : ( أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ امْرَأَتِي وُلِدَتْ لِي اثْنَيْنِ ) من التي أنجبت له اثنين ؟ ليست إلا رحيل ، لفظة ( امْرَأَتِي ) تبوح بالسر ، راحيل مازالت امرأته ، وإلا لقال : تعلمون أن أمه .

ثم يكشف يعقوب لأبنائه : عن أحد الولدين اللذين أنجبتهما امرأته ، فالواحد تم افتراسه ، فلو أصابت هذا أيضاً أذية تنزلون شيبتي بشر إلى الهاوية .. إنه يدافع باستماتة من أجل أحد اثنين ضاع أولهما .. فهذا مراعاة لمن ؟؟ إن لم تكن مازالت حية ..

## الوقفزة الخامسة :

• يقول يهوذا في محاولة مستميتة لينتزع بنيامين من يد حاكم مصر :  
 ١٩ سَيِّدِي سَأَلَ عِبِيدَهُ: هَلْ لَكُمْ أَبٌ أَوْ أَخٌ؟ ٢٠ فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَنَا أَبٌ شَيْخٌ وَابْنٌ شَيْخُوخَةٌ صَغِيرٌ مَاتَ أَخُوهُ وَبَقِيَ هُوَ وَحَدَهُ لَأُمِّهِ وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ. ٢١ فَقُلْتُ لِعَبِيدِكَ: انْزِلُوا بِهِ إِلَيَّ فَأَجْعَلَ نَظْرِي عَلَيْهِ.  
 ٢٢ فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَا يَقْدِرُ الْغَلَامُ أَنْ يَتْرَكَ أَبَاهُ. وَإِنْ تَرَكَ أَبَاهُ يَمُوتُ. (٢)

السر الآن أصبح أكثر سطوعاً ، يقول يهوذا ليوسف : لما سألتنا هل لكم أب أو أخ ؟ يقصد في المرة السابقة ، فقالوا له : لنا أب شيخ ، وابن شيخوخة ، يقصد بنيامين أي ولد لأبيه وأبوه في سن الشيخوخة ، وقد مات لهذا الابن (بنيامين ) أخوه ( أي يوسف ) وبقي

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٤ / ٢٧-٢٩ .

(٢) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٤ / ١٨-٢٢ .

أي بنيامين ( وَبَقِيَ هُوَ وَوَحْدَهُ لِأُمِّهِ وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ . ) اثنان مات أحدهما ، وبقى هذا ( بنيامين )  
( وحده لأمه ، فهل بقي لها وهي ميتة ؟؟ نشكرك يهوذا .. فقد أخبرت يوسف بالحقيقة ،  
وظمأنته على أن أمه مازالت على قيد الحياة .

لا تتسوا أن يوسف سيكشف نفسه لهم في هذا اللقاء ، فإن كانت الأم مازالت على قيد  
الحياة حتى هذه اللحظة فهي قادمة إلى مصر بعد قليل لترى ملك ابنها .  
أما قول يهوذا الأخير ( لَا يَقْدِرُ الْغُلَامُ أَنْ يَتْرُكَ أَبَاهُ . وَإِنْ تَرَكَ أَبَاهُ يَمُوتُ ) . كيف يكون  
غلاماً وهو في تلك السنة جداً .. كما أن الأمر لو كان مقصوداً أن الأب هو من يموت لو تركه  
ابنه لقيلت العبارة بغير ذلك : لا يقدر الأب أن يتركه معنا ، وإن تركه يموت ، القول هنا أن  
بنيامين لا يمكنه أن يفارق أباه ، وإن فعل .. فسيموت .

وأرى أن العبارة تكون أكثر اتساقاً مع ما قبلها لو قال : لا يقدر الغلام أن يترك أمه ،  
وإن تركها تمت . ولنا أن نسأل مع من نسأل : من كتب التوراة ؟؟<sup>(١)</sup>

### الوقفة السادسة :

لما قدم يعقوب إلى مصر سمي أولاد راحيل باسمها

٢٢ هَوْلَاءِ بَنُو رَاحِيلَ الَّذِينَ وُلِدُوا لِيَعْقُوبَ . جَمِيعُ النُّفُوسِ أَرْبَعٌ عَشْرَةٌ<sup>(٢)</sup> .

إنه ينسب الأولاد باسمها ( بنو راحيل ) ، دلالة على أنها مازالت حية ، وإلا لقال : هؤلاء بنو  
يعقوب الذين ولدتهم له راحيل . ليحافظ على غيابها .

### الوقفة السابعة :

لعلها المفاجأة .. التي احتفظ بها يعقوب ، يقولها لأولاده وهو يوصيهم بأن يدفنوه في مغارة  
( حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي أَمَامَ مَمْرًا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي اشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ مَعَ الْحَقْلِ مِنْ عَفْرُونَ  
الْحَثِّيِّ ) يقول يعقوب : ادفنوني عند آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثي .

٣١ هُنَاكَ دَفَنُوا إِبْرَاهِيمَ وَسَارَةَ امْرَأَتَهُ . هُنَاكَ دَفَنُوا إِسْحَاقَ وَرَفِقَةَ امْرَأَتِهِ . وَهُنَاكَ دَفَنْتَ لَيْئَةَ<sup>(٣)</sup> .

ألم أقل لكم ، إنها المفاجأة التي ظل يعقوب يدخرها ، لقد دفن لئئة هناك ، وليئة هي الحالة

(١) ريتشارد إليوت فريدمان ، من كتب التوراة . ترجمة محمد زكريا . دار البيان للنشر والتوزيع . الطبعة  
الأولى ، ٢٠٠٣ . وانظر أيضاً : شفيق مكار . قراءة سياسية للتوراة رياض الريس للكتاب والنشر . لندن .

(٢) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٦ / ٢٢ .

(٣) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٤٩ / ٢٢ .

التي ظل يتحدثون أنها من نابت عن أم يوسف في تحقيق الحلم ، هاهي ليئة ماتت قبل أن تحضر إلى مصر ، ودفنت في مغارة عفرون الحثي ، دفنها يعقوب بنفسه ، أي أنه لم يأت إلى مصر بها ، فمن امرأته التي صاحبتة ؟؟ إنها يقتلونك يا راحيل .. لكن الحياة فيك تأتي ..

وانظروا هنا يقول إن إبراهيم هو الذي اشترى حقل المكفيلة ، بينما في سفر يشوع أن يوسف دفن في هذه الأرض التي اشتراها يعقوب وليس إبراهيم .

### الوقفه الثامنة :

سرق راحيل أصنام أبيها وهي مغادرة مع يعقوب ، في الرحلة التي ولدت فيها وماتت وهي تلد ، فلحق الأب بالقافلة يطلب أصنامه ، وفتش في خباء ليئة والجاريتين فلم يجد ، ولم يبق إلا خباء راحيل ، فما كان منها إلا أن وضعتها في حِدَاجَةِ الْجَمَلِ وَجَلَسَتْ عَلَيْهَا . واعتذرت لأبيها «لَا يَغْتَظُّ سَيِّدِي أَنِّي لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ أَمَامَكَ لِأَنَّ عَلَيَّ عَادَةَ النِّسَاءِ» .

إن كانت ستلد بنيامين في هذه الرحلة وقبل أن يبلغ طريقه ، فبطنها تعلن حملها ، وأبوها كان سيعرف أنها حبل على وشك الولادة ، لكن ها هي تقول لأبيها أنها عليها عادة النساء . إذن فقد قدمت راحيل من فدان آرام بلا حمل ، فمن الذي أنجبته ؟؟ ليس إلا الوهم .

### الوقفه التاسعة :

اقرأوا معي هذين النصين :

**النص الأول :** وَلَمَّا كَانَ مَسَافَةً مِنَ الْأَرْضِ بَعُدَ حَتَّى يَأْتُوا إِلَى أْفْرَاتَةَ وَلَدَتْ رَاحِيلُ وَتَعَسَّرَتْ وَلادَتْهَا . ١٧ فَقَالَتْ الْقَابِلَةُ لَهَا : «لَا تَخَافِي لِأَنَّ هَذَا أَيْضًا ابْنٌ لَكَ» . ١٨ وَكَانَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهَا (لأنها ماتت) أَنَّهَا دَعَتْ اسْمَهُ «بَنِ أُونِي» . وَأَمَّا أَبُوهُ فِدَعَاهُ بِنِيَامِينَ . ١٩ فَمَاتَتْ رَاحِيلُ وَدَفِنَتْ فِي طَرِيقِ أْفْرَاتَةَ (التي هي بَيْتَ لَحْمِ) . ٢٠ فَنَصَبَ يَعْقُوبُ عَمُودًا عَلَى قَبْرِهَا . وَهُوَ «عَمُودُ قَبْرِ رَاحِيلِ» إِلَى الْيَوْمِ (١)

**النص الثاني :** وَكَانَ بَنُو يَعْقُوبَ اثْنِي عَشَرَ : ٢٣ بَنُو لَيْئَةَ : رَأُوْبِينُ بَكْرُ يَعْقُوبَ وَشَمْعُونُ وَلاَوِي وَيَهُوذَا وَيَسَّاكْرُ وَزَبُولُونُ . ٢٤ وَابْنَا رَاحِيلِ ؛ يُوْسُفُ وَبِنِيَامِينَ . ٢٥ وَابْنَا بِلْهَةَ جَارِيَةِ رَاحِيلِ : دَانَ وَنَفْتَالِي . ٢٦ وَابْنَا زَلْفَةَ جَارِيَةِ لَيْئَةَ : جَادَ وَأَشِيرُ . هُوَلاءِ بَنُو يَعْقُوبَ الَّذِينَ وَلِدُوا لَهُ فِي فِدَانَ أَرَامِ (٢)

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٣٥ / ١٦ - ٢٠ .

(٢) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٣٥ / ١٦ - ٢٠ .

النصان من أصحاح واحد هو الأصحاح الخامس والثلاثون . النص الأول يقرر أن راحيل ماتت وهي تلد بنيامين عند أفراتة ، أي أن يعقوب أنجب أحد عشر ولداً في فدان أرام التي كان يقيم فيها عند أصهاره ، ثم رجع إلى أبيه في الشام ( فلسطين ) وهو قرب بيت لحم أفراتة ، ماتت راحيل بحمى النفاس بعد أن أنجبت له الابن الأخير . أما النص الثاني فيقرر أن يعقوب رجع من فدان أرام بعد أن أنجب فيها كل أولاده . وهذا يعني أن راحيل ولدت بنيامين في فدان أرام ، ثم تعاود ولادته ثانية في أفراتة . وبذلك يكون قد ولد مرتين في مكانين وزمانين مختلفين .

ولما كان هذا مستحيلاً لأنه يتحدث عن ولادة واحدة مرتين في مكانين وزمانين مختلفين ، تحتم أن أحد النصين غير صحيح :

النص الأول	النص الثاني
في أفراتة	في أرام .
بعد ١٢ سنة على الأقل من آخر الأولاد	المسافة بينه وبين أول الأبناء ١٢ سنة
ماتت وهي تلده .	لم تمت عند ولادته لأنها خرجت من أرام مع يعقوب
في منتصف العشرينيات .	قرب الأربعين
حمل اسم بني أوني أولاً . وقام يعقوب بتغيير الاسم .	لم يحمل سوى اسم بنيامين
مكان الولادة	
وقت الولادة	
الأم	
عمر بنيامين عند دخول مصر	

وقد قال ابن حزم الأندلسي على النص الثاني : " هذا كذب ظاهر لأنه ذكر قبل أن بنيامين لم يولد ليعقوب إلا بأفراتا بقرب بيت لحم على أربعة أميال من بيت المقدس بعد رحيله من من فدان أرام بدهر ، والله تعالى لا يتعمد الكذب ولا ينسى هذا النسيان " (١) ، وأنا أتفق معه في نقطة وأختلف في الأخرى ، أتفق معه في أنه لا يمكن الجمع بين النصين لاستحالة ذلك ، وأختلف معه في تحديد النص الخاطئ المقحم . فهو قد اعتبر أن النص الأسبق هو الصحيح ، فأنا أرى أن نص أفراتة هو غير الصحيح ، وخاصة بعد أن رأينا الحقيقة تسطع رويداً رويداً بشأن عدم موت راحيل .

### الوقفزة العاشرة :

إن راحيل عاقر ، والعاقر لا تلد أبداً ، إلا بدعاء ، وقد ضح يعقوب من إلحاحها في طلب الولد

(١) عبد الوهاب الطويلة . توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى . ٢٠٠٤ . ص ٢٣٩ .

المستحيل فقال لها : «أَلَعَلِّي مَكَانَ اللَّهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكَ ثَمْرَةَ الْبُطْنِ؟» . والعاقِرُ خِلافَ العقيمِ ،  
العقيم لو تزوجت آخر يمكنها أن تنجب ، أما العاقِرُ فهي ليست صالحة للإنجاب ، إلا باستجابة  
الله للدعاء ، وقد دعت راحيل ربه فاستجاب :

٢٢ وَذَكَرَ اللَّهُ رَاحِيلَ وَسَمِعَ لَهَا اللَّهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا ٢٣ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ ابْنًا فَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللَّهُ عَارِيَّ» (١) .

وهذا يعني أنها لن تنجب ثانية ، وأنها إن أنجبت اثنين فلا بد أن يكونا توأمين ، في إنجاب  
واحدة ، تعالوا بنا .. لنرى هل أنجبت راحيل مرة واحدة بتوأمين .

تعالوا بنا نضم قصة ولادة راحيل لولديها معاً ، تقول التوراة:

وَلَمَّا كَانَ مَسَافَةً مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ حَتَّى يَأْتُوا إِلَى أَفْرَاتَةَ وَوَلَدَتْ رَاحِيلُ وَتَعَسَّرَتْ وَوَلَدَتْهَا ١٧ فَقَالَتْ  
الْقَابِلَةُ لَهَا: «لَا تَخَافِي لِأَنَّ هَذَا أَيْضًا ابْنٌ لَكَ» . ١٨ وَكَانَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهَا (لَأَنَّهَا مَاتَتْ) أَنَّهَا دَعَتْ اسْمَهُ  
«بَنَ أُونِي» .

قول القابلة («لَا تَخَافِي لِأَنَّ هَذَا أَيْضًا ابْنٌ لَكَ» .) وفي ترجمة أخري في كتاب الحياة :  
قالت لها القابلة : لا تخافي ، فإن هذا أيضا ابن آخر لك . والنص الإنجليزي هو :

(Fear not; thou shalt have this son also.)

17 And it came to pass, when she was in hard labour, that the midwife  
said unto her, Fear not; thou shalt have this son also.

وهذا القول لا يقال أبداً لامرأة تنجب واحداً ، فهو قول لامرأة أنجبت أحد توأميها ، وتقول  
لها القابلة بأن ثمة أيضاً ابناً آخر لها . ولا يمكن التفسير على أن ذلك مستقبلاً لأن التي تلد  
ستموت بعد لحظات ، فإن كانت في هذه اللحظة قد أنجبت بنيامين ، فماذا حدث للابن الآخر  
؟ أولد قبل بنيامين ؟ أم ترك في بطن أمه لأنها ماتت ؟؟ أين الابن الآخر الذي رآته القابلة .. ؟؟  
مطلوب إجابة : أين هذا الابن ؟

إن قول القابلة يكشف أن راحيل لم تنجب إلا مرة واحدة ، وأنجبت اثنين معاً ، وأن الذي مازال  
في رحمها وقالت عنه القابلة ( هَذَا أَيْضًا ابْنٌ لَكَ ) لا يمكن أن يكون إلا بنيامين ، فمادام مازال  
في رحم راحيل ابن ، فلن يكون إلا آخر أبنائها ، وهذا لا ينطبق إلا على بنيامين ، فمن ثم فهناك  
مولود قد سبقه ، والقابلة تتحدث عن ثان هو بنيامين بعده ، وهذا لا يتأتى إلا إذا أنجبت راحيل

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٣٠ / ٢٢ .

ولديه مرة واحدة وأنهما توأمان .

ويكون الأمر أن راحيل تلد مرتها الوحيدة ، وأنجبت يوسف ، ثم علمت أن في بطنها ابناً آخر فقالت :

« قَدْ نَزَعَ اللَّهُ عَارِي . ٢٤ وَدَعَتِ اسْمَهُ «يُوسُفَ» قَائِلَةً : «يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْنًا آخَرَ» . (١) .

أي اشكر الله لأنه أكرمني من عاقر إلى منجبة لاثنين ، فنزع عاري ، وزادني ابناً آخر ، ولذلك أطلقت على الأول اسم يوسف . إذن فالطفل الأول الذي نزل هو يوسف ، ثم قالت لها القابلة ها هو أيضاً ابن آخر لك ، وهو بنيامين .

تعالوا بنا نقرأ النصين معاً كأنهما كتلة واحدة : حبلت وولدت اثنتين ؛ فقالت : قد نزع الله عاري ، وأعطاني ما لم يعط من أنجبت الكثير ، فقد أعطاني اثنتين دفعة واحدة ، ودعت الأول يوسف لأن الله زادني ابناً آخر ، ثم دعت ابنها الثاني بنيامين أي ابن قوتي ، فلا يمكن أن ينزع الله عارها ويعطيها ولدين وتسميه ابن حزني ، بل هي التي أطلقت عليه الاسم من البداية خاصة أن جميع الأولاد لم يطلق أسماءهم عليهم سوى الأم .

وبهذا يتحقق ما يأتي :

١. تكون العاقر لم تلد إلا مرة واحدة .
  ٢. يصدق النص القائل أن يعقوب قد رجع من فدان أرام بعد أن أنجب كل أولاده .
  ٣. يصدق النصان القائلان أن كل من يوسف وبنيامين ابنا شيخوخة ليعقوب .
  ٤. نعثر على إجابة عن الولد الذي لم ينزل ، إنه بنيامين نفسه .
  ٥. إذا دخل بنيامين على يوسف فهو في نفس عمره ، وكان عمر يوسف تسعاً وثلاثين سنة ، فإن يكن بنيامين أباً لسبعة وهداً لثلاثة فلا مشكلة ، ولا يعقل إن لم يكن في عمره أن يكون له هؤلاء الأحفاد وهو يصغره باثنتي عشرة سنة ..!
- إن توأمية يوسف وبنيامين تميظ اللثام عن سر احتفاظ يعقوب ببنيامين ، لأنه شبيه يوسف ، فهو عزاءه عن فقدان يوسف ، وإلا فلماذا لما احتجز عزيز مصر بنيامين لم يتحسر يعقوب على الفقيد الحديث ، وتأسف على يوسف :

( وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يَوسُفَ وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ) (٨٤) ( )

(١) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، الإصحاح ٣٠ / ٢٣-٢٤ .

فالأب الذي يفقد بنيامين لا يتأسف هذا الوقت يتأسف على المفقود من عشرات السنين ، ذلك لأنه الآن فقط يفقد بنيامين افتقد يوسف .

وجاء في تفسير الرازي في تعليل عظم حزن يعقوب على يوسف بأن حزنه الجديد على بنيامين يقوي الحزن الجديد الكامن ، ثم يقول : " والوجه الثاني : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد " <sup>(١)</sup> ونقول ، وتقوى المشابهة جداً لو كانا توأمين . وجاء في تفسير القشيري أن أبا على الدقاق قال في تعليل قول يعقوب يا أسفي على يوسف بعد استرقاق ملك مصر لابنه يعقوب ، بأنه كان يتسلى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف ، فلما اختفى بنيامين الذي كان يعزيه عن فراق يوسف تأسف على يوسف <sup>(٢)</sup> . وهذا لا يكون إلا بأن بنيامين كان قوي الشبه بيوسف .

وبذلك ندخل إلى تحليل عدد الساجدين ليوسف أثناء تحقق الحلم ونحن نعلم يقيناً أن أمه ليست ميتة ، ولا صحة لمن قال إنها خالته فالخاله لم تحضر إلى مصر لموتها قبل الحضور إلى مصر ، ولا تعليق على الافتراضات الوهمية التي دفعت البعض ليقول إن راحيل ماتت لكن الله أحيها لتتحقق الرؤيا .

أتركك بعد هذه الرحلة بين النصوص في سفر التكوين ومناقشتها ، واكتشاف المقحم فيها مع الآية ( ١٠٠ ) في سورة يوسف التي حملت تحقيق الحلم ، لكن قبل أن نذهب إليه أذكرك بأنني أعربت الشمس التي ترمز للأب مفعول معه ، والقمر تابع له ، ومعنى المفعول معه أن يعقوب وراحيل لن يسجدا لابنهما ، لكن سيشاهدان سجود الإخوة له ، أي أنم سجود الإخوة سيتم في حضرتهما دون أن يشاركا فيه . ومنتقل إلى تحقق الحلم الذي يكشف أن الشمس يجب ألا تعرب إلا إعراباً واحداً هو المفعول معه :

(١) الرازي . مفاتيح الغيب . الجزء التاسع (ص ٩٥)

(٢) القشيري

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

**ورفع** ● الرفع خلاف الخفض ومن معانيه أيضاً: التقريب، وكذلك الإذاعة والإظهار، وكل هذه المعاني أرادها يوسف لأبويه، فهو يريد لهما العلو والتقريب، وأن يعلم الناس ذلك.

**أبويه** ● أبو يعقوب، وأمه راحيل التي ولدتها، ولا صحة لكل ما قيل غير ذلك. فخالته أم أخوته الكبار قد ماتت، ودفنها يعقوب في أرض كنعان قبل أن يأتى إلى مصر.

● لم يقل (والديه)، لأنه لو قال والديه فقد راعى الأم لأنها التي تلد، والأب يكون والداً مجازاً، فلفظة الوالدين تعطي للأم الأولوية، ولفظة الأبوين تجعل الأب هو المحور لأنه من بيني والأم هي التابع، وهنا راعى النص أن المقصود بالتقديم هو الأب، والأم تابعة له تحقيقاً لما جاء في الرؤيا: (والشمس والقمر) فقد كانت الشمس ترمز للأب، والقمر يرمز للأم، والقمر تابع للشمس، لذلك كما كانت الرؤيا المنامية المحور هو الأب والأم (القمر) تابعة له، كذلك جاء في ترجمة المنام إلى واقع بالأمر نفسه، فكان المحور هو الأب والأم تابعة له في لفظة (أبويه).

● الأب كان هو المحور في هذه القصة، ولم يتعرض القرآن للأم برغم ثقنتنا بشدة حزننا على ابنها. لذلك جعله هو الأصل. وكذلك إن الرفع على العرش يقتضى أن يكون الأب أولاً. وكلاهما لم يسجدا.

● **على العرش** هذا يدل على أن الأبوين لم يسجدا ليوسف لأن قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (يوسف).

الشمس ليس معطوفاً منصوباً، بل مفعول معه، والمعنى: إني رأيت أحد عشر

كوكباً ساجدين لي ، في وجود الشمس والقمر يرون سجودهم لي .

وجاء تحقيق الرؤيا ليؤكد هذا المفهوم ، لأن يوسف رفع أبويه على العرش ، ثم جاء التعبير وخرّوا ، فالفاعل هنا الإخوة ، وليس منهم الأبوان لأنهما رفعاً على العرش .

• كما أن سجود الأبوين لا يتفق مع ما أراده يوسف لهما من رفعة .

● الفاعل هم الإخوة فحسب ، الإخوة جميعاً ، الأحد عشر ليتحقق المنام (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) وقد تحقق المنام بحذافيره ، فقد كانوا ظاهرين له قبل السجود بذواتهم ، ثم بعد أن رفع أبويه على العرش ليجنبهما السجود مع الإخوة ، إذ بالأخوة يقومون بفعل السجود ، وبذلك تحقق الفعل رأي مرتين (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) ، فقوله (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) أي رأيت ذواتهم واقفة وكان الإخوة كذلك واقفين ، ثم بعد ذلك قاموا بحدث السجود أمامه ، أي لم يكونوا ساجدين قبل دخوله ، فيكون سجودهم يحتمل أن يكون هو الغاية أو يكون غيره : ولذلك كرر (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) ليكرر أن الرؤية تمت على مرحلتين : الذوات أولاً دون سجود . ثم قيام الذوات بالسجود أمامه وله . وهذا ما حدث ف يالحلم ، وتحقق بحذافيره في الواقع .

● لفظة (خرّوا) تفيد أن السجود تم فجائياً ، أي أن الإخوة فاجئوا يوسف . ففعلوها بتلقائية وسرعة . نعم هو يعلم أنهم سيفعلون ، لكن ربما بعد وقت . لكنهم لم يأخذوا وقتاً .

● في المنام جاء ضمير يوسف مقدماً على السجود (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) وكذلك في الواقع المترجم للمنام (وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) وذلك ، لأن الفاعلين للسجود أحد عشر كوكباً فحسب ، ويوجد يوسف ، ويوجد أيضاً الأبوان (الشمس والقمر) فلو لم يخصص لكان هذا يعني أن الإخوة سجدوا في اتجاه واحد حيث كان يقف يوسف وأبواه ، لكن يبدو أن العرش كان في صدر القاعة ، ويوسف يقف على يمينه ، وهنا اتجه الإخوة في سجودهم جهة اليمين ، فلم يكن للأبوين نصيب

وَحَرُّوا لَهُ

لَهُ

في هذا السجود ، لأن الأبوين في الواجهة ، ويرون الأخوة شمالهم يسجدون إلى الأمام تجاه يوسف .

فكان الأبوان كمن يرى

الأبوان

يوسف

اتجاه الإخوة

فكما ترى أن الأبوين يشاهدان سجود الإخوة في اتجاه يوسف ، وليس لهما من هذا السجود نصيب .

● أصل الكلمة في المقاييس يدل على تطامن وذل ، وفي المفردات : التطامن هو الانحناء لله ، وهو سجود باختيار ( خاص بالإنسان ) وسجود تسخير<sup>(١)</sup> ، وفي السجود لآدم قال أبو إسحق : السجود عبادة لله لا عبادة لآدم ؛ لأن الله لا إنما خلق ما يعقل لعبادته<sup>(٢)</sup> . فكانهم سجدوا ليوسف شكراً لله على ما حباهم من نعمة يوسف الذي يعفو عنهم ويكرمهم على ما بدر منهم من محاولة قتله .

سُجِّدًا

● والسجود سجود بالإرادة ، أو بغير إرادته ، فإذا سجدوا بإرادتهم جاء التعبير باستخدام الجمع السالم (سَاجِدِينَ) ، أما عند السجود غير الإرادي ، أو الفجائي أي سجود فوري دون استعداد ، أو قهري فالكلمة المعبرة هي (سُجِّدًا) وبذلك استخدم جمع التفسير للسجود الأقوى سواء السجود الفوري أو السجود القهري . واستخدم الجمع السالم للسجود المتعمد ، الذي يفعله الساجد بنفسه عن طواعية . ولعل تلك المغايرة في موضوع واحد يكشف الفارق بين لفظتي ساجدين ، وسجداً :

(١) الراغب الأصفهاني ، المفردات ، مادة سجد .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة سجد .

[الشعراء] { ٣٣ }

1 { فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجِدِينَ }

[طه] { ١٢ }

2 { فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا }

**الصورة الأولى 1** : { سَجِدِينَ } : هي سجود إيمان بالله ، فاستعمل لفظة جمع العاقلين .  
 ةلفظة ساجدين جاءت في القرآن عشر مرات في إطار العبادة الخالصة لله ، ولم يحرم  
 منها سوى إبليس اللعين .

**الصورة الثانية 2** : { سُجَّدًا } : هو سجود فوري ، أو قهري ، تسقط من تلقاء نفسك حباً ،  
 أو تقهر على ذلك . وحدث السجود الفوري من إخوة يوسف حباً واعتذاراً ، ومن سحرة  
 فرعون قهراً .

- وَقَالَ حرف عطف ، فالقول تم بعد الانتهاء من السجود . أي في وقت آخر .
- يَكَابَتِ كرر اللفظة ذاتها التي قالها لأبيه عندما قص عليه الرؤيا .. وكأنه يذكره بالرؤيا .
- هَذَا تَأْوِيلٌ ما رأيته أمامك من لحظات . واستخدم (هَذَا) لأنها تشير إلى ما هم فيه .  
 ولم يستخدم الضمير لأن ما هم فيه أشهر من أن يختفي .
- رُءْيَا أَصْبَحَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا رُءْيَا ؛ لِأَنَّهُ يُسَمِّيهَا كَذَلِكَ بَعْدَ ثَبُوتِهَا حَقِيقَةً فِي  
 الْوَاقِعِ .
- مِنْ قَبْلُ لم يقل (قَبْلُ) فمن هنا تعني أنه لا يفصل بين الرؤيا وتحقيقها رؤية أخرى ،  
 فمن المعروف أن الرؤيا كانت آخر عهد يوسف بعائلته ، وتحقيقها كان أول اجتماع  
 لشمس العائلة من جديد .

● قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي استئناف بياني ، كأن سائلاً سأل فماذا كان رد يوسف على طلبهم ، فجاءت  
 الإجابة ، قال ( قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ) .

● حَقًّا أي لم تكن أضغاث أحلام باطلة ، لكنها بتحققها بحذافيرها أصبحت حقاً ، فهي  
 وحي من الحق سبحانه وتعالى .

وَقَدْ أَحْسَنَ ● إنه الشكر في موضع النعمة . وقد استخدم قد القسمية ، والماضي للإقرار بالمنة .

بِ  
إِذْ ● الباء للإصاق . أي أن الإحسان كان ملتصقاً به كأنه ملابسه .

● ظرف للزمن الماضي ، ليبين أن شكره ليس على النعمة التي هو فيها ، بل هو يرى أن المحنة التي تعرض لها هي ذاتها تحمل في بطنها الخير ، وما من محنة إلا ومعها يسران ، لذلك حسن الشكر منه على ما مضى في حين أن الظاهر أن حاضره هو الخير ، وماضيه كان محنة . فجاء الشكر على الماضي ( المحنة ) ليكشف أنه يعي أن ما هو فيه هو ثمرة لتلك المحنة ، أو أن تلك المحنة هي الطريق لما فيه من نعمة . فهو ظرف يكشف امتداد النعمة الحالية إلى ذي قبل ، وأنها نعمة موهلة في القدم .

أَخْرَجَنِي ● اختار محنة السجن لا محنة الجب ، لأن إحداهما تسد مكان الأخرى في هدف يوسف ، وهو أن المحنة كانت خيراً عليه ، فسواء ذكر الجب أو السجن حققت هدفه . لكن الجب تبويخ لهم لأنهم مرتكبوه .

مِنَ السِّجْنِ ● السجن تعني مكان الحبس أو الحبس نفسه ، أي أنه لما خرج من السجن ظل في سجن لأنه بعيد عن أهله ، فلم ينته السجن إلا تلك اللحظة بلقائهم . وقد اختاره في التعبير عن معاناته : مراعاة لشعورهم .

وَجَاءَ بِكُمْ ● ذكر نعمتين : الأولى مادية ( الإخراج من السجن ) وهي نعمة الملك ، لأنه خرج من السجن إلى الملك . والثانية معنوية وهو جمع شمل العائلة ، وهذا لم يتحقق إلا بعد أن جاءوا من البدو . وبذلك تحققت ليوسف كل النعم معنوياً ومادياً : الملك المادي ، والحب القلبي .

وكلتا نعمتين كوجهي العملة لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فحضورهم هو انتهاء سجنه . وقد أسند النعمتين إلى فاعل واحد هو الله .

مِّنَ الْبَدْوِ ● هم سكان البادية غير المتحضرين ، فانتقالهم إلى المدينة نعمة لهم ، وكذلك له ، ففي الوقت نفسه إخراجهم من سجنه الذي لازمه حتى بعد الخروج من السجن . وقد سمي البدو كذلك لأنهم ضد الحضر ، ولأن ظهورهم وظهور الآخرين لهم يحمل معنى المفاجأة .

● استخدم بعد كما يقول ابن عاشور : اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره وقد ألم به إجمالاً اقتصاراً على شكر النعمة وإعراضاً عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان<sup>(١)</sup>.

● واستخدم من للدلالة على أن الإحسان لاصق به بعد نزغة الشيطان مباشرة . ولو حجب من ، لدل على أن الإحسان تأخر عليه ، بينما نحن نثق أن الله أوحى إليه لحظة الإلقاء في الجب ، ووعده أن يعيش حتى ينبئهم بما فعلوه معه دون أن يشعروا :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِوَيْءٍ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥) (يوسف) .

● المصدر المؤول دلالة على حدوث الحدث . ومعاصرته له ، ولو جاء بمصدر صريح ( نزوغ ) لكان الحديث عن أمر افتراضي لم يحدث . والنزغ كما جاء في مقاييس ابن فارس: تدل على إفساد بين اثنين .

● لم يقل من بعد أن حسدني إخوتي ، فقد تحقق ليوسف ما كان يبغيه من تحقق صفاء قلوبهم ، فليس من اللائق بعد صفاء القلب أن تكدر هذا القلب بالتوبيخ . وألقى الأمر على الشيطان : لأنه كان مصدر زرع الحسد في قلوب الإخوة .

● البينية أن يقع الشيء في الوسط بين شيئين ، لكن يكون أقرب إلى أحدهما من الآخر ، بخلاف الوسط يكون قربه من كليهما بمسافة متساوية ، وبخلاف الخلال : لا يترك مسافة بينه وبينهما ، كما تتسلل العصا في الرمال ، فهي خلال الرمال ، لا يوجد فارق بينها وبين الرمال . فالبينية تكشف أن أحد الاثنين مائل على الآخر ، وفي هذا تأدب من يوسف ومراعاة لشعور أخوته الذين أجرموا في حقه ، فلم يقطع أنهم المخطئون .

● إذا كُوررا ( بين ) فلكل واحد حكم . فلو قال بيننا : لدل على أنهما ليسا فريقين . ولو قال ( بيني وبينهم ) لدل على أنهم مازالوا بعيدين . بينما ذكر الإخوة يقرر أن الأمر الآن ليس كما كان قبلاً ، فهم كانوا بعيدين ، ولم يعودوا

مِنْ بَعْدِ

أَنْ نَزَغَ

الشَّيْطَانُ

بَيْنِي

وَبَيْنَ

كذلك .

إِخْوَتِهِ

• لم يعد له أخ وحيد ، فبصفاء قلوبهم واعترافهم بأن يوسف قد أصبح أخاً لهم ، أصبحوا هم أيضاً إخوته في نظره ونظر الله ﷻ . وهكذا وجدنا الإخوة لا ترى في يوسف أخا بتكدر قلبها بالحسد ، فضل الله وكذلك يوسف عليه السلام يرون أن ليوسف أخاً واحداً هو بنيامين . وبذلك نرى أن الجزاء من جنس العمل ، فكما قطعوا أواصر الإخوة ، قطعت معهم ، مع الفارق أنهم عندما قطعوا أواصر الإخوة لم يضع ، فقد كان في معية الله ، أما هم فعندما قطعهم يوسف قطعهم وهو الملك ، فهم خاسرون بهذا القطع لأنهم يطلبون عطاءه . وظلت يسددون الدين حتى صفت قلوبهم ، فهنا قال يوسف (إخوتي ) وكأنه يقول : قطعتما لما قطعتموها ، ووصلتما لما وصلتموها .

• ولم يقل (إخواني ) لأن الإخوة لهم مصدر واحد هو الأب يعقوب .



## ٢ أيام صمت زكريا :

يفرق القرآن الكريم بين الصيام والصوم : فالصيام هو الامتناع عن الطعام :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن

قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾ ﴿البقرة﴾ .

أما الصوم فهو الإمساك عن الكلام :

﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنَأْكِلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ ﴾ (مريم) .

وقد أعطي زكريا عليه السلام آية هي الخرس أو الصوم ، لكنه الصوم اللاإرادي ، فقد طلب زكريا آية لأنه خاف أن يكون الشيطان يتلاعب به ، فلا تصلح أن يصاب بالخرس كلية ، لأنه قد يظن أن هذا مرض عارض ، ولا تصلح صوم إرادي لأنه لا يجوز أن يكون هو أداة برهان نفسه .

لكن جاءت الآية لتكون صوماً عن الكلام مع الناس ، ولكن دون سوء في آلة الكلام ، فلسانه يمكنه أن ينطق بالنطق كيفما شاء في التسبيح ، فإذا أراد أن يستخدم تلك الآلة المستعملة في الذكر مع الناس أصابها العطب وتعطلت عن الكلام . وبذلك يتيقن زكريا أن تلك آية من الله

ولم يكن ثمة حاجة لطول مدة ، لأنه يريد آية سريعة ، ولو أراد آية طويلة الزمن فيكفيه أن يرى الحبل في بطن امرأته .

تذكر سورة مريم قصة زكريا في أربع عشرة آية :

## ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

ذِكْرُ ✨ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا) هذا ذكر . فالذكر للرحمة ، والرحمة لعبد الله زكريا .

✨ وهذا اسم إشارة للقريب يعود إلى القرآن الكريم ، لأنه مذكور في القرآن نفسه ، فليس أقرب للشيء من نفسه . ويكون المعنى : هذا القرآن يا محمد ، الذى نتلوه عليك إنما هو يجدد رحمة ربك التى غمرت عبده زكريا ، واليوم تتجدد بنزول القرآن عليك .

• هذا قرآن يذكر ويجدد رحمة الله التى غمر بها عبده زكريا ، لكن تلك الرحمة مازالت قائمة يمكن أن يغترف منها من يشاء .

✨ جاءت كلمة (رحمة) في التنزيل العزيز ثمانين مرة ، منها ثلاث وسبعون مرة بالصورة المعتادة (التاء المربوطة) : (وَرَحْمَةً) وسبع بالتاء المفتوحة : (رَحْمَتٌ) . وجاءت التاء مفتوحة هنا لأنه يتحدث عن شمول الله لزكريا بالرحمة ومعاينة زكريا لتلك الرحمة ، المتمثلة في وهبه ليحيى . ولهذا فتحت تاء الكلمة . فلا تفتح تاء التأنيث الخاصة بالاسم إلا عند تجسدها . والحديث عن تجسد الرحمة قبل أن يذكر نداء زكريا لربه يكشف أن الله تغمدته بالرحمة قبل أن يدعو ، والدعوة محققة ، ويقرر في الوقت نفسه أن رحمة الله التى غمر بها زكريا مازالت مُجَسَّدة للناس ، فلا يظن أحد أنها خصوصية لزكريا .

رَحْمَتِ

ذِكْرُ	رَحْمَتِ رَبِّكَ	عَبْدَهُ زَكْرِيَّا	﴿٢٨﴾	[مريم]
1	رَحْمَةُ رَبِّكَ	الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ	﴿٩﴾	[ص]

**الصورة الأولى 1-ى :** { رَحْمَتِ رَبِّكَ } : فتح التاء لأنه يتحدث عن رحمة عاينها زكريا ، ويمكن لغيره أن يعاينها .

**الصورة الثانية 2-ة :** { رَحْمَةُ رَبِّكَ } : يقصد بالرحمة المال ، فهي مقيدة ، يقصد بها بعض رحمة الله لا كلها ، وهم لا يملكونها ، ولو ملكوها لأمسكوا خشية الإنفاق . فهي

ليست مجسدة لأنها ليست معهم .ولهذا أخلق التاء .

✽ استخدم الرب لأنه في موضع الإطماع في عطائه ، لكن عند إعطائه حقه فاللفظة المناسبة ليست لفظة الإطماع والانتظار لعطائه ، لأنك وقتها تسدد لا تأخذ . ( فالله عز وجل يعطيك بربوبيته ، وتعطيه بتأليهه ) .

رَبِّكَ

✽ العبد تشريف من الله لذكريا ، بإضافة زكريا له ، هذا يعنى أن زكريا : عبد الله انطلاقاً من وظيفته التى خلق لها ، وانطلاقاً من العهد الأول ، لكن هناك من ينحرف عن ذلك ، فيكون قد بدأ عبداً ، فإذا أراد الله أن يثبت أنه مازال عبداً أضافه إلى نفسه .

عَبْدَهُ

✽ اسم زكريا في العبرية زخريا ، انقلبت الخاء إلى كاف فأصبح الاسم زكريا . والاسم مكون من جزأين ( زكر ) ، ( يا ) فالجزء الأول ( زكر ) بالعبرية يعادل ذكر بالعربية ، والجزء الثاني ( يا ) بالعبرية اختصار لاسم الله ﷻ بالعربية ( يهوا ) . فيكون الاسم يعنى الله يذكر<sup>(١)</sup> ، أى الذى ذكره ربه . فهو المذكور من ربه ، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم فهو المذكور من قبل رحمة الله ( ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ، زَكَرِيَّا ) .

زَكَرِيَّا

✽ ظرف زمان للحدث الماضي ، لأنه يحكي حكايته الماضية . وهو ظرف للفعل ( نادى ) .

إِذَا

✽ النداء رفع الصوت بطلب الإقبال ، والنداء لا يشترط له صوت ، وتوضيحها حالة الغنم : فالراعي يناديها بصوت أو بجرس فتنتبه إليه ، فإذا أشار إشارة تقهها أقبلت أو انصرفت .

نَادَى

✽ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ (البقرة).

• والنداء إذا أعقبه طلب فهو طلب يأمل المنادي تحقيقه لأنه طلب شخصي كطلب شفاء كأيوب عليه السلام ، أو طلب ولد كزكريا عليه السلام ، أو كطلب إنقاذ الابن كنوح عليه السلام ، أما الدعاء : فتعقبه استجابة :

✽ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨١﴾ (البقرة).

(١) رؤوف أبو سعدة . من إعجاز القرآن .

والدليل على أن الدعاء يستوجب الاستجابة قول الله ﷻ :

﴿ إِن نَدَعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ (١٤) (فاطر).

وقد حدثت استجابة فورية لكل دعاء ذكره القرآن الكريم :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴾ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْمَرٍ ﴿١١﴾ (القمر)

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴾ (٢٢) فَأَسْرِعْ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾  
وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ (السخان).

✽ لفظة الاعتناء المعطية بدون حساب .

رَبِّهِ

نِدَاءٌ خَفِيًّا

✽ الخفاء هنا ليس الخفوت ، بل الستر عن الناس . فلما اطمئن إلى أن لا أحد يسمعه ، رفع صوته بالدعاء . وسر حرصه على إخفاء أمره عن الناس : لأنه يخشى السماتة ، أو ربما لأن هناك من ورائه من يخافهم ، وحتى لا يستنقصه أحد إذا سمعوه يطلب الولد في هذا العمر . وكذلك لأنه كان في الصلاة . والخفاء أقرب إلى الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأحب إلى الله كما أجمع العلماء .

• وقد وضع ( نِدَاءٌ خَفِيًّا ) هنا بينما لم يضعها في نداء نوح عليه السلام كما توضح المغايرة الآتية :

{	﴿ ٤٥ ﴾		رَبِّهِ	وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ	}	①
{	﴿ ٣ ﴾	نِدَاءٌ خَفِيًّا	رَبِّهِ	إِذْ نَادَى	}	②

**الصورة الأولى ①** : { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ }<sup>(١)</sup> : نوح لا يخشى أحداً ، فقد زال الكافرون ، ولهذا لم يكن هناك مبرر لأن يكون نداؤه خفياً . ولأن سرعة الأمر وتدافع الأحداث لا تحتمل الهدوء والصوت الخفي .

**الصورة الثانية ②** : { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا }<sup>(٢)</sup> : زاد لفظة ( نِدَاءً خَفِيًّا ) لأن زكريا يخشى أن يسمعه الموالي .

(١) سورة هود : { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } ﴿٤٥﴾ .

(٢) سورة مريم : { ذَكَرْهُمْ رَبُّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٤﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ .

## قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

❁ أى زكريا ، وهذا يعنى أن ما سيأتى هو نص القول . وهي مقابلة قالها زكريا لربه . وقد أسقط الفاء منها لأنها قول لم يترتب على ما قبله ، فقد كان يصلي ، ونادى ربه وهو يصلي . بخلاف نداء نوح لربه <sup>(١)</sup> جاء بالفاء ( فَقَالَ رَبِّ ) لأنه مترتب على محذوف قبله ، وهو رفض ابن نوح الإيمان ودخول السفينة ، فحال بينهما الموج ، فتوجه نوح إلى ربه . فالفاء معلنة عن مواصلة حديث بشأن غرق الابن ، كان يخاطب الابن ، فلما حال الموج بينهما توجه إلى الاستنجاد بربه .

❁ يناجى الرب ، لا الإله ، لأن الرب هو المنشود في العطاء ، والإله هو المهاب . وحذف ياء الإخفاء ( ربي ) لأنك عند نداء ربك يكون معك .

❁ وقد ذكرت كلمة رب مضافة إلى ياء المتكلم ( ٢٤٥ مرة ، منها ١٠٤ في سياق خبري ، و ١٣١ مرة في سياق نداء ) ، وقد جاءت كل النداءات محذوفة الأداة ، لأن أداة النداء تنبيهية ، ومن ثم لا يحتاجها الله ، لأنه يسمع النداء حتى قبل أن تطلقه أنت ، وفي الحديث : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا » . ولم تتكرر أداة النداء إلا مرتين ، وفي المرتين لم يكن ثمة نداء مباشرا لله ، وإنما حكاية عن النداء ، بمعنى هو لا ينادي ، لكنه يحكى نداء قيل قبلاً . فهناك فرق بين النداء المباشر لله ، لا يحتاج منك أداة نداء ، وبين أن تحكى عن هذا النداء ، هنا تذكر أداة النداء لأنك لا تتادى الله في هذه الحالة ، بل تريد استحضار فعل النداء :

- ❁ ﴿ وَقِيلَ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسَّاءُ ۖ وَالسَّمَاءُ سَمِيَةٌ لِلَّذِينَ هَامُوا ۚ فَانصَبْ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ أَهْلٌ بِالنَّهْيِ ﴿٨٨﴾ (الزخرف) .
- ❁ ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ (الفرقان) .

❁ وقد أثبتت الياء كتابة في السياق غير الندائي ، وحذفت في سياق النداء ( رَبِّ ) . ولما كانت هذه الياء في النظرية القرآنية ياء الإخفاء ، فعند نداء الله يظهر الله نفسه لمن يناديه ، لذلك يحذف ياء الإخفاء . وفي غير النداء يثبت لك الياء لأنك لا تواجهه . فوجود الياء هو حديث عن الله في الغيب ، وحذفها يعنى مخاطبة الله كأنه أمامك .

(١) سورة هود : { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٥٥﴾ } .

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦) ، وفي الآية المذكورة نجد أنه أثبت ياء (عبادي) لأنهم لا يسألون الآن فهم في خفاء ، وحجب ياء (الدَّاعِ) ، (دَعَانِ) لأن الله √ يكون قريب لحظة الدعاء ، فعندما يكون الداعي يدعو الآن فهو ظاهر ، والله ظاهر لحظة الدعاء .

❁ كسر الهمزة ، لأن هذا نص القول الذي قاله . وأدغمت نون الوقاية في نون (إن) لأن فك (إن) عن نون الوقاية لا يكون إلا عند المفارقة ، ( فلم يقل : إننى ( دلالة على توحيده أثناء الدعاء ، واندماجه كلياً في دعائه مع الله .

❁ لم يقل ضعف ، لأن الضعف فقد القوة ، أما الوهن فهو فقد الصلابة ، فالوهن لم يفقد القوة ، لكنها أصابها التراخي .

❁ لم يقل الجسم .. لأن ضعف العظم يعنى عدم الرجاء في عودة الجسم قوياً . وقد اختص العظم كما يقول الزمخشري : لأنه عمود البدن ، وبه قوامه ، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن : ١. تداعى وتساقطت قوته . ٢. دل أن ما رواءه أوهن .

❁ قال الزمخشري معللاً استخدام المفرد هنا بقوله : وحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

❁ لماذا لم يقل : ( وهن عظمي) ؟ يفتقد زكريا قدرته وإلقال عجز . ولم يفقد قوته وإلقال لقال : ضعفت . لكنه فقد ما في عظمه من صلابة .

## وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا

❁ قال الزمخشري : " شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ ، باشتعال النار ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج

الشيب مميّزا ولم يضيف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة".

وَلَمْ أَكُنْ \* عودتني الإجابة فيما مضى ولم تخيبيني. من حسن الأدب في الطلب أن تذكر فضل من تطلب منه ، وقد قيل لمعن بن زائدة : أنا الذي أحسنت إليه وقت كذا . فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته .

\* الفعل كان ليس تعبير عن الماضي ، بل هو التعبير عن الديمومة .  
( هكذا كنت وسأكون ) .

\* الباء للملابسة ، كأنه يقول ( ولم أكن شقياً ) وأنا البس ثوب دعائك . وقد قلنا أن الدعاء يستوجب الاستجابة ، فهذا يعني أن الاستجابة لازمتها في كل ما دعا به . وجاء بالمصدر صريحاً لا مؤولاً : للدلالة على أن ذلك صالح صالح في كل الأوقات ، حتى في المفترض منها .

\* كرر النداء ثانية للتعبير عن طمعه هذه المرة فيما يدعو به .

\* أصل الكلمة يدل على المعاناة وخلاف السهولة والسعادة ، فهو ينفي التعب . وقد اختار نفي الشقاء على إثبات السعادة ، لأنه الدعاء : إذا لم يستجب الله له شقي الداعي لعدم تحقق ما يريد ، فنفي الشقاء يفيد تحقق الاستجابة . وقد دعا إبراهيم عليه السلام لنفسه باستجابة الدعوة :

﴿ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (٤٨) (مريم) .



بِدُعَائِكَ

رَبِّ

شَقِيًّا

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ  
لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

وَإِنِّي \* التوكيد ليقوي طلبه . وأدغمت نون الوقاية في نون (إِنَّ) لأن فك (إن) عن نون الوقاية لا يكون إلا عند المفارقة ، وقد جاءت كذلك على لسان إبراهيم عليه السلام ، وكان لا يريد مفارقة قومه ، بل يريد أن يشاركوه الجنة ، فإن أبوا إلا النار فهي المفارقة ، لكنه مازال في مرحلة الأمل فيهم ، فلا مفارقة ، لذلك استخدم اللفظة ( إِنِّي ) ولم يستخدم (إنني) .

خِفْتُ \* فاعل الخوف هو ، لأن الخوف ذاتي ، وسبب الخوف هو ضعف الموالى عن حفظ الدين ، فهو خائف على الدين أكثر من خوفه من الموالى .

الْمَوْلَىٰ \* الموالى هم عصبته ، وقد لمس تهاونهم في أمور الدين ، وهم من يتولون أمر الدين في تلك الأمة ، فإذا كان هذا حالهم وهم المسئولون عن الدين ، فقد ضاع الدين .  
\* حذف ألف المساواة (الْمَوْلَىٰ) لأن مفردات الجمع غير متساوية فليسوا كلهم على درجة واحدة من القرابة .

مِنْ وَرَائِي \* الورا لفظة ليست ضد أمام ، لأن ضد أمام : خلف ، لكنها تقيد الأمامية والخلفية ، بشرط وجود حائل يوارى الشيء ، فهي بمعنى أمام إذا كان الحائل يحول دون ما هو أمامك ، وهي بمعنى خلف إذا كان الحائل يحجب ما هو خلفك ، والحائل هنا موته . فموته يحجبه عنهم .  
\* أفادت أولية الزمن بعد وفاته .

وَكَانَتِ \* استخدام (كان) للتعبير عن الوجود ، دلالة على تمكن الصفة وثباتها ، وأنها ملازمة لها ، فالعقر يلازمها من البداية . ولو كان زوجاً لغيرها لأنجب . فلم يقل وامرأتى عاقر ، لأن عائق الإنجاب ليس حاضراً ، فهو لم ينجب قبلاً عندما كان قادراً على الإنجاب لأنها كانت عاقراً . أما الآن حتى لو تزوج أخرى صغيرة غير عاقر فلن ينجب ، لأنه أصبح شيخاً كبيراً .

❁ لم يقل (زوجي) لأن الزوجية تحتاج انسجاماً في كل ما يربط الزوجين: فلا بد من الوحدات الآتية ليقال عن كل منهما زوج :

١- **وحدة الدين** : فإن فقدتها كانت امرأته لا زوجه ، وقد فقدتها امرأة نوح وامرأة لوط ، لذلك قيل : امرأة نوح ، وامرأة لوط ، وفقدتها فرعون فلم تطلق على زوجته لفظة زوج ، بل قيل امرأة فرعون .

٢- **وحدة الإخلاص** : وقد افتقدتها زليخا بمرادتها ليوسف عليه السلام ، لذلك قيل عنها امرأة العزيز .

٣- **وحدة الإخصاب** : أن يكون كل منهما قادراً على الإنجاب ، وقد فقدتها سارة لذلك قالت عن إبراهيم عليه السلام: بعل . وهكذا هنا أطلق زكريا على امرأته لفظ : امرأة لأنها لا تتجب .

٤- **وحدة الوجود** : فلا بد من وجودهما معاً ليصلح إطلاق لفظ الزوجية على كل منهما ، فإن مات أحدهما فهي امرأة لا زوجة كما أطلق على أم مريم التي مات زوجها وهي حيلى ، فقيل : امرأة عمران ، ولأن امرأة زكريا عاقر ، فقد استحقت الحرمان من لفظة زوج ، حتى إذا استجاب الله لدعاء زكريا ، قال : ❁ ❁ ❁ فَاَسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُۥ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ❁ (الأنبياء) .

❁ وامرأته هي اليصابات (اليزابيث) بنت عمران ، أخت حنة أم مريم بنت عمران . وسيكون لكل منهما ابن : اليصابات ستجب يحيى ، ومريم ستجب عيسى ، فالاثنتان ابنا خالة .

• لم يقل زوجي ، لأن هناك ما يحول دون وجود حياة زوجية سوية ، وهو عدم الإنجاب ، لذلك عبر بكلمة (امرأتى) ولم يقل زوجي ، وعندما يصلحها الله وتتجب سيصبح التعبير عنها بكلمة (زوج) <sup>(١)</sup> . فلا تكتمل الزوجية إلا بتحقيق الهدف من الزواج وهو النسل والذرية .

(١) عبد العظيم المطعني ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن . مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٩٩٦ . ص ١٦٣ .

• أثبت ياء الإخفاء في كلمة ( امرأتي ) لأنها ليست موجودة أثناء الدعاء .  
والمقابل عند الرجل إذا فقد مقومات الزوجية أن يقال له بعل<sup>(١)</sup> ، قالتها سارة عن زوجها إبراهيم لما خلت حياتهما من الولد ، ويقول الشاعر يصف عقاباً :

لها ناهضٌ في الوكر قد مهّدت له ××× كما مهّدت للبعل حسناء عاقر

لأنّ العاقر أشدّ تصنعاً للزوج وأحضى به ، لأنه لا ولد لها تدلّ بها ، ولا يشغلها عنه .  
✽ لم يضع فيها تاء التأنيث ، لأن تاء التأنيث تأتي لتجعل للأصل المذكر فرعاً ( المؤنث ) ، ولما كانت الكلمة وصفاً خاصاً للمرأة ، فلم يكن ثمة حاجة لتاء التأنيث المختصة بالفرع ، لأن الكلمة ستقتصر عليه .

عَاقِرًا

✽ ثمة فرق بين العاقر والعقيم ، فالعقيم ما تأخر إنجابها دون أسباب ، العاقر هي التي لا تتجب . فالعقر : ألا يأتي بعد الشيء شيء من جنسه ، والعاقر من النساء التي لا تحمل ، وسميت بذلك لأنها عقرت رحمها أي قطعته ، فكأنه غير موجود . بخلاف كلمة عقيم التي تدل على ضيق وشدة طرأت ولم تكن موجودة . ويقولون عقت النساء أن يلدن مثل خالد ، وهذا معنى أن العقم حدث بعد أن استطاعت واحدة أن تتجبه . ويقولون : يوم عقيم : أي لا يوم بعده ، وريح عقيم : لا يعيشون بعدها .. وكلام عقمي أي من كلام الجاهلية لا يتكلم به اليوم . وأطلقت على ريح عاد : (الريح العقيم) لأنها جعلتهم غير موجودين بعد وجودهم ، ووصف يوم القيامة بأنه يوم عقيم أي لا يوم بعده . وهكذا لفظة العقم : كانت ولن تكون بعد ذلك . فاليوم العقيم : قبله أيام لكنه لن يكون بعده يوم آخر ، والريح العقيم لن تترك منهم شيئاً وكانوا قبلها موجودين .

والخلاصة في رأينا : أن العاقر : المرأة التي كانت من البداية لا تحمل . مثل الیصابات امرأة زكريا التي من البداية لا تتجب .

والعقيم كانت تحمل وانقطعت عن الحمل .. ومثال العقيم : سارة امرأة إبراهيم ، أي لم تكن كذلك قبلاً ، وأميل إلى أنها كانت تحمل ، لكن لا يدوم لها حمل .

(١) انظر عبد العظيم المطعني . دراسات في إعجاز القرآن .

فالعقر : لا ينتج من البداية ، والعقم يتوقف عن الإنتاج بعد إنتاج البعض . ولذلك أعترض على قولهم : « بيضة العُقر » يقولونها لآخر بيضة تكون من الدجاجة فلا تبيض بعدها ، فالتسمية الصحيحة بيضة العقم . وفي المقابل : جاء هذا المثل صحيحاً « أعقر من بَغلة » لأنها لا تنجب في أصل وضعها .

فَهَبَّ ❁ كل عطاء الأولاد هب من الله / ( يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ )<sup>(١)</sup>

فما الحال وزكريا لا يملك أسباب الولد ؟؟

❁ الفاء للترتيب على ما قبله : والمغايرة الآتية توضح سر الفاء :

①	{ فَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ }	وَلِيًّا	{ ٥ }	[مريم]
②	{ هَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ }	ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً	{ ٢٨ }	[آل عمران]

**الصورة الأولى ①** : { فَهَبَ لِي }<sup>(٢)</sup> : جاءت في استهلال الدعاء فجاءت بدون فاء . قدم زكريا لحاله أولاً ، ثم بنى على ذلك طلبه أن يهبه الولي ، فالفاء مناسبة لأنها ترتيب على ما سبقها مما قدمه زكريا قبل الدعاء .

**الصورة الثانية ②** : { هَبَ لِي }<sup>(٣)</sup> : دخل زكريا خالي الذهن إلى مريم في المحراب ليجد عندها رزقاً ، ففى هذه اللحظة وفي هذا المكان دعا زكريا ربه أن يهبه ذرية طيبة ، فهو استهلال دعاء ، لم يمهد له .

❁ قدمها لأنها الأهم بالنسبة له . فهو بدون دعائه يدري أن هناك آخرين يهبهم الله الولد ، فلن يحرص أن يكون الدعاء عاماً يشملهم ويشملهم .

ولو قال هب من لدنك ولياً لي .. لكان الولي له ولغيره ، وهو يريد قيمة على الدين . فيجب أن يكون غير مشترك بينه وبين آخرين . ولو قال هب من لدنك لي : لكان معناه أنه لا يرضى بالولد إن لم يكن من لدنه ، فلو كان من عنده فهو مرفوض .

(١) سورة الشورى : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ }<sup>(٥١)</sup> .

(٢) سورة مريم : { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا }<sup>(٥)</sup> .

(٣) سورة آل عمران : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ }<sup>(٢٨)</sup> .

❁ قال الشعراوي : من عندك أنت لا بالأسباب ، وقال ابن عاشور : ومعنى من لدنك أنه من عند الله عندية خاصة، لأن المتكلم يعلم أن كل شيء من عند الله بتقديره وخلقه الأسباب ومسبباتها تبعاً لخلقها، فلما قال من لدنك دل على أنه سأل ولياً غير جار أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة، فتكون هبته كرامة له.

❁ أصل الكلمة في المقاييس : القرب ، والابن أقرب الأولياء .

1	{ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ }	وَلِيًّا	{ ٥ }	[مريم]
2	{ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ }	ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً	{ ٣٨ }	[آل عمران]

**الصورة الأولى 1** : { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا }<sup>(١)</sup>: قدّم ما ينم عن خوفه على الدين ، لذلك جاء بكلمة ( ولي ) ليتولى هذا الدين ويكون مبدداً لما يخاف منه . وجاء الختام مناسباً للحديث عن الخوف على الدين : ( يَرْتُبِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ) .

**الصورة الثانية 2** : { هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً }<sup>(٢)</sup>: خلا من الحديث عن الخوف على الدين ، لذلك اكتفى بأن يطلب الدعاء مجرداً ، فقال ذرية طيبة ، وختمها بما يناسب طلبه ، فقال : ( إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ) .

وهكذا جاءت الأولى متناسقة مع ذاتها : الخوف من المولى / ما يزيل الخوف / والختم عن وراثة الدين . وجاءت الثانية متناسقة مع ذاتها في الاختصار على الدعاء ( دعاء / ذرية طيبة / سميع الدعاء ) . وفسر المغايرة هو : الاتجاه : في الأولى دعاء مجرد ، في الثانية حرص على الدين .

❁ ومما سبق نرى أن الابن هو ولي الإنسان في الدنيا ، بينما الله هو ولي الذين آمنوا في الآخرة . والكافرون لا مولى لهم . أما في الدنيا : فابن المؤمن وليه ، فإن لم يكن للمؤمن ولد يرثه ، فالله وليه في الدنيا والآخرة كما وجدنا في دعاء يوسف في

(١) سورة مريم : { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا } .

(٢) سورة آل عمران : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } .

نهاية السورة وهو دعاء الوفاة ، لما قال لله ﷻ (أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) دل ذلك على أنه مات دون إنجاب على خلاف ما يشاع عنه من أنه أنجب سبطين هما أفرايم ، ومنسي .

{ ١٠٩ } [يوسف]

أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

1

{ ٥ } [مريم]

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا

2

**الصورة الأولى 1** : { أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ }<sup>(١)</sup>: العبارة على لسان يوسف في

دعاء النهاية ، بعد رحلة حافلة بالعطاء والإخلاص والإحسان والالتقان والعفة ، فيدعوربه أن يتوفاه على الإسلام ويلحقه بالصالحين . أما قوله أنت ولي في الدنيا والآخرة فيكشف أن يوسف لم يكن له ولد يرثه ، ولذلك جعل الله وليه في الدنيا حيث لا ولي له في الدنيا ، وابن الرجل هو وليه بدليل دعوة زكريا عليه السلام في طلب الولد ، كان يطلب ولياً يرثه .

ويدعم هذا الرأي الذي وفقنا الله تعالى إليه قوله تعالى في سورة غافر عن يوسف :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾<sup>(٣٤)</sup> (غافر) .

فقوله عن يوسف عليه السلام هلك ، هي قولة موجعة إن فهمنا أنه من الهالكين ، فالقرآن لم يصف أحداً بالهالك إلا المغضوب عليهم ، وحاشا لله ما كان ليوسف أن يكون منهم . لكن المقصود بقوله (حَتَّى إِذَا هَلَكَ ) أنه مات دون أن يترك نسلًا ، وقد استعملها القرآن في آية الكلاله عن الرجل الذي لم يترك نسلًا ، فقال :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾<sup>(١٧٦)</sup> (النساء) .

يوسف : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }<sup>(١١١)</sup> .

(١) سورة

فقد قال (إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ) ثم أعطى تعريفها أي (لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ) . وانظر المطابقة بين اللفظين لتعرف وتتأكد أن يوسف عليه السلام مات دون ذرية وليس كما يزعم العهد القديم .

حَتَّى إِذَا هَلَكَ يوسف عليه السلام أي مات وليس له ولد .

إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ أي إنسان أي مات وليس له ولد .

**الصورة الثانية 2:** { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا }<sup>(١)</sup>: يطلب زكريا عليه السلام من الله ولداً يرثه ويرث عن آل يعقوب ، وقد استجاب الله ﷻ له ، فوهبه غلاماً لم يجعل له من قبل سمياً هو يحيى عليه السلام ، وما يهمننا هو التعبير عن الولد في الدنيا بالولي .

وهذا يعني أن دعا يوسف لربه في نهاية حياته : أنت ولي في الدنيا والآخرة ، فقوله في الدنيا يعني أن لا وراث ليوسف من نسله ، فالله يرثه ، والله وليه لأن الله ولي من لا ولي له .

✿ الوراثة ستتم فيما بعد ، ولذلك وضع ياء الإخفاء لأن المتكلم الموروث سيكون قد مات عندما تتم وراثته .

يَرِثُنِي

✿ وأميل إلى الرأي القائل أنه يرث زكريا في ماله ومنصبه . وإلا فم تكرار الفعل إذا كان الموروث متحداً ، وإن كان من اثنين ، فمادام الموروث معنوياً لا يتكرر الفعل ، وقال : يرثني وآل يعقوب ، لكن تكرار الفعل يدل على أن الوراثة الأولى من أبيه مادية ، والوراثة الثانية معنوية .

أما قول الرسول ﷺ : نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقةً ، فقد قال ابن عاشور : « يرثني يعني به وراثة ماله . ويؤيده ما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة عن الحسن أن النبي ﷺ قال : « يرحم الله زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله . » والظواهر تؤذن بأن الأنبياء كانوا يورثون ، قال تعالى : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ)<sup>(٢)</sup>

(١) سورة مريم : { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وِرَآئِي وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا } .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (١٠٦) .

وأما قول النبي S: «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة» فإنما يريد به رسول الله نفسه، كما حمّله عليه عمر في حديثه مع العباس وعلي في «صحيح البخاري» إذ قال عمر: «يريد رسول الله بذلك نفسه» .

✽ أما ما قاله الشعراوي بأن العلة في طلب الولد كما يقول الشعراوي : دينية محضة ، لا يطلبه لا يطلبه لمغنم دنيوي، إنما شغفه بالولد أنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمائته من الإفساد. فليست أيضاً بعيدة عن الصواب لأنه عطف على ميراث نفسه ميراث الدين .

✽ تكرار الفعل يدل على مغايرة الموروث ، فالميراث هنا ليس مادياً ، لكنه ميراث النبوة ليكون امتداداً لأنبياء بني إسرائيل .

وَوِثُّ

مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ

✽ يعقوب : نبي الله ، حفيد إبراهيم ، الذي بشر الله جديه به قيل سمي بذلك لأنه نزل أخذا بعقب أخيه ، وأميل أن يعقوب لا يمكن أن يكون له أخ ، وأن عيسو اختراع توراتي من وضع بني إسرائيل ، لأن الله بشر سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، فلا يمكن أن يكون يعقوب أحد التوأمين ، وإلا كانت البشارة بالتوأمين معاً . ونرى أن أصل التسمية ترجع إلى أنه بشر به في عقب التبشير بأبيه إسحاق ، فجاء في البشرى في عقب أبيه . و( من ) بعضية .

✽ الجعل بعد الخلق .

وَأَجَعَلَهُ

✽ استخدم لفظة الاعتناء مرة ثالثة . لكن الأولى نداء ، والثانية دعاء بالولد ، والثالثة دعاء بصفات مخصوصة للولد .

رَبِّ

✽ شديد الرضي ، فمن ثم ترضى أنت عنه .

رَضِيًّا

يَزَكَّرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

يَزَكَّرِيَّا \* نادته الملائكة أثناء صلاته لتبلغه استجابة ربه لدعائه . أي أن الاستجابة جاءت سريعة بلا مقدمات ، وقبل أن يبارح صلاته التي دعا فيها .

إِنَّا \* لم يقل (إني) لأن الله لا يفرد في الحديث عن نفسه إلا في الأمور التي يفرد بها ، فأما الأمور المتصلة بالخلق فيستخدم لها (إننا) ولا يفرد النونين (إننا) لأفرادها مفارقة .

نُبَشِّرُكَ \* البشارة من الله يعني تحققها . وقد لازمه اسمه يحيى كيفاً وعمراً .

بِغُلَامٍ \* لم يقل ( بولد ) لتكون البشري أعظم ، لأن ولد تحتمل أن تلده أمه وتتحقق بذلك البشري ، لكنه قد لا يهنأ به ، فلو مات في أي وقت بعد ولادته فالبشري قد تحققت ، لكن لفظة غلام تعنى أنه سيستمتع بابنه مادام ولداً وسيظل يستمتع به حتى يصل إلى سن الغلام ( حول الثالثة عشرة ) .

أَسْمُهُ يَحْيَى \* سماه الله ، والله قد سمى بعض الأبناء ، مثل إسحاق ، ويعقوب ، ويحيى ، وعيسى . فضلاً عن آدم .

والفعل يحيى يأتي في العربية على معنيين : الحياة ( ضد الموت ) والحياة ( أى الاحتشام ) ويرى رؤوف أبو سعدة أن اسم يحيى من المعنى الثاني وهو الحياء ، مستنداً في ذلك على قوله تعالى في سورة آل عمران : فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

فالحصور من الحصر وهو الحبس ، فالحصور هو الذي يكف نفسه عن شهوة النساء كأنه محجم عنهن مع قدرته على ذلك . ولو كان مكفوفاً بغير إرادته لقليل عنين وهى صفة ذم ، فيحيى يقال عنه ذلك في سياق مدح : فهو من يمنع نفسه عن النساء بإرادته .

ويرى رؤوف أبو سعدة في بحثه عن العلم في القرآن الكريم : أن أم يحيى قد نطقها يوحى بالكسر في الياء على الإمالة لا بالفتح ، ولأن اليونانيين لا يستطيعون الحاء أبدلوها ياء وزادوا عليها سين الرفع في اليونانية : Ioannes ، وبذلك أثبتوا أن الياء الأخيرة ممالاة بالكسر لا

بالفتح ، فلوكانت بالفتح لقالوا Ioannas ويونا بن متى : اسمه متحرك بالفتح وأخذ سين الرفع  
Ionas : فانظر أن إلى ما قبل السين اليونانية التي تمديد الرفع إذا وجدت حرف (a) فهي الفتحة  
، وإذا وجدت (e) فهي الكسرة ، ويوحى بالكسر في العبرية الآرامية تعنى الله أحصر بمعنى  
الذى أحصره الله ، فهو الحصور التي في القرآن .

وبرغم روعة البحث إلا أنني أميل أن اسم يحيى يجمع بين المعنيين معاً ، وقد تحققنا فيه واقعياً  
، فهو حيي ، حصر نفسه عن النساء برغم رجولته ، وهو من المنظرين ، كما سيأتي فيما بعد في  
تفسير قوله تعالى ( ويوم يموت ) .

لَمْ نَجْعَلْ \* استعمل الجعل لأنه صرف الاسم عن أذهانهم .

①	{	لَمْ نَجْعَلْ	لَهُ	مِنْ قَبْلُ	سَمِيًّا	{	٧	[مريم]
②	{	هَلْ تَعَلَّمُ	لَهُ		سَمِيًّا	{	٦٥	[مريم]

**الصورة الأولى ①** : { مِنْ قَبْلُ }<sup>(١)</sup> : كلمة (سَمِيًّا) أي مثيلاً لأن كل متشاكلين كل واحد منهما  
سمي لصاحبه . وفي هذه الصورة يتحدث عن يحيى عليه السلام بدليل قوله  
قبلها ( يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَصْمًا وَيَحْيَى ) . فهو لم يجعل أحداً من  
قبل يحمل اسم يحيى ، واحترس بوضع من قبل : لأنه سيأتي من بعده من سيحمل  
الاسم الذي حملة تبركاً به . فاسم يحيى . من الحياء . لم يحمله أحد قبله ، لكن  
حملة من بعده كثيرون . فكانت عبارة من قبل واجبة

**الصورة الثانية ②** : { — }<sup>(٢)</sup> : الضمير في قوله (لَهُ) يرجع إلى الله √ بدليل قوله قبلها  
( رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ) . والسمي هنا هو الاسم  
أيضاً فهو يقول لرسوله : هل تعلم أحداً سمي هذا الاسم ؟ وهذا طلاقة قدرة  
أن يعجز الكافر المتحدي أن يستعمل اسمه √ . وبرغم اجتهاد الكافرين في  
ضلالهم إلا أن أحدهم لم يحاول أن يسمي ابنه باسمه √ . وهو موقف يشبه  
اجتهاد أبي لهب في تكذيب النبي S ، لكنه لا يلجأ في تكذيبه إلى وسيلة إعلان

(١) سورة مريم : { يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَصْمًا وَيَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } .

(٢) سورة مريم : { رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعَلَّمُ لَهُ سَمِيًّا } .

إسلامه . إنها طلاقة القدرة : كأن رب العزة يقول : هذا اسمي ، ولا يمكن لأحد أن ينتحله ، وحاولوا فلن تتجحوا .

❁ قُدِّمَتْ عَلَى السَّمِيِّ ، لأنها لو تأخرت لتكون ( سميًّا له ) لكان النفي يعني أنه ليس وحده الذي اختص بذلك ، وهناك غيره لم يجعل الله لهم سميًّا . فالتقديم اختصاصه بذلك .

لَهُ،

❁ من لحظته هو ، أي نفي كل الماضي مطلقاً . ولو حذفها لكان المعنى استمرار اختصاصه بذلك ، فلا يحمل أحد صفاته ولا اسمه .

مِنْ قَبْلُ

❁	لَمْ يَجْعَلْ لَهُ،	مِنْ قَبْلُ	سَمِيًّا	❁	[مريم]
❁	هَلْ تَعْلَمُ لَهُ،		سَمِيًّا	❁	[مريم]

**الصورة الأولى ❁-1** : { مِنْ قَبْلُ }<sup>(١)</sup> : ذكرها لأن يحيى كان أول من حمل اسمه وصفاته ، لكنه لن يكون آخرها ، ولو حذفها لدل على استمرار الاختصاص له قبله وبعده ، وما حمل أحد اسمه ولا صفاته من بعده .

**الصورة الثاني ❁-2** : { — }<sup>(٢)</sup> : حذفها مع الله دلالة على استمرار اختصاصه باسمه وصفاته ، وأنه قبل قول العبارة وبعدها ليس له سمي مماثل له .

والخلاصة أن : لفضة من قبل صالحة ليحيى لأنه سيأتي بعده من يحمل الاسم ، وليست صالحة للفظ الجلالة ، فلم يحمله أحد من قبل ، ولن يحمله أحد من بعد . واستعمل الجعل لأنه صرف الاسم عن أذهانهم ، لكنه مع اسم الجلالة لم يصرف الاسم عن أذهانهم لكن يعجزون عن التسمية به .

❁ أي مثيلاً لأن كل متشاكلين كل واحد منهما سمي لصاحبه . والمشابهة هنا في أمرين معاً : لم يحمل أحد من قبل هذا الاسم ، ولم يكن مثله أحد ، فإن كان الله هو من أسماء فلا بد أن يتحد الاسم مع المسمى .

سَمِيًّا

(١) سورة مريم : { يَرْزُقْنَا إِنَّا نَبُشْرُكَ بِعَلْمٍ أَسْمُهُ يَجِيءُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ، مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } ❁ .

(٢) سورة مريم : { رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ، سَمِيًّا } ❁ .

فيحيى متفرد بصفاته ، وإن كان هناك أنبياء ذوو عزم ، إلا أنه اختص بصفات لم تكن فيهم . أو لم يحيئ قبله من اجتمع له من صفات ، جمعها العلماء في :

- ١- لم يعص ولم يهجم بمعصية قط .
  - ٢- ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر .
  - ٣- كان حصوراً . يحبس عن ارتكاب المعاصي ، ويمنعها عن كل ما نهى الله . ولهذا يقول S : ما من .. إلا ويأتي يوم القيامة وله خطيئة إلا يحيى بن زكريا .
  - ٤- آتاه الله الحكمة صبياً .
  - ٥- أصغر من حمل النبوة سنأ .
  - ٦- السلام عليه في يوم ولادته ، ويوم موته ، ويوم بعثه .
- ولعلك تعرف أن بعده حصل عيسى على السلامات الثلاثة .. وكذلك ولد بمعجزة أشد من معجزة يحيى . فهذا يعني أن صفات يحيى استعصت عمن قبله فحسب .



# قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا

٨

قَالَ

✽ القائل: زكريا.. في المقابلة نفسها في نفس المكان والزمان ، ولو كانت مقابلة جديدة لزيد الواو فكانت (وقال) . لكنه يكرر العبارة للمرة الثانية ، فزكريا لم يستبعد مرة واحدة ، لكنه استبعد مرتين ، الأولى ذكرها في سورة آل عمران ، وكان يستبعد بحق: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨) فَادَّعَاهُ الْمَلَأِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ وَأُمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ [آل عمران]

وهذه هي الثانية في سورة مريم بعد الرد من الملائكة رجوع إلى الاستبعاد بغية التأكيد .

رَبِّ

✽ ينادي ربه ، لأنه لم يكن ير ملاكاً ، بل يسمع صوتاً . و استخدم لفظه الرب لأنها لفظه الاعتناء ، التي ينال بها نعم الله ، وحذف الياء لظهور المنادى لمن يناديه .

أَنِّي

✽ استعمل لفظه استبعادية تدل على نفي مطلق زماناً ومكاناً وحالاً ؛ لأنه لم يرزق بالولد لوجود مانع واحد عند امرأته ، والآن يحصل على البشري بالولد بعد أن أصبح ثمة مانعان : عقرها امرأته ثم كهولته ، أما لماذا طلب وهو يدري بالمانعين ، ثم لما أسعف بطلته استبعد واستعجب ، فيجيب الزمخشري على ذلك بقوله : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون . وقال الشعراوي : أطمعته البشري في أن يعرف الكيفية كما حدث في قصة إبراهيم عليه السلام الذي طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، وكما حدث من موسى الذي أطمعه كلام ربه معه إلى أن يطلب الرؤيا أيضاً فقال : (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ<sup>٤١</sup>) (١)

(١) سورة الأعراف: { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ<sup>٤١</sup> قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ<sup>٤٢</sup> } .

يَكُونُ

لِي

عُلْمٌ

✽ استعمل لفظة يكون لأن تلك أداة الله في الإيجاد .

✽ تخصيصية ، لأن من ليس في ظروفه متاح لى الإنجاب ، فالحرمان من الإنجاب خاص به .

✽ استعمل الغلام لأنه لا يريد ابناً يعيش بعض الوقت ويموت ، بل يريد أن تكتحل عيناه برؤية هذا الابن يكبر ويشب أمامه . بخلاف قولة مريم عليها السلام عندما بشرها الملاك بابنها ، فلم تستخدم الغلام بل قالت : (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ) (١) لأنها لا تريد الابن من الأصل ، فليست بحاجة لابن بدون زواج ، ومن ثم فهي لا تريده أن يكبر حتى يصير غلاماً يافعاً أمام عينيها ، هي لا تريد لهذا الولد الحضور من البداية فناهيك عن كبره . لكن زكريا هنا استعمل لفظة غلام التي تحمل إحياءات الرغبة في حياة ونمو الابن .

وَكَاثِرٌ

✽ الداعي هذه المرة طامع في تحقق الدعوة ، فهو إن ذكر ديمومة عقر امرأته في الدعاء الأول لأنه يعرض المشكلة التي يطلب منه حلها ، فعندما يستجيب الرب ، فتكرار نفس العبارة ثانية لا تكون بذات معناها الأول ، هنا كانت لا تعني ما تعنيه في الأولى ، الأولى تعني هي هكذا من البدء ، أي صفة ملازمة لا تبارحها ، أما كانت الثانية فتعني الماضي ، أي كانت كذلك قبلاً ، أي هل ستتوقف تلك الصفة

على الزمن الماضي ؟؟

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عُلْمٌ } 1 } وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا { ٨ } [مريم]

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ } 2 } وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ { ٤٠ } [آل عمران]

**الصورة الأولى 1-ى :** { وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا } (٢) : زاد (كان) ، لأنه في المرة الثانية ، وقد كبر أمله في تحقق البشرى ، لذلك وضع كان ليدل على استعداده أن يتقبل زوال تلك الصفة عن امرأته ، فهو المستبعد الحريص على تنفيذ

(١) سورة آل عمران (٤٧) : { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } { ٤٧ }

(٢) سورة مريم : { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } { ٨ }

استيعاداته ، فاستيعاداته هذه المرة تحمل بذرة هدم نفسها .

**الصورة الثانية ②:** { وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ }<sup>(١)</sup>: تلك المرة الأولى وهو ما زال يستبعد الحدوث ، فيتحدث عن الواقع المرير ، لذلك حذف كان ، وذكر الجملة الاسمية التي تفيد ثبات الصفة في امرأته .

## أَمْرَأَتِي عَاقِرًا

✽ استخدم لفظه امرأتي لأنه يقصد وضعها السابق ، لكنه بعد أن كبر أمله في تحقق البشرى يطمع في قدرة الله التي إن وهبت ما احتاجت أسباباً ، فهو لا يريد الولد فحسب ، لكنه يريده من تلك المرأة ، وكأن لسان حال زكريا يقول لربه : يارب : لا تجبني لطبي من خلال زوجة أخرى ، فأنا لم أفعلها وأنا شاب لأحصل على الولد ، وكأنه يقول يارب لقد كنت أقدر أن أنجب لو تزوجت غيرها ، فلا تأمرني وأنت القادر أن أنجب عن طريق تزوج أخرى . أريد الابن ، من هذه تحديداً ، منها هي نفسها لا غيرها .

## وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ

✽ استعمل الماضي المؤكد بذاته وبأداة التوكيد قد . واستعمل الفعل بلغ : الذي يعني حتمية الوصول . وجعل نفسه الفاعل لأنه استمد قوة من الأمل في تحقق البشرى .

✽ العتوه هو الاستكبار ، والنبو عن الطاعة لدرجة لا تستدرك ولا تصلح ، وما أروع قول الشعراوي : وقد وصف الكبر الذي هو رمز للضعف بأنه عَتِيٌّ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْفٌ لا يقدر أحد على مقاومته، أو دفعه أبداً، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير . لكننا لا نوافق على ما قاله بعد ذلك : ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام؛ وتلج عليه؛ لأنه دعا الله كثيراً أن يرزقه الولد، ففي موضع آخر يقول: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾) (٢) فزكريا عليه السلام يريد الولد الذي

## عَتِيًّا

(١) سورة آل عمران: { قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ } .

(٢) سورة الأنبياء: { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ } .

يَرْتَهُ وهو موروث؛ لأن الله تعالى خير الوارثين. فالحقيقة أن تلك صياغة أخرى للموقف نفسه ، ودليلنا : أن زكريا يقرر أنه لم يشق قبل ذلك بدعوته لله ، أي أنه كان مستجاب الدعوة ، الأمر الثاني أن هذه الآية جاء بعدها الاستجابة مباشرة ، ولا يمكن أن يكون قد دعا مرتين مختلفتين وفي كل مرة نال الاستجابة السريعة :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَيَدْعُونَ تَارِعًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء]

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا } 1

وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } [مريم]

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ } 2

وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ } [آل عمران]

### الصورة الأولى 1-ى: { وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }<sup>(١)</sup>: الحديث بعد تأكيد الملائكة (قَالَ

كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ) ، فهو يعرض المعوقات وهو يطير فرحاً لأنه يدري أنها لم تعد معوقات ، وما جداله إلا بالصيغة الإبراهيمية : ليطمئن قلبي ، لذلك لم يجعل الكبر فاعلاً يغلبه ، بل جعل نفسه الفاعل يصل إلى الكبر وكأنه مازال فيه رفق من قوة لأنه الذى بلغ ، فهو الذى يصل بنفسه ، فلم يصبح بعد عاجزاً تماماً .

### الصورة الثانية 2-ة: { وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ }<sup>(٢)</sup>: بعد البشرى وقبل التأكيد ، فهو مستبعد

بحق ، فهو يتحدث عن حالته الحاضرة ، فذكر عجزه ، ويناسب العجز أن يكون هو مفعولاً به ، لأن المفعول به من صفاته العجز والاستقبال دون إرادة . فكأن الكبر غلبه على أمره فأصبح لا حول له ولا قوة . ولأنه يتحدث عن حاضره ستلاحظ أنه حذف الفعل ( كان ) من امرأته لأنه يعرض حالته الحالية وعدل إلى الجملة الاسمية ليقرر ثباتها على تلك الصفة فيها

(١) سورة مريم: { قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨١﴾ } .

(٢) سورة آل عمران: { قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ } .

واستمرارها وكأنه يقول : لقد أصبحت ضعيفاً لا حول لى ولا قوة ، وامرأتى مازالت بعيبها السابق.

وثمة مغايرة أخرى : في الترتيب .. ففي سورة آل عمران قدم الحديث عن المرأة أولاً ، ثم تكلم عن كبره ثانية ، وفي سورة مريم : فعل العكس .. وذلك لأنه في سورة آل عمران استبعد حقاً ، فجاء الرد عليه ( قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ) فأعاد السؤال الاستبعادي ثانية ، ولكن هذه المرة ليطمئن قلبي ، ففي الأولى هو يستبعد بحق ، وكأنه يتحدث قبل البشرى ، وفي الثانية يستبعد ليحصل على التأكيد ، وقد جاء الرد في الثانية : ( قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ) .

[مريم]	{ ٨ }	وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا	وَكَانَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا	قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ	} 1
[آل عمران]	{ ٤ }	وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ	وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ	قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ	} 2

**الصورة الأولى 1** : { وَكَانَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }<sup>(١)</sup> : الحديث بعد البشرى ، فهو يعرض المعوقات في الماضي ، وفي الماضي كانت امرأته وحدها هي المانع ، وبالوقت انضم لها بالكبر كمانع ثان . وتلاحظ إثبات ( وَكَانَتْ ) التي تبدو انتقالة لوظيفة ( كانت ) الثانية من الديمومة إلى الزوال . ولما أضاف نفسه سبباً ثانياً أيضاً جعل نفسه فاعلاً ومن ثم فضيه بعض القوة بعد أن أعطته البشرى أملاً .

**الصورة الثانية 2** : { وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }<sup>(٢)</sup> : في المرة الأولى وهو مازال يستبعد الحدوث ، فيتحدث عن معاناته الحقيقية ، ولذلك بدأ بنفسه لأن العائق لم يعد امرأته ، ففي الماضي كان العائق امرأته ،

(١) سورة مريم : { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } { ٨ } .

(٢) سورة آل عمران : { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } { ٤ } .

لكنه ليس عائقاً حقيقياً لأنه كان يمكنه أن يتزوج عليها وينجب من غيرها ، لكن وفاؤه كان يمنعه ، فلم تكن مشكلة الولد قهرية معه ، لكنها كانت باختياره لا يثاره البقاء بدون ولد مع امرأته على أن يكون له ولد بعيداً عنها .

أما بعدما أصبح طلب الولد ملحاً عنده بعد أن تجاوز الأمر مشكلته الشخصية ، وأصبح يمس الدين ، فهنا انتقل إلى الرغبة في الولد ، لكنه نظراً للواقع في الوقت الذي يدعوه فيه لم تعد امرأته هي المانع الوحيد ، إذ لا يستطيع أن يحصل على الولد من غيرها الان بعد أن بلغه الكبر ، لهذا بدأ بنفسه لأن المشكلة تجاوزت امرأته .

وعبر عن نفسه بالمفعول العاجز الذي لا يقاوم هذا الكبر ، ثم حذف كان لأنه يتحدث عن الحالة الراهنة لامرأته التي يرجو انقطاعها فكان من المناسب حذف كان التي تفيد الدوام لانه لا يرجو استمرار تلك الصفة فيها مستقبلاً .

مما سبق نرى أن سر المغايرة يرجع لوجود سؤالين أو مرتين : الأولى يستعبد بحق فيعرض مشكلته الحاضرة التي أصبح عجزه عن الولد قهري ، لا يكسر هذا العجز أن يتزوج أخرى ، لذلك بدأ بنفسه ، وجعل الكبر يغلبه ، وذكر ثبات صفة العقر في امرأته . في الثانية بعد أن استبشر ، وأصبح مفعماً بالأمل يعرض المعوقات وقد جعله الأمل يراها ضعيفة ، فيذكر المانع الأول الذي لم يكن مانعاً حقيقياً وهي امرأته لأنه كان يمكنه أن يحصل على الولد من غيرها ، ثم يذكر الفعل كان ليفيد أنه حتى هذا السبب يمكن ألا يكون موجوداً ، وعندما عرض مشكلته عدل عن جعل نفسه عاجزاً ، بل جعل نفسه الفاعل الإرادي الذي وصل إلى الكبر ومن ثم يمكنه أن يرجع عنه .



قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ  
وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ٩

قَالَ \* القائل هو جبريل ، ولم يسبق بالواو مما يعنى أن المقابلة ذاتها مستمرة ، لكنها الرد الثاني على الاستبعاد الثاني .

### المغايرة الثانية :

[مريم]	{ ٩ }	قَالَ رَبُّكَ	كَذَلِكَ	قَالَ	{ 1 }
[مريم]	{ ١١ }	قَالَ رَبُّكَ	كَذَلِكَ	قَالَ	{ 2 }
[الذاريات]	{ ٣٠ }		كَذَلِكَ	قَالُوا	{ 2 }

الصورة الأولى 1: { قَالَ }<sup>(١)</sup> : جاء الفعل مسنداً للمفرد ، لأن الخطاب في قصة زكريا

، كان من ملك واحد ، والملك الواحد كأنه الملائكة جميعاً ، مثلما نرى في تكذيب قوم لنبيهم تكديماً لكل المرسلين ، وقد تقول : لكن في قصة زكريا لدينا نص صريح أن من ناداه جمع ، لم يكن ملكاً واحداً ، بل الملائكة :

﴿ فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحضوراً ونبيّاً من الصالحين ﴾ [آل عمران]

والحقيقة أن الملائكة برغم ورودها جمعاً إلا أن المنادى كان ملكاً واحداً ، لكنه أمين ، فكانه في عدم حيدته عن نقل رسالة ربه ، كأنه الملائكة جميعاً . ودليلنا على ذلك أننا نثق أن الذي خاطب مريم ابنت عمران لم يكن إلا ملكاً واحداً ومع ذلك عبر عنه الله √ في السورة نفسها (آل عمران) أيضاً بالملائكة :

﴿ إذ قالت الملائكة يمرم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ [آل عمران]

(١) سورة مريم : { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا } ٩ .

**الصورة الثانية 2ة :** { قَالَ }<sup>(١)</sup>: جاء بالمفرد لأنه ملك واحد ، ولا اختلاف بين الملك الذي ظهر لذكريا ، والملك الذي ظهر لمريم سوى في أن ملاك ذكريا كان بالصوت ، أما ملاك مريم فظهر لها في صورة مادية على هيئة بشر .

**الصورة الثانية 2ة :** { قَالُوا }<sup>(٢)</sup>: جاء بالجمع لأنه يحكى عن الملائكة التى نزلت ضيفاً على إبراهيم عليه السلام ، والذين انطلقوا من بعده إلى إهلاك سدوم وعمورة ، فهؤلاء كانوا جمعاً . وهكذا سواء كان الرسول من الملائكة واحداً أو جمعاً فهو يمثل كل الملائكة ، لكنه مع ذكريا كان واحداً وبالصوت . ومع مريم كان واحداً لكن في صورة بشرية ، ومع إبراهيم كانوا جمعاً وفي صورة بشرية ، ولذلك لم يستخدم الجمع إلا إذا كان الرسل جمعاً .  
ولورجعنا إلى البشرى في سارة سنجدها جمعاً دلالة على أن القائلين جمعاً :

2	سارة	وَتَشْرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ	قَالُوا كَذَلِكَ
---	------	-------------------------------	------------------

ولورجعنا إلى البشرى في مريم سنجدها بصوت المفرد

2	مريم	قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا	قَالَ كَذَلِكَ
---	------	--	----------------

أما البشرى مع ذكريا فقد جاءت جمعاً ، برغم أنه ملاك واحد ، لكن الجمع لأنه ينقل كلام الله الذى يستخدم الجمع للتعظيم ، والدليل أن هذا ليس نص كلام الملاك ، بل كلام الله نصاً هو قوله ( لم نجعل له من قبل سمياً ) فلو كانت العبارة معبرة عن الملاك لقال : لم يجعل ربك له من قبل سمياً . فالملاك ليس من شأنه الجعل . فوجود الجمع هنا لا يدل على تعدد الملائكة :

1	ذكريا	يَا ذَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا	قَالَ كَذَلِكَ
---	-------	---	----------------

وويمكننا أن نستدل على توحيد الملاك مما جاء بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم]

فعندما طلب ذكريا من محدثه الآية ، جاء الكلام بصيغة المفرد ( قال ) .

(١) سورة مريم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا } (١٠)

(٢) سورة الذاريات: { قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } (٣٠)

كذلك

✽ جاءت الكاف مفتوحة لأنه يخاطب رجلاً ، ووجود ضمير يطابق المخاطب مع اسم الإشارة ليقرر خصوصية المشار إليه بطريقة يعرفها المخاطب ولا يعرفها غيره ، أي هذا المشار إليه الذي تعرفه أنت خاصة. فالكاف للتشبيه ، وذا للإشارة ، واللام للبعد ، والكاف للاستشهاد بمن يشار إليه وهو هنا زكريا .

1	{ قَالَ كَذَلِكَ }	قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴿٩﴾	[مريم]
2	{ قَالَ كَذَلِكَ }	قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴿١١﴾	[مريم]

**الصورة الأولى 1-ى:** { كَذَلِكَ }<sup>(١)</sup>: اختلفت حركة كاف ربك فجاءت في هذا النص بالفتح لأنه يخاطب رجلاً ( زكريا ) . وإضافة الضمير الخاص بالمخاطب لاسم الإشارة يعني خصوصية المشار إليه ، أي المشار إليه الذي تعرفه .

**الصورة الثانية 2-ة:** { كَذَلِكَ }<sup>(٢)</sup>: جاءت حركة الكاف بالكسر لأنه يخاطب مريم ، ليقرر أن المشار إليه هي معجزة تعابنها هي لا غيرها .

✽ هذا نص قول الملاك ، ثم سينقل النص الذي قاله الله كما هو دون تغيير للضمائر . هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ✽ هذا الرد هورد منطقي للاستغراب الذي أبداه زكريا . وهذا يعني أن الملك محمل بالرد على كلام زكريا لأن الله يعلم بما سيقوله زكريا .

**المغايرة الثالثة :**

1	{ قَالَ كَذَلِكَ }	قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴿٩﴾	[مريم]
2	{ قَالَ كَذَلِكَ }	قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴿١١﴾	[مريم]
2	{ قَالُوا كَذَلِكَ }	قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴿٣٠﴾	[الذاريات]

**الصورة الأولى 1-ى:** { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ }<sup>(٣)</sup>: النص خاص بزكريا .. لأنه قال (أَنِّي يَكُونُ

(١) سورة مريم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ } .

(٢) سورة مريم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١١﴾ } .

(٣) سورة مريم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ } .

لِي عَلَّمٌ) فبدا الأمر كأنه يستبعد الحدوث ، فجاء الرد على استبعاده الظاهري منطقياً ، هذا المستبعد عند الناس عند الله هين .

**الصورة الثانية 2ة :** {<sup>(١)</sup>} : النص خاص بمريم .. وهي أيضاً قالت نفس قولة زكريا (أَنْتَ يَكُونُ لِي عَلَّمٌ) فجاء الرد عليها بالرد نفسه الذي قيل لزكريا ، ما يكون عند الناس مستبعداً فهو على الله هين .

**الصورة الثانية 2ة :** {<sup>(٢)</sup>} : النص خاص بسارة زوج إبراهيم عليه السلام .. وهنا لم يقل لها الملك ( قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ) بل اكتفوا بقولهم : كذلك قال ربك . وذلك لأنها لم تقل مثلما فعل زكريا ومريم ، فلم تقل أنى يكون لى غلام وأنا عجوز عقيم . ولو قالت لجاءها الرد نفسه ، لكنها لما لم تستبعد فهذا يعنى أنها تعي في تلك اللحظة أن هذا هين على الله ، فلم تلجأ إلى الأسلوب الإنشائي بما يحمله من استبعاد ، واقتصرت على إظهار فرحتها بقولها : عجوز عقيم ، لقد أخذتها المفاجأة فصكت وجهها وصرخت من الفرحة . ولاشك أن موقف سارة المغاير ناتج عن مغايرة عن كل من زكريا ومريم :

- ١- زكريا كان غير مستوثق أن محدثه هو ملاك الله ، لأنه كان يسمع صوتاً ، ويخشى أن يكون الشيطان يعبث به ، ويمنيه بما يتوق زكريا إليه .
- ٢- مريم كانت تثق أن ما أمامها هو ملاك الله ، لكنها تخشى من البشرى لأن تحققها يترتب عليه : أن يتهمها قومها في شرفها لأنها ستجب ابناً وهي بلا زوج .
- ٣- سارة تثق أن من يحدث زوجها هم ملائكة الله ، فلما سمعت البشرى ، لم تتمالك نفسها فأقبلت في صيحة وقالت : عجوز عقيم .

فتحن أمام اختلاف في الموقف :

- ١- زكريا : غير مصدق فجاء الرد يذكره بأن الأمر هين على الله .
- ٢- مريم : مستبعدة أن يحدث أمر بدون طريقتة الطبيعية فجاء الرد يذكرها بأن كسر

(١) سورة مريم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا } (١٧) .

(٢) سورة الذاريات: { قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } (٣٠) .

الأمر الطبيعية مع الله أمر هين .

٢. الثالثة سارة : لم تستبعد حدوث الأمر فلم تحتج إلى التذكير .

وَقَدْ خَلَقْتِكِ \* نطق جبريل بنص العبارة التي قالها الله ﷻ . ولم يقل (وقد خلقناك) حتى لا يظن اشتراك جبريل في الخلق ، كما أن الله ﷻ : في الأمور الانفرادية التي لا يتفاعل معها فيها أحداً يأتي بضمير الوجدانية ، فالخلق لا يشاركه أحداً ، بمعنى أن المخلوق لا يشهد الخلق ، بخلاف الرزق ، يتلقاه المرزوق : فإن قال خلق : يستخدم المفرد ، وإن قال رزق يستخدم الجمع .

وقد جاءت الخاتمة خاصة بالخلق ، لأن زكريا يستبعد الإنجاب عن طريق الولادة ، فالأولى استبعاد الخلق في صورته الأولى ، عندما خلق الإنسان من تراب . فالإنسان خلق أولاً .. دون حاجة لرحم امرأة ، ولا أقصد آدم وحده ، بل أقصد كل البشر أبناء آدم ، فكلهم وإن جاءوا في موعدهم المحدد لهم عن طريق الولادة والخروج من رحم المرأة ، إلا أنهم خلقوا قبل ذلك بكثير ، فقد خلق كل البشر بعد آدم ، لأن آدم مادة خلقهم ، ومادة الخلق تسبق المخلوق منها ، فكما كان الطين أسبق من آدم لأنه خلق منه ، كذلك سبق آدم ذريته في الخلق ، لكنهم خلقوا في السماء مثلما خلق ، ولم يكن وقتها قد وجدت حواء ، فكل البشر وجدوا جميعاً بالخلق قبل أن تظهر أول امرأة. تأمل معي ولا تتعجب قول رب العزة في سورة النساء :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١٨٩﴾ [النساء]

انظر إلى قوله تعالى : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وهذا معناه أن النفس الواحدة ( آدم ) أسبق ، وهم مخلوقون منه . أي أن ما من مخلوق إلا ولحق آدم .

وجاء بعدها قوله (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) وهذا يعني أن زوجها وهي حواء خلقت أيضاً من تلك النفس الواحدة ، وقد ذكرت بعد خلق البشر كلهم ، فهي مخلوقة بعدهم . ومثلها جاء في سورة الأعراف (١) .

وأعرف أن هناك من سيرد علي بأن الواو لمطلق الجمع ولا تعني الترتيب ، أي أن هذا الكلام ليس شرطاً لتكون حواء بعد المخلوقين من آدم ، من الممكن أن تكون قبلهم . حسنا

(١) سورة الأعراف: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٩﴾ . }

، فاقراً معي ولا تتعجب قول رب العزة في سورة الزمر: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۖ ﴾ [الزمر]

قطعاً : ثم ليست لمطلق الجمع ، لكنها للترتيب والتراخي ، أي أن الترتيب كالاتي :  
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ : أي أن النفس الواحدة آدم أولاً لأنها المخلوق منها ، ثم المخلوقون منها ثانياً .

ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا : بعد ذلك وليس بعده مباشرة ، بل ثمة فاصل زمني أو حدثي : جعل منها زوجها حواء ، أي أن حواء تأتي في المرتبة الثالثة زمنياً من حيث الخلق ، ويكون ترتيب خلق البشر : آدم أولاً ، ثم البشر جميعاً ثانياً ، ثم حواء ثالثة . وهذا يعني أن الخلق ليس في حاجة إلى رحم .

وفي رأي أن الفاصل كان العهد : الذي أخذه الله √ من البشر (ألست بربكم ) .. ثم بعد ذلك يأتي الذرء ، والذرء هو أن يوزع المخلوقات ، وهنا يكون كل إنسان قادراً على إنتاج مثيله ، وهذا المنتج قادر على إنتاج مثيله .

### المغايرة الرابعة : اختلاف الخاتمة

[مريم]	{ ٩ } وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا	{ 1 } قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ
[مريم]	{ ١١ } وَلِنَجْعَلَنَّهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا	{ 2 } قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ
[الذاريات]	{ ٣٠ } إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ	{ 2 } قَالُوا كَذَلِكَ

**الصورة الأولى 1-ي :** { وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } (١): النص خاص بزكريا .. سر المغايرة يرجع لاختلاف موقف كل منهم ، فزكريا جاءه رد مفحم حاسم ، لأنه يدعو بالابن ثم يستبعد . فقال له لا تستبعد أن تنجب من ضعفين ، (امرأة عاقر / وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً ) فهذا أهون مما حدث لك من قبل عندما خلقك الله من عدم .

(١) سورة مريم : { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } .

**الصورة الثاني 2ة :** { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا }<sup>(١)</sup> : وجاء

الأمر مختلفاً مع مريم لأنها لا ترجو الولد مثل زكريا ، فجاء الرد عليها يراف بخوفها من حدوث الحمل دون زواج ، فجاء الرد يطمئنها وأنه رحمة لا عذاب . فالذي يرجو الولد جاءه الرد منطقياً لأنه يحتاج إلى الاقتناع ، ويتمنى لو يكون الأمر صحيحاً ، والتي تخشى من الولد جاء الرد ليبدد خوفها لأنها لا تحتاج إلى الاقتناع ، فهي لا تتمنى أن يكون الأمر صحيحاً .

فصاحب الرجاء جاء الرد عليه عقلياً مقنعاً ليقوى رجاءه .

وصاحب الخوف جاء الرد عليه قلبياً ليطمئنه أن القادم رحمة لا عذاب .

**الصورة الثاني 2ة :** { قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }<sup>(٢)</sup> : النص خاص بسارة زوج

إبراهيم عليه السلام .. أما سارة فكانت البشرية أكبر من احتمالها ، لكنها لم تصدها ، فهي لم تصدق نفسها من الفرحة . لذلك جاء الختام ليقرر أن الله يضع الأمر في مكانه ، وأنه يعلم بحالها .

✽ في كل ما مضى .

من قَبْلُ

وَلَمْ تَكُنْ

✽ الفعل يكون هو فعل الوجود ، وقد استخدمه الله / نتيجة للأمر الإلهي

(كن) : ● ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) ✽ (يس) .

✽ حذف النون من الفعل ( تكون ) للدلالة على العدمية . ولو وضعت

النون بدون النفي لدلت على الوجود ، ولو وضعت النون مع النفي : لدلت

على نفي الوجود بعد حدوثه ، أما عدم وضعها مع النفي فيدل على عدم

الوجود من الأصل :

● يكون : الوجود .

● لم يكن : كان موجوداً ولم يعد الآن ، أو كان موجوداً بشكل ضئيل لا

يمثل شيئاً .

(١) سورة مريم: { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا } (٨٢) .

(٢) سورة الذاريات: { قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } (٣٠) .

• لم يك : لم يكن موجوداً .. كان عدماً .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل).

□ وَلَمْ يَكُ : حذف النون لينفي الكون تماماً ، وهي تشبه العدم ، فكونه من المشركين لم يكن له أي نسبة من الوجود ، فكونه من المشركين ، والعدم سواء .

ولعل المغايرة الآتية تكشف سر وجود النون وحذفها :

1	{	أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ	وَلَمْ يَكُ	شَيْئًا	{	17	[مريم]
2	{	هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ	لَمْ يَكُنْ	شَيْئًا مَّذْكُورًا	{	1	[الإنسان]

المغايرة الأولى :

**الصورة الأولى 1-ى :** { وَلَمْ يَكُ }<sup>(١)</sup> : يتحدث عن الإنسان قبل خلقه أي في مرحلة العدم .  
فجاء الفعل خالياً من النون ليؤكد هذا العدم وذلك التلاشي .

**الصورة الثانية 2-ة :** { لَمْ يَكُنْ }<sup>(٢)</sup> : يتحدث عن الإنسان في بدايات خلقه وهو ما زال في طور النطفة . ولذلك ثبتت النون لأن الإنسان قد ثبت في شيء مادي ولو صغيراً .

المغايرة الثانية :

**الصورة الأولى 1-ى :** { شَيْئًا }<sup>(٣)</sup> : الحديث عن مرحلة العدم ، والعبارة ترتيبها الزمني : لَمْ يَكُ شَيْئًا / ثم خلقناه . أي أن نفي الشيئية هو مرحلة ما قبل الخلق . ونفي الشيئية أي قبل خلقه هي مرحلة العدم ، ولهذا خلت اللفظة من نون يكون لتؤكد هذا الانعدام ، وكان وجود الفعل يكون ( فعل الوجود ) حتى لو نفي يوحي بالوجود ، لذلك حذف النون لاستبعاد كل شبهة للوجود .

• لم يذكر صفة لكلمة شيء ، كذلك لم يحدث وصف لكلمة ( شَيْئًا ) حتى لا يذهب

(١) سورة مريم : { أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } (١٧) .

(٢) سورة الإنسان : { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } (١) .

(٣) سورة مريم : { أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } (١٧) .

النفي للصفة دون الشيء ، وبخلو العبارة من الصفة انصب النفي على وجود الموصوف ذاته .

والأمر نفسه في قوله تعالى :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۗ ﴾ [مريم]

فقوله : ( وَلَمْ تَكُ ) هو نفي الشيء ذاته أي العدم ، فهو يخاطب زكريا بأنه يجب ألا يتعجب من أن يُرزق بابن من ضعفين ( امرأة عاقر وشيخ كبير ) فقد كان هو نفسه لا شيء ثم أصبح رجلاً .

**الصورة الثانية ② :** { شَيْئًا مَذْكُورًا }<sup>(١)</sup> : يتحدث عن الإنسان في دور النطفة ، فهو موجود ولهذا عند النفي لشيء في الإنسان بعد مرحلة الخلق لا يحذف النون . ولأنه موجود (نطفة) لم ينصب النفي على الشئية ذاتها ، ولهذا أتى بالصفة لتسحب النفي ناحيتها ، فهو ينفي كونه مذكوراً أي هو شيء ضئيل ( لكنه موجود ) ، وهو وجود لا يكاد يذكر .

عند مرحلة العدم : لم يذكر الصفة ليكون النفي للوجود ذاته ( للشيء ) ، وحذفت النون .

لَمْ يَكْ ( بدون نون ) خاص للنفي في مرحلة العدم ،

لَمْ يَكُنْ ( بالنون ) خاص بالنفي في مرحلة ما بعد الخلق .

وعند مرحلة ما بعد الخلق : ( النطفة ) يذكر الصفة ( مَذْكُورًا ) ليكون النفي للصفة ذاتها وليس للشيء ، فهو موجود والصفة هي المنفية . ويذكر النون في الفعل يكون لأن وجوده يوحي بالوجود والشيء موجود .

عند وجود النعت : يكون النفي للعوارض ، وعند خلو النعت يكون النفي لذات . وبذلك نخلص إلى تلك القاعدة اللغوية التي يقننها القرآن الكريم :

• عند وجود الصفة يتجه النفي إلى نفي الصفة دون الموصوف ،

• وخلو الجملة من الصفة ينصب النفي على الموصوف ذاته .

وقد حذفت النون من الفعل في القرآن في عدة مواضع هي :

جدول ١ ﴿ أمثلة على حذف نون (يكن) ﴾

(١) سورة الإنسان { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۗ } .

ما زال في مرحلة العدم ، فهو نطفة من مني يمني أي أنه نطفة في مني أبيه ، ولم يصبح بعد في رحم أمه . فهي قبل الخلق .

● ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾﴾ (القيامة) .

حذف النون ليؤكد اندام النفع بالإيمان ، وكأن الإيمان الذي فعلوه عندما رأوا العذاب لم يحدث . فهو والعدم سواء .

● ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿٨٥﴾﴾ (غافر) .

لنفي التغيير من الجذر ، فسحب الله لنعمة أنعمها على قوم أمر غير وارد ، بل غير كائن . حتى إذا انقلبوا على ربهم وغيروا ما بأنفسهم يبدأ التغيير ، وكأن الله لا يغير النعمة ، بل الناس هم الذين يغيرون النعم ، فأراد أن يبعد التغيير عنه ، فقد أعطى النعمة ولن يسحبها ، فإذا سُحبت فهم المسئولون .

● ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنفال) .

تريد أن تنفي وجودها حتى لا تقربها صفة البغاء ، فالصفة لن تأتي إلا لموصوف ، فهي تنفي الموصوف حتى لا يكون ثمة فرصة لحدوث الاتصاف .

● ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴿٦٠﴾﴾ (مريم) .

قولة مؤمن آل فرعون : فهو يتحدث عن موسى : وإن يك كاذباً : فإن كان كاذباً فوجوده وعدمه سواء . وجاءت الثانية وإن يك صادقاً : لأنه يكتنم إيمانه فأراد ألا يفهم من قوله ميله لموسى ، فهو لا يتمنى عدم وجوده إلا في حالة الكذب . وقد استخدم الحاليتين بصيغة واحدة حتى لا يفترض إيمانه به .

● ﴿وَإِنْ يَكْ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ. وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ (غافر) .

شيء ❁ الشيء هو الموجود قبل وجوده ، ولهذا يطلق على العدم لأن العدم عندنا فحسب ، فكل شيء موجود في عالم الغيب ، وما قوله كن فيكون إلا لينتقل الشيء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

شَيْءًا

# قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

قَالَ ❁ القائل زكريا ، ولم يرد حرف عطف مما يقرر أن المقابلة ذاتها مستمرة في المكان والزمان أنفسهما . وهذا الطلب الثاني الذي يطلب فيه آية .. ففي المرة الأولى طلب آية كانت في سورة آل عمران فقيل له :

❁ ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ﴿٤١﴾ [آل عمران]

❁ وهنا .. لعله خاف أن تكون الآية تترك أثراً في لسانه ، فجاءه الرد مطمئناً أنه لن يتكلم برغم قدرته على الكلام . وزاد البشرى أن تلك الليلة محسوبة أي ينتهي الصوم عن الكلام مع غروب اليوم الثالث .

❁ توسل بلفظة الاعتناء .  
رَبِّ  
اجْعَلْ لِي آيَةً

❁ لو قال : اجعل آية لي ، لصلحت أن تكون له ولغيره . لكنه يريد أن يختص نفسه بتلك الآية .

❁ القائل جبريل في المقابلة نفسها . وللمرة الثانية . قَالَ

❁ آيَتُكَ أضاف الآية له لتكون نعمة واختصاصاً وليس نقمة أو عقاباً ، لأن العقاب يتنافى مع تلك الهبة .

❁ أدغم الحرفين ، فلا فجوة بين القول والاستماع . الامتناع عن الكلام جاء بأسلوبين ، مثبتاً عن طريق نقض النفي بإلا (إِلَّا رَمْزًا) ، ومنفياً . فالأول يمنعه عن الكلام المباشر مع الناس ، والثاني ظل على نفيه مصحوباً بالحال (سَوِيًّا) ليكشف أنه لا يتكلم عن عجز ، وإنه يملك القدرة على الكلام ، فلم تتعطل آلة الكلام ، لكنه لا تعمل إلا في التسبيح ، أما مع الناس فلا

يستطيع ، وإن حاول .

• وقد أدمج الحرفان في الكتابة الخطية للقرآن ، فلم تكتب هكذا ( أن لا ) بل كتبت ( ألا ) . والدمج يعني اتحاد الشخص بالحدث ، وإن كان الحدث هنا هو الصمت ، فيصبح عاجزاً تماماً عن الكلام كأنه فقد آلة النطق من تلك اللحظة ، أو فقدتها فعلاً خلال تلك المدة ، وانظر هذا المثالان مع فعل واحد جاء فيه الحرفان ( أن ) ، ( لا ) مرة بانفصال وأخرى باتصال لتعرف الفارق بين الاستعمالين :

[النمل]	{ ٣١ }	عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ	{	أَلَّا تَعْلَمُوا	}	1
[الدخان]	{ ١٩ }	عَلَى اللَّهِ إِيَّايَ آتِيكُمْ سُلْطٰنٍ مُّبِينٍ	{	وَأَنَّ لَا تَعْلَمُوا	}	2

**الصورة الأولى 1-ى :** { أَلَّا تَعْلَمُوا } : هذا كلام يقوله سليمان عليه السلام لقوم سباً ، لا فجوة بين القول ونطقها ، ولا فجوة بين القول والتنفيذ .

**الصورة الثانية 2-ة :** { وَأَنَّ لَا تَعْلَمُوا } : هذا حكي عن موسى عليه السلام ، يطلب من أهل مصر ألا يعلوا على الله ، لكنه لا يقول ذلك في هذا الوقت ، إنما الله يحكى ما قاله لهم قبلاً . لذلك فصل بين الحرفين ليفيد أن ثمة فجوة بين وقت القول وبين الوقت الذى حكي فيه .

[الأنعام]	{ ١٥١ }	أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا	{	قُلْ تَعَالَوْا أَنل مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ	}	1	مثال آخر
[الحج]	{ ١٦ }	أَنَّ لَا تُشْرِكَ فِي شَيْئًا	{	وَأِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ	}	2	

**الصورة الأولى 1-ى :** { أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } : لا فجوة بين القول والمستمع . القول مباشر لا يحكى .

**الصورة الثانية 2-ة :** { أَنَّ لَا تُشْرِكَ فِي شَيْئًا } : يحكى ما حدث لإبراهيم ، فهناك فجوة

بين القول الذي قيل لإبراهيم ، وبين حكيه لنا .

✻ وقد استخدم الناس وهي كلمة عامة تصلح للإطلاق على أي عدد ، حتى المفرد . وهي تختلف عن كلمة أناس التي تعني مجموعات محددة ، كل مجموعة على حدة ، كفصول المدرسة ، فكل فصل منها أناس .

النَّاسُ

✻ لماذا لم يقل : ليال ثلاث : لوقال ذلك لكان لا يوجد إلا تلك الليالي الثلاثة ، لكن لما كان سيقنطع ثلاث ليال من مجموع ليال السنة كان لابد أن يأتي العدد أولاً .

ثَلَاثَ لَيَالٍ

[آل عمران]	ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ	{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ الْأَتُكَلِّمَ النَّاسَ	1
[مريم]	ثَلَاثَ لَيَالٍ	{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ الْأَتُكَلِّمَ النَّاسَ	2

**الصورة الأولى 1** : { ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } : نفهم أن عدم كلامه للناس يستمر ثلاثة أيام ، لكنه في هذا النص لم يحدد الليالي ، ومن ثم يمكن أن تكون ليلتين فحسب .

لماذا اختار الليالي في نص مريم : واختار الأيام في نص آل عمران ؟

فالإجابة لأنه في آل عمران كشف لنا أن الأمر كان بالنهار ، لذلك جاء فيها تحديد الأيام ، ليبدأ من يومه هذا ، والدليل على ذلك أنه قال بعدها ( وَسَبَّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ) وكان منطقياً أن يقول سبح بالإبكار والعشي للترتيب الزمني ، لكنه بدأ بالعشي لأنه قد فاته الإبكار فهو أثناء النهار ، فلم يرد أن يفوته العشي لوقال له ( وسبح بالإبكار والعشي ) فهذه الإشارة تقرر أنه أثناء اليوم ، لذلك قال له ( ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ) ليكون هذا اليوم من الأيام الثلاثة .

**الصورة الثانية 2** : { ثَلَاثَ لَيَالٍ } : لو لم يأت هذا النص لفهمنا أنها ثلاثة أيام أما الليالي فليلتان فحسب . فجاء هذا النص ليقرر أن المدة المحددة ثلاثة أيام بليالها .

✻ أي سليماً ، لم تصبه آفة .

سَوِيًّا

- 1 { أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } [مريم]
- 2 { أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا } [آل عمران]

**الصورة الأولى 1** سَوِيًّا : لتقرر أن زكريا كان قادراً على الكلام ، ولم يصب بأفة ، فهو ممنوع عن مخاطبة الناس تحديداً ، لكنه يمكنه الكلام بصوت تسبيحاً لله وذكراً . لقد طلب زكريا الآية لأنه لا يدري من الذى يخاطبه أهو ملاك من عند الله أم الشيطان يعيث به ، فطلب الآية ليستوثق أن محدثه هو ملاك الله . فجاءته الآية معجزة ، أن يظل ثلاثة أيام يمكنه أن يتكلم ، فإذا أراد أن يخاطب الناس عجز عن الكلام ، وهذه آية يعجز عنها الشيطان وهى الكلام والعجز عنه في الوقت نفسه . فالشيطان يمكنه أن يصيب الإنسان بأفة تخرس لسانه تماماً فلا يتحدث مطلقاً ، لكنه لا يستطيع أن يوقف اللسان في اتجاه معين ويطلقه في آخر . فكانت تلك الآية شاهدة بطلاقة قدرة لا يقدر عليها سوى الله . أى أن كلمة سويًا هى القاطعة بأن الآية من عند الله ، لأنها تقرر أنه معاف وقادر على الكلام إلا عن كلام الناس فحسب . وهذا العجز الموجه لا يقدر عليه الشيطان .

**الصورة الثانية 2** : {إِلَّا رَمَزًا} : لتحدد وسيلة التعامل مع هؤلاء المحظور عليه أن يكلمهم ، ولا يقدر أن يفعل لو حاول . ولفظة (وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ) : لتقرر أنه قادر على الكلام في هذا الاتجاه . وبذلك تكاملت الآيتان لتعطى المعنى الكامل : فقد أعطيت له آية يستيقن منها أن البشرى من عند الله ، تلك الآية أن يكون قادراً وعاجزاً عن الكلام في آن واحد ، قادراً على ذكر الله بصوت مسموع ، وتسبيحه بالعشى والإبكار ، وعاجزاً أن يخاطب الناس ولو حاول ، وليس أمامهم في مخاطبتهم سوى الإشارة والرمز ، وهذه الآية مدتها ثلاثة أيام وثلاث ليال .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا ﴾

﴿ وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [آل عمران]

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ

مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴿مریم﴾

وقد ذكر لوقا أن الآية ( الخرس ) قد بدأت مع البشرى واستمرت حتى اختتن الوليد في يومه الثامن ، أي ظلت الآية ملازمة له طيلة أكثر من تسعة أشهر ، بخلاف ما قاله القرآن الكريم أنها اقتصررت على ثلاثة أيام بليالها .

وسوف نناقش الرأي الآخر ..

يوضح لنا لوقا أنه يكتب ذلك للعزيز ثاوفيلس في هذا الموضوع لأن هناك كثيرين أخذوا في التأليف فيه ، فقرر هو أن يصحح له ما علمه ويكتب له بتدقيق كما وصلته من الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة .

• وهذا يعني أن ثمة وجهة نظر أخرى كانت منتشرة في ذلك الوقت ، يؤمن بها المتلقى للخطاب ثاوفيلس ، ولم يعرض لوقا وجهة النظر تلك لانشارها ، فلم تكن بحاجة للذكر ، أكثر من حاجتها للتصحيح . ( ٤ ) لَتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلَامِ الَّذِي عَلَّمْتَ بِهِ )

• لم يعاين لوقا الأحداث بنفسه لكنه استلمها ممن قبله: ( ٢ ) كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَانِينَ وَخُدَامًا لِلْكَلِمَةِ ) .

يقرر لوقا أن زكريا من فرقة أبيا وفرقة أبيا هي إحدى فرق الكهنة من أبناء هارون ، وقد قام داود بتنظيم عمل الكهنة ، فقسمهم إلى أربع وعشرين فرقة . كل فرقة تخدم في الهيكل أسبوعاً ، وفي الأعياد الكبرى تشترك كل الفرق في الخدمة وكانت فرقة أبيا ترتيبها الفرقة الثامنة<sup>(١)</sup> وزكريا الهاروني متزوج من امرأة من سبطه هي هارونية أيضاً ( وَأَمْرَاتُهُ مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَأَسْمَاهُ أَلِيصَابَاتُ ) واسم أَلِيصَابَاتُ هي صيغة يونانية للكلمة العبرية (اليشبع)<sup>(٢)</sup> أي الله قسم ، وهي تحمل نفس الاسم الذي حملته جدتها امرأة هارون بن عمران الذي تنمي إليه هي وزوجها<sup>(٣)</sup> . ومادات أَلِيصَابَاتُ هارونية وزوجها هاروني ، فلا يمنع ذلك بل يدعم أن

(١) أخبار الأيام الأول . الإصحاح ٢٤ .

(٢) قاموس الكتاب المقدس . ص ١١٣ .

(٣) حمل اسم اليشبع : اليشبع ابنة عميناداب : التي أحببت لهارون بن عمران أخي موسى أبناءه ناداب وابيهو والعازر وإيثامار .

تكون قريبتها هارونية ، وأقصد مريم الذي صرح لوقا بأنها قريبتها ، وهو ما قاله القرآن الكريم عندما نسب مريم إلى هارون وقال لها : يا أخت هارون . ليصحح نسب مريم التي نسبوها ليهودا ، وهاهي لما تذهب لقريبتها ، نجد أن قريبتها هارونية ، وحتى لو كان وجه القرابة من جهة زوجها ، فالزوج أيضاً هاروني .

وبينما يعرض لنا القرآن زكريا يصلى في المحراب ، ويدعوه ربه بألا يزره فرداً ، وأن يرزقه بابن يرثه ، ويرث النبوة من آل يعقوب ليقوم الدين بقوة . فبشرته الملائكة وهو مازال في صلواته باستجابة دعوته ، فيستبعد الأمر مرتين : فيقال له في الأولى : كذلك الله يفعل ما يشاء ، وهنا يقوى أمله في أن تكون صحيح فيعاود الاستبعاد لكن في هذه المرة ليطمئن قلبه ، وهنا يقال له : كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً . فهنا يطلب زكريا من ربه آية خشية أن يكون ما يسمعه لعباً به من الشيطان : فيقال له : آيتك ألا تحدث الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، فيخشى أن يستمر فقد نطقه ، فيكرر طلبه ثانية طمعاً في آية أخرى ، فيقال له : آيتك ألا تحدث الناس ثلاث ليال سوياً . أي أن آلة النطق عندك صحيحة تنطق بها ذكر الله ، وتعجز أن تستخدمها في مخاطبة الناس . تلك هي الرواية القرآنية ..

أما لوقا فيخالف تلك الرواية في الأمور الآتية :

- يجعل زكريا قد دخل الهيكل لا للصلاة ، بل لبيخره ، وبذلك لم تسبق البشري بطل من زكريا فلماذا لم يذكر لنا النص شيئاً عن دعاء زكريا لربه ؟ ولماذا اكتفى له بالتبخير الذي قام به وحده وهو عمل يشق عليه خاصة وهو طاعن في السن ، فنحن أمام أحد أمرين أما أن زكريا لم يدع ربه ولهذا لم يذكرها ، ويكون بذلك موقف الملاك عجبياً ، أو أن زكريا فعلاً قد دعا ، وهنا كان يجب عليه أن يذكر هذا الدعاء حتى لا تبدو الاستجابة مبتورة ، كأنها استجابة لدعوة لم تتم .

- الملاك لم يظهر لزكريا القرآني وكان يسمع صوتاً فحسب ، بينما ظهر الملاك لزكريا حسب لوقا واقفاً على يمين المذبح مما أدى إلى خوفه واضطرابه .

- لما خاف زكريا ، طمئنه الملاك بقوله ( **لَا تَخَفْ يَا زَكْرِيَّا ، لَأَن طَلَبْتِكَ قَدْ سَمِعْتَ** ) ونفهم من قولة الملاك أن زكريا كان خائفاً لأن طلبته قد لا تسمع ، والمنطقي أن يخشى ألا تستجاب ، أما السمع فالرب يسمع كل شيء . كما أن النص ذكر لنا أن زكريا لما خاف كان خوفه من الملاك نفسه ، فكان يتوقع أن يقول له الملاك : لا تخف فأنا ملاك ربك لأحقق طلبتي ، فيكون ذلك رداً

على سبب خوفه منه ، وبشرى له بما يريده .

ويقرر النص أن الیصابات ستلد له ابناً ، وذكريا هو من سيسميه ، ومع ذلك عندما ولدت الیصابات : هي من أخبرتهم بالاسم قبل أن يقوله زكريا فكيف عرفت ؟؟

٥٩ وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي ، وسموه باسم أبيه زكريا . ٦٠ فأجابت أمه وقالت : « لا ! بل يسمى يوحنا » .

قد يقال أن زوجها أخبرها بالاسم ، لكن هذا لا يستقيم إذا عرفنا أن زوجها خرج من المحراب لا ينطق وظل هكذا إلى تلك اللحظة .

ويقرر النص ( وكثيرون سيفرحون بولادته ، ١٥ لأنه يكون عظيماً أمام الرب ) : فكيف يكون سبب فرحهم بولادته شيئاً سيحدث بعد ولادته ؟ أم يقصد أنهم سيفرحون به بعد أن يصبح عظيماً أمام الرب ؟ حتى هذه غير مقبولة لأن لوقا نفسه بعد ذلك يذكر على لسان السيد المسيح عليه السلام أنهم لم يفرحوا به بل قالوا عنه شيطان : ٣٢ لأنه جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً ، فتقولون : به شيطان . (١)

ويذكر لوقا على لسان الملاك صفات الوليد :

وخمراً ومسكرًا لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس . ١٦ ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم . ١٧ ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ، ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء ، والعصاة إلى فكر الأبرار ، لكي يهيئ للرب شعباً مستعداً .

وقد جاء الواقع يقرر أنه لم يشرب خمراً فعلاً ، لكنه أيضاً ( لا يأكل خبزاً ) كما ذكر عنه السيد المسيح . فهل نسيها الملاك ؟ أم أن يوحنا زاد شيئاً عما بشر به ؟؟ أما قوله : ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته تشير إلى أنه جبار ، فلماذا جاءت نهايته لا تتفق مع ذلك ؟

يقرر النص أن زكريا قال كيف أعلم هذا ؟ فإن كان يقصد كيف يعلم أنه رزق الابن ، فالإجابة عندما تكبر بطن المرأة ، وإن كان يقصد كيف أطمئن الآن إلى أن ذلك حقيقي فالسؤال : كيف ذلك وأنا حالتي كذا وكذا . ثم علل قوله ( كيف أعلم هذا ) : لأنني أنا شيخ وامرأتي متقدمة

(١) لوقا . الأصحاح (٧) . العدد ٣٣ .

## في أيامها؟»

فهذا تعليل الاستبعاد ، فكان يجب أن يستبعد ، وليس أن يسأل كيف يعلم هذا . وذكر في تعليل الاستبعاد : التقدم للسن له ولامرأته ، وكان يجب أن يقول إنها عاقر ، وقد وصفها لوقفاً بذلك ، لماذا نسي زوجها في استبعاده أن يقول ذلك السبب المحوري ؟ وهل كان المانع للإنجاب حديثاً ؟ أم أنه من زمن ، فما المانع قبل كبر السن ؟؟ أكان شيئاً غير عقر المرأة الذي لم يذكر هنا ؟

• يفاجئ الملاك زكريا وكذلك نحن بأنه جبريل الواقف قدام الرب .. فهل تلك المرة الأولى التي يرى فيها ملاك الرب ؟ ألم يكن نبياً قبل ذلك ؟؟ فإن كان رآه قبل ذلك ففيم الفزع ؟ وما الحاجة ليخبره الملاك باسمه ؟ وإن لم يكن قد رآه من قبل .. ففي أي صورة ظهر جبريل ؟ بصورته الحقيقية ، إذن الصورة ناطقة ولم يكن الملاك بحاجة ليخبره بأنه ملاك ، وإن كان بصورته البشرية ، فلماذا خاف زكريا واضطرب ؟؟

• يعرف جبرائيل نفسه بأنه الواقف قدام الله ، أي حاجب الله ، وهل الله ملك من ملوك البشر ليقف أمامه حجاب .. ؟ إنها نظرة متأثرة بملوك الدنيا الذين يتخذون حجاباً .

• وهل ما فعله زكريا يستحق هذا العقاب ؟؟ لقد أراد تأكيداً على البشرية ، فلماذا لم يقل له الملاك ما قاله لمريم : **لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله** . لكن الملاك يأبى إلا عقابه بقسوة : **(وَمَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هَذَا)** .

وهكذا عوقب زكريا بالخرس لعدة شهور ، ولا مبرر لأن نعاقب غير المصدق الذي نبشره بالخير ، ولو غضبنا عليه لكان العقاب أن نحرمه الهبة التي وهبها ، وليس من سلطة الملاك أن يبشر ويعاقب ، فمهمته كما حددها هو نفسه : **(وَأَرْسَلْتُ لَأُكَلِّمَكَ وَأُبَشِّرَكَ بِهَذَا)** فهو مجرد رسول للرب فبأي سلطة يعاقب زكريا ؟؟ وهل أمره الله بذلك ؟؟ النص يوضح أنه قد غضب لنفسه **(لأنك لم تُصدق كلامي)** . وكيف يقوم الملاك بعقاب من جاء ليبشره من تلقاء نفسه ؟ وهل يستقيم العقاب مع البشرية ؟

• وهل ما فعله زكريا يستحق هذا العقاب ؟؟ لقد أراد تأكيداً على البشرية ، فلماذا لم يقل له الملاك ما قاله لمريم : **لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله** . لكن الملاك يأبى إلا عقابه بقسوة : **(وَمَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هَذَا)** .

فلو كان غير المصدق يجب عقابه ، فكان يجب عقاب كل من بشر ولم يصدق ، وقد بُشِّرَتْ سارة ولم تصدق ، وبُشِّرَتْ مريم ولم تصدق ، وأغلب المبشرين في الكتاب المقدس بُشِّروا ولم يصدقوا ، فلماذا عوقب زكريا دونهم ؟؟

إن الموقف كما صورته القرآن نفهم منه أن زكريا لم ير الملاك ، ولهذا استفسر ليطمئن ، فجاء رد الملاك منطقياً : أن طلاقة قدرة الله تجعله يفعل ما يشاء ، وليس إنجاب ابن من ظروف غير مهياً بأصعب من إيجاد أبيه من قبل ولم يكن شيئاً .

وهذا كلام منطقي يمكن أن يستخدمه الشيطان للعبث به ، لهذا أراد آية مبعده للشيطان ، لا يقدر عليها الشيطان ، والخرس في مقدور الشيطان وأوليائه ، فالخرس لا يصلح . لهذا جاءت آية الله لزكريا ليفند له بعد الشيطان تماماً ، فهو يعجز أن يتكلم في الأمور العادية ، فإذا أراد تسبيح الله انطلق لسانه ، فهو لم يفقد القدرة على النطق ، بل فقد القدرة على الخوض في مجال دون آخر ، وهذا لا يقدر عليه سوى الله فكانت الآية محققة لهدف زكريا الذي أراد أن يطمئن أن ربه هو المبشر ، فأعطاه ربه الآية التي ترتفع عن قدرات الشيطان ، فلما أعطيتها أيقن أنها بشرى من الله حقاً ، وأن المتحدث ملاكاً .

• ويقرر الملاك استمرار العقاب (إلى اليوم الذي يكون فيه هذا) فما هذا اليوم ، ليس إلا حدوث الحبل وظهوره واضحاً ، ومع ذلك لم يتوقف العقاب عند كبير بطن المرأة ، بل استمر حتى ولدت ، ولم يكف هذا ، كأن الحبل لم يكشف عن حدوث البشري ، وكذلك ولادة الولد أيضاً لم تكشف أن الولد ممكن ، فلم يرفع العقاب إلا في اليوم الثامن بعد اختنانه وتسميته .

ولوقا لا يكتفى بهذا الخرس الطويل الذي لا مبرر منه سوى عقاب المبشر المسعود ، فهو يجعله أيضاً لا يسمع : فقد قالت الأم : يوحنا ، فلو كان يسمع فقد سمع الاسم ويمكن أن يشير لهم بالموافقة دون أن يسألوه ، ومع ذلك اضطروا أن يسألوه مما يعنى أنه لم يسمع السؤال . وقد يقول قائل ربما قالت امرأته الاسم وهو بعيد ، وسنساير ذلك ، ونقول لكن لوقا يؤكد هذا الصمم : فالناس عندما أرادوا سؤاله ، لم يتحدثوا ، بل أومأوا إليه ، ولو كان يسمع لتحدثوا إليه ، لكنهم أومأوا : ﴿ ثم أومأوا إلى أبيه ، ماذا يريد أن يسمى ﴾<sup>(١)</sup> . ولم يقل الملاك سوى : ﴿ وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم ﴾<sup>(٢)</sup> . ولم يقل أنه سيكون أصم أيضاً ، ومعنى ذلك أن الملاك أخبره بعقاب وأعطاه عقابين .

(١) لوقا ١ : ٦٢ .

(٢) لوقا ١ : ٢٠ .

## فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

✽ زكريا ، خرج من المحراب إلى المسجد ، ولأنه حبرهم فهو من يصلى بهم صلاة الجماعة ، فهو كان في صلاة خاصة منفردة في حجرته ، فالخروج هنا ليس خروج من المسجد كلية ، لكنه خروج من حجرة إلى المسجد نفسه حيث ينتظر الناس للصلاة .

فَخَرَجَ

✽ الجر (على) بعد الدخول والخروج يعني أن المكان كان فيه الناس قبل الدخول ، وهنا يعني أن قومه بانتظاره .

عَلَى قَوْمِهِ

✽ لم يأت بها أولاً ، ليثبت وجود الناس أثناء وجوده في المحراب ، ولو جاء بها أولاً لكان المعنى : خرج من محرابه ، ولم يكن في المسجد أحد ، ثم إما دخلوا إليه ، أو خرج عليهم خارج المسجد ، لكن التعبير بهذا يكشف أن الناس كانت بالمسجد أثناء وجود زكريا عليه السلام في المحراب ، ولما خرج منه كانوا موجودين بانتظاره .

مِنَ الْمِحْرَابِ

✽ قال لهم بالإشارة سواء كتب لهم ، أو أشار بيده بطريقة ربما يعرفون دلالتها من قبل .

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ

✽ أن المفسرة للإشارة .

أَن

✽ التسبيح يختلف عن التسبيح ل ، فالتسبيح باللام يعني الدوام أو أنهم مجبولون على ذلك . والغرض من هذا الطلب منهم أن يصرف ذهنهم عن الانشغال بأمره . أو كما قال ابن عاشور : لئلا يحسبوا أن زكريا لما لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصلمتوا ، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة

سَبِّحُوا

✽ جمع بين طريق الزمان ليدوم التسبيح منهم .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا

يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا  
وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾

يُحْيِي ثمة نقلة زمنية ، والقائل هنا الله ﷻ يقول ليحيى بعد أن كبر .

خُذِ الْكِتَابَ

✽ الكتاب : التوراة . وليس المطلوب حمل التوراة فحسب ، فقد وصف الله ﷻ

في سورة الجمعة علماء التوراة الذين حملوا التوراة ولم يعملوا بها :

• ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ (الجمعة) .

✽ واعتبر الله ﷻ أن حامل التوراة الذي لا يعمل بها هو غير حامل لها ،

وأنه في حمله لها دون تطبيق (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) .

✽ الباء للملابسة ، والقوة هي العزيمة والإخلاص في حمل الناس على اتباع

الكتاب الذي هجره ، وحملهم على العمل به وعدم الاكتفاء بالحفظ الشكلي له .

وما أروع توضيح الشعراوي لهذه النقطة : إذ قال : الكتاب فيها وأمر وفيه نواه ،

يأمر بالخير وينهاك عن الشر ، فإن أمرك بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوة دَفْع

تدفعك إلى الخير ، وكأنك كنت ساكناً تحتاج إلى قوة تحركك ، وإن نهاك عن الشر

وأنت تفعله فأنت في حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك في الشر . والمنهج هو هذه

القوة التي تُحرِّكك إلى الخير وأنت ساكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

✽ ثمة نقلة زمنية ، والقائل هنا الله ﷻ يقول ليحيى بعد أن كبر .

وَءَاتِنَاهُ

الْحُكْمَ

✽ أعطي الحكمة صبيًّا ، وقد دعاه الصبيان أترابه إلى اللعب فقال : ما

لعب خلقنا (١) . وهذه خطوة مهدت لأن يكون أصغر الأنبياء في تلقى النبوة ،

فامتلاكه الحكمة صبيًّا مهدت ليكون نبياً لما اشتد عوده ، ولعله أصبح حكيماً في

(١) جلال الدين السيوطي . الدر المنثور في التفسير بالمأثور . المجلد الرابع . دار الكتب العلمية . بيروت

. الطبعة الثانية . ٢٠٠٤ . ص ٤٧٠ .

العاشرة ونبياً قبل أن يتم العشرين .

❁ أي أنه أخذ الحكم في سن الصبيان ، وقد قلنا إنه كان يقول : ما للعب خلقنا .

صَبِيًّا

❁ الكلمة تعرب مفعولاً ثانياً لفعل محذوف تقديره : وآتيناه : حناناً أي رحمة وشفقة ، والتقدير وآتيناه الحكم صبياً ، وآتيناه حناناً . والحنان أصله من حنين الناقة على ولدها .

وَحَنَانًا

❁ من خزائن الله الخفية ، المخصوصة .

لَدُنَّا مِن

❁ مفعول ثانٍ آخر للفعل المحذوف آتيناه ، والزكاة هي الطهارة ..

وَزَكَاةً

❁ أي تلك صفته التي خلق بها ، فالفعل كان يأتي للحديث عن الماضي أو القدم .

وَكَانَ

❁ مطيعاً لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يلم بها .

تَقِيًّا

❁ البر : المحسن الموسع في الخير ( إذا سئل أجاب ) ومنها بر الوالدين أي التوسع في الإحسان إليهما . فهي صفة مشتركة بين الله والعبد ، فإذا جاءت معرفة بأل فهي خاصة بالله ، وإذا وصف بها الإنسان تأتي نكرة . وقد جاءت في القرآن وصفاً لابني الخالة يحيى ، عيسى عليهما السلام في البر بالوالدين حيث كانا موعلين في الإحسان للوالدين :

وَبَرًّا

❁ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٤) (مريم) .

❁ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِيٍّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢) (مريم) .

❁ ويبقى سؤال ما تقدير الفعل الناصب لكلمة (براً) :

[مريم]	{ ٩ } وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا	وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ		وَكَانَ	{ 1 }
[مريم]	{ ١١ } وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا	وَبَرًّا بِوَالِدِيٍّ	وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا إِنَّ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١	تَقِيًّا ١٣	{ 2 }

**الصورة الأولى 1** **سى** : { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ }<sup>(١)</sup>: جاءت الوالدان مثني ، لأن يحيى له أبوان ، وجاء الضمير بالغيبة (بِوَالِدَيْهِ) لأن الله هو من يخبر عن يحيى . لفعل المقدر الناصب لها ، هو الفعل كان ، فبراً هنا خبر لكان المحذوفة ، ويكون الكلام ( وكان تقياً ، وكان برأ بوالديه ، ولم يكن جباراً عصياً .

**الصورة الثانية 2** **سى** : { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ }<sup>(٢)</sup> : جاء الوالدة مفردة ، لأن عيسى عليه السلام لم يولد إلا من أم . وجاء الضمير بياء المتكلم لأن عيسى عليه السلام هو من يتكلم وهو في المهد . الفعل المقدر الناصب لها ، هو الفعل جعل ، فبراً هنا خبر مفعول به ثان ، ويكون الكلام ( وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً ... وجعلني برأ بوالدي ، ولم يجعلني جباراً شقياً ) .

✽ وقد تسأل : ما سر اختيار الفعل كان ليحيى عليه السلام ، والفعل جعل لعيسى عليه السلام ؟

**الصورة الأولى 1** **سى** : { وَكَانَ }<sup>(٣)</sup> : الفعل كان هنا يفيد الديمومة ، أي أنه هكذا منذ البداية . أي أنها صفة ملازمة ، ولن تفارقه مستقبلاً ، ولأن القائل هو الله √ فهو المهيمن على المستقبل ويستطيع أن يقرر ما يشاء بشأنه ، ولا يأتي المستقبل إلا بما يطابق قوله .

**الصورة الثانية 2** **سى** : { وَجَعَلَنِي }<sup>(٤)</sup> : لم يستخدم الفعل ( كان ) لأن القائل ليس الله √ ، ولكنه عيسى عليه السلام يتحدث عن نفسه . فهو إن أخبر عن نفسه بكان ، لفهم المتلقون لكلامه أنه يتحدث عن زمن ماضى ، وأي ماض لطفل اليوم ؟؟ وما أفاد ذلك إخباراً عن مستقبل لأنه ليس مهيمناً على المستقبل . فهو يخبر عن نفسه بأشياء لم تحدث بعد ، فتاسبها الفعل جعل .

✽ لم يقل بأبويه ، لأن الأب هو من بيني ، أم الوالد فهو من أنجب فحسب ، وهذا يعني أنه مبر لهما وإن لم يقدم له أي شيء .

- (١) سورة مريم : { وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا }<sup>(١٣)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا }<sup>(١٤)</sup> .
- (٢) سورة مريم : { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا }<sup>(٣٠)</sup> وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا }<sup>(٣١)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا }<sup>(٣٢)</sup> .
- (٣) سورة مريم : { وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا }<sup>(١٣)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا }<sup>(١٤)</sup> .
- (٤) سورة مريم : { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا }<sup>(٣٠)</sup> وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا }<sup>(٣١)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا }<sup>(٣٢)</sup> .

❁ جاءت كل الأفعال المعبرة عن يحيى عليه السلام بالفعل كان حتى في الصفات المنفية ، وذلك لما تحمله كان من الديمومة .

❁ جاء في المقاييس أن أصل الكلمة هو جنس من العظمة والعلو والاستقامة ، فالجبار الذي طال وفات اليد . وذو الجبروت هو الله جل ثناؤه . وجاء في المفردات أصل الجبر : إصلاح الشيء بضرب من القهر . ودليل الإصلاح قول على رضي الله عنه : (يا جابر كل كسير، ويا مسهل كل عسير) ومنه قولهم للخبز: جابر بن حبة . وسمي السلطان جبرا لقهره الناس على ما يريد، أو لإصلاح أمورهم . وقال ابن قتيبة في غريب الحديث (٢ / ١٤٥) عن تسمية الله بالجبار هو من جبرت العظم أي جبر القلوب على فطرتها من المعرفة .

وأفرق بين الوصف بكلمة جبار وحدها ، والوصف بالجبار موصوفاً ، فالأولى عند النفي : ينفي عنه صفة الجبار نفسها ، والثانية يثبت له صفة الجبار وينفي الوصف عن الجبار نفسه ، فهناك فرق كبير بين القولين :

{	وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ	{	بِجَبَّارٍ	{	٤٥	[ق]
{	وَلَمْ يَكُنْ	{	جَبَّارًا عَصِيًّا	{	٢١	[مريم]

**الصورة الأولى ١-ى :** {بِجَبَّارٍ} <sup>(١)</sup>: يصف محمد صلي الله عليه وسلم ، ولم يضع بعد جبار صفة ، لأنه في سياق تسرية عن النبي S ، فلا تحزن لعدم إيمانهم ، لأنك تملك قسره على الإيمان .

**الصورة الثانية ٢-ة :** {جَبَّارًا عَصِيًّا} <sup>(٢)</sup>: يصف يحيى عليه السلام ، وقد وضع بعد جبار صفة ، وهنا لا ينفي صفة الجبار عنه ، لكنه جبار غير عصي . فالنفي منصب على العصي فحسب . أي أنه جبار في الحق . ووصف صفة الجبار لا يعيب من يتصف به ، فهي صفة الله لا نفسه . ولم تنفي عن النبي S إلا في سياق القهر على الإيمان فهي منفية عنه في ذلك ، لكنها مثبتة له في الثبات على الدين ، وعدم التخلي عنه وإن وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره . وكتبت الكلمة بإثبات ألف المساواة

(١) سورة ق : { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ } .

(٢) سورة مريم : { وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَرَكُودًا وَكَانَ تَقِيًّا } <sup>(١٣)</sup> وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا <sup>(١٤)</sup> .

مفرداً وجمعاً (جَبَّارٍ ، جَبَّارِينَ) ، لعدم تفاوت المتصفين بالصفة .

✽ الصفة للمبالغة.

عَصِيًّا

1	وَلَمْ يَكُنْ	جَبَّارًا	عَصِيًّا	{ ١٤ }	[مريم]
2	وَلَمْ يَجْعَلْنِي	جَبَّارًا	سَقِيًّا	{ ٣٣ }	[مريم]

**الصورة الأولى 1** عَصِيًّا<sup>(١)</sup>: اتفقنا أن النفي مع الشيء الموصوف هو نفي للصفة لا الشيء ، فلو قال (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا) لنفى الجبروت عنه ، لكن قوله (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) فقد أثبت له الجبار ونفي أن يكون هذا الجبار عصياً ، ونفي العصي ليقابل الشيطان ، قال الله ﷻ عن الشيطان على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿يَتَّابِتْ لَّا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٤) [مريم].

✽ وانظر استخدام كان ، أي أن تلك صفته منذ القدم ، وتلازمه على مدى حياته ، فهو عصي دوماً . ولم تأت لفضلة عصي في القرآن إلا مرتين ، مثبتة للشيطان ، ومنفية عن يحيى عليه السلام ، أي أن يحيى في مقابلة مع الشيطان ، أحدهما يلتزم بما أمر الله به وينتهي بنواهيته ، والآخر يفعل عكس ما أمر الله به . وذلك لأن يحيى كان ضد الشيطان ، فالشيطان يرتكب كل ما نهى الله عنه ، ويحیی يحبس نفسه عن كل ما نهى الله عنه . وهذا التقابل بينهما جعل يحيى من حقه نفي الصفة التي أثبتت للشيطان الذي يقابله .

**الصورة الثاني 2** سَقِيًّا<sup>(٢)</sup>: أثبت له أنه جبار ، لكن ليس بشقي . فلا يشقى بما قالوه عنه من أنه ابن الله لأنه لا يوافقهم عليه ، ولم يرض به منهم . وهو جبار فلا يتمكنون منه .



(١) سورة مريم: { وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) } .

(٢) سورة مريم: { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَقِيًّا (٣٢) } .

## وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا

❁ جاءت سلام نكرة في الحديث عن يحيى عليه السلام لأن أدنى سلام من الله كاف عن كل سلام، فلا حاجة إلى تعريفها لأن النكرة ما دام مصدرها الله يغنيهما عن التعريف. بينما جاءت معرفة لأنها على لسان عيسى، فهي دعاء من عيسى لله، فجاءت معرفة لتعبر عن رغبة عيسى بأنه يريد من الله (السلام) الكثير العام الشامل العزيز.

**الصورة الأولى ①** : { وَسَلَّمَ }<sup>(١)</sup> : جاءت سلام نكرة في الحديث عن يحيى عليه السلام لأن أدنى سلام من الله كاف عن كل سلام، فلا حاجة إلى تعريفها لأن النكرة ما دام مصدرها الله فهي في غني عن التعريف.

**الصورة الثانية ②** : { وَالسَّلَامُ }<sup>(٢)</sup> : بينما جاءت معرفة لأنها على لسان عيسى، فهي دعاء من عيسى لله، فجاءت معرفة لتعبر عن رغبة عيسى بأن يغمره الله بالسلام الكثير العام الشامل العزيز. ولو جاءت نكرة لكانت دعاء بقليل، ورضي بأي جزء. وعندما أراد الله أن يحقر من تشبث بني إسرائيل بالحياة (أحرص على حياة) أي حياة ولو ذليلة.

يا رب نجحًا  
يا رب النجاح  
أي نجاح يرضيه.  
يطلب نجاحًا معهودًا لا يرضيه سواه فهو  
النجاح المنشود.

❁ جاء الحديث عنه بالغائب لأنه لا يتكلم عن نفسه، إنما رب العزة هو من يتكلم عنه. بخلاف الآية الخاصة بعيسى عليه السلام، فجاءت بصيغة المتكلم لأن ذلكم الوليد في المهد أنطقه الله فهو يتحدث عن نفسه في مستقبل أيامه بعد أن كشف الله له عما سيكون عليه.

**الصورة الأولى ①** : { عَلَيْهِ }<sup>(٣)</sup> : رب العزة يخبر رسوله محمد ﷺ عن المعداد يحيى فجاء الحديث عنه في صيغة الغائب.

(١) سورة مريم : { وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } { ١٥ } .

(٢) سورة مريم : { وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } { ٣٣ } .

(٣) سورة مريم : { وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } { ١٥ } .

**الصورة الثاني 2:** {عَلَى} <sup>(١)</sup>: ينطق الطفل عيسى وهو في المهد فيتحدث عن نفسه في مستقبل أيامه بعد أن كشف الله له عما سيكون عليه ، فجاءت صيغة التكلم لأنه يتكلم عن نفسه .

وقد تسأل : لماذا استعمل عبارة يحيى بصيغة الغائب ، وعبارة عيسى بصيغة المتكلم : أما عيسى فثمة امتراء فيه ، فهناك من يراه قد صلب ، والإسلام يرفض صلب عيسى ، ويرى أنه أما رفعه الله قبل موته ثم ينزل ويموت ، وأما قد مات ورفع الله بعد موته . والعلماء على اختلاف في الأمرين ، لكن المتفق عليه هو أنه لم يصلب وأنه من الموتى ، فمجيء العبارة على لسانه تنفي القول بألوهيته . أى أن عيسى لو تم الإخبار عنه لقليل أن ما أخبر عنه غير صحيح ، لكن مجيء العبارة على لسانه أقوى في الدلالة ، لأنه ينفي عن نفسه ما قيل عنه ، وأقوى النفي ما صدر عن صاحب الشأن ، ولا يمكن أن يقال أنه لم يكن يعرف ما سيحدث ، ولو قيل أنه لا يعرف ، فالتقول إثبات لنفي الألوهية . فكيف يكون إلها ولا يعرف ؟ إذن كان مجيء العبارة على لسانه أقوى من مجيئها بصيغة الغائب . أما يحيى فلا يوجد معه ما يوجد مع المسيح ، لذا فلم يكن شرطاً أن يأتي بصيغة المتكلم أو بصيغة الغائب .

لكنه لو جاء بصيغة الغائب ، لقليل أنه يتحدث عن نفسه ، وقد يخيب حديثه ، إذن المزعوم ألوهيته جاء بصيغة المتكلم لينفي تلك الألوهية ، والذي لم تزعم له الألوهية جاء بصيغة الغائب ليكون الله المتحدث عنه ، ومن ثم يعرف غيبه . ولأن يحيى ستصنع عنه أسطورة عجيبة أنه سجن ، ورقصت سالومي وطلبت من هيرودس رأس يوحنا ، فاستجاب لها وقدم لها رأس يوحنا على طبق من فضة . إن القرآن عندما يخبر عن يحيى بصيغة الغائب على لسان الله أنه سيموت ، فهذا يعنى أن تلك الأسطورة باطلة وأن يحيى قد مات ميتة طبيعة ولم تقطع رقبتة كما قيل . لهذا جاء الحديث عنه على لسان الله لينفي تلك المقولة ، لأنه لو جاء على لسان يحيى لقليل لا يعلم ما سيحدث له ، وأنه يتحدث على البدهي ، فالإنسان قبل أن يموت ، إذا تحدث عن موته يقول الموت ، ولا يدري هل يتم الموت بطريقة طبيعية أو بالقتل .

إذن جاءت صيغة المتكلم على لسان عيسى : لأنهم سيزعمون ألوهيته فنفي بلسانه أوقع . وجاءت صيغة الغائب على لسان يحيى : كان نفياً أقوى في الدلالة في حين أن يحيى لم يحدث فيه اختلاف .

**يَوْمٌ وُلِدَ** \* دعا الله له بالسلام المحقق في ثلاثة مواقف : أولها الولادة ، لأنه ولد لشيخ فان  
(١) سورة مريم : { وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } (٢٢)

، وعجوز عاقر ، فهي ولادة غير طبيعية ، لذلك جاءت الدعوة بالسلام لتقرر أن الأمر على أحسن ما يكون ، والأمر نفسه للمسيح عليه السلام : فقد تمت ولادته العجيبة في يوم من أيام الآخرة بكل ما تحمل الكلمة من معنى .

❁ استعمل الفعل ( ولد في الماضي ) لأن الولادة قد تمت ، واستخدم الفعل المضارع في يموت ويبعث لأنهما لم يتما بعد ، وهذا يعني أن يحي حتى وقت النبي ﷺ لم يمتم بعد . ولا نعلم شيئاً عما حدث له ، فليس أمامنا سوى قصة سالومي لتخبرنا بنهايته ، وهي قصة تتعارض مع القرآن الذي أسبغ عليه فيه رب العزة السلام فجعله يموت ، فلا يمكن أن يكون ذلك بالذبح بتلك الطريقة الدموية . فإن استبعدنا قصة سالومي لتعارضها مع القرآن ، يصبح ليس معنا معلومة عن موته ، حتى نعترض على القول بأنه لم يمتم ، بل لو استبعدنا قصة سالومي ، فهذا يطرح سؤالاً ، إن كانت قصة سالومي غير حقيقية ، فلماذا هي ؟؟ ولا إجابة إلا تغطية على الحقيقة التي لا بد أن تكون غريبة ..

أَيكون رفع للسماء قبل عيسى عليه السلام ؟؟ أَيْكون حدث معه ما حدث لإيلياء ؟؟ أَيْكون هو إيلياء ؟؟ .

أَيكون قد رفع ، وسينزل مع المسيح عليه السلام ليساعده في معركته ضد المسيح الدجال ؟؟ وَيكون مقابلة الرسول ﷺ لهما معاً في سماء واحدة في رحلة المعراج له مغزاه ، وأنهما معاً لأنهما في حالة مشابهة ؟؟

إني إن لم أملك الإجابة ، فلا أقل من أن أثير الأسئلة .. والآن .. لا يعني إلا أن لفظة يموت المستقبلية كانت تقال عنه بعد زمنه بأكثر من ستمائة سنة ، فهذا معناه أنه وقتما قالها الله ﷻ لم يكن قد مات . ولو كانت القولة على لسان يحيي نفسه لقلنا أن يحيي يخبر عن نفسه الآن وأن الموت سيأتي في موعده .

• إن الله ﷻ إن يدع لأحد بالسلام فقد تحققت الدعوت بدعوتها ، مثلما فعل مع أبي لهب لما دعا عليه رداً على دعوة أبي لهب على النبي ﷺ : فقال : تبث يد أبي لهب ، وتب .. أي وقد حدث . ولا يمكن أن يدعو الله له بالسلام ويحدد ثلاث أوقات لذلك ، ثم يكون إحداها هو موعد يحيي مع معكوس السلام ، فلا يمكن أن يموت إلا ميتة ربه .

❁ وَيَوْمَ يَبْعَثُ حَيًّا ❁ الموضوع الثالث للسلام هو يوم البعث : قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن .

## يحيى لم تقطع رأسه

سالومي ، اسم شهير يجذب آلاف الكتاب للكتابة عنه ، لأنها صاحبة أشهر رقصة في التاريخ ، تلك الرقصة التي راح ضحيتها رأس يوحنا المعمدان (يحيى) ، عندما قدمه الملك هيرودس زوج أمها لها على طبق من فضة . لم تذكر الأناجيل اسم سالومة ، لكن ذكره يوسسفسوس .

القصة هل هي حقيقية ؟ أم أنها خيال ؟ لقد قالت الأناجيل أن هيرودس قطع رأس يوحنا ، بينما القرآن الكريم يقرر أن يحيى مات ميتة طبيعية . والرأي الذي يخرج من مصدر ديني يظل مقدساً إلى أن يناقضه مصدر ديني آخر ، هنا تكون دراسة القضية هي الطريق إلى الحقيقة .

جاء القرآن الكريم بعد الأناجيل ، ويدري أنها قالت بأن رأس يوحنا قطعت وقدمت لراقصة على طبق من فضة ، ومع ذلك لم ينسق مع القصة الشائعة ، واتجه اتجاهه الخاص . وثمة فرق بين أن تقول رأياً في أمر لم يقوله أحد من قبل ، وأن تقول برأى مخالف في قضية منتشرة مئات السنين . إن قرار الانصراف عن الرأي الشائع له وجهته إذا لم يكن لك مصلحة في مخالفته .

والقرآن يقرر أن يحيى لن يقتل ، ولكنه سيموت :

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم) .

وهذا الإخبار عنه بالموت لم يرد على لسان يحيى حتى نقول دعاء قد يتحقق أو لا يتحقق ، ولكنه جاء تقريراً من الله ﷻ ، ومن ثم فهو سيموت قطعاً ولن يقتل . وقد يقول قائل : إنما القتل موت . ونرد عليه بأن القرآن لا يخلط بين القتل والموت بدليل تفريقه بينهما باستخدام أداة

العطف ( أو ) (١) : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران) ﴿١٤٤﴾

(١) وانظر أيضاً الآيات : ﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ (آل عمران) ﴿١٥٦﴾

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُم لِمَعْفَرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران) ﴿١٥٧﴾

﴿وَلَيْنَ مُتْتُم أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران) ﴿١٥٨﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٨﴾﴾ (الحج) ﴿٥٨﴾  
 ﴿قُلْ لَن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَسْعَوْنَ إِلَّا لِقَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ (الأحزاب) ﴿١٦﴾

وبناء عليه فإن يحيى عليه السلام وعيسى عليه السلام كلاهما يموت ميتة طبيعية لأن القرآن أثبت لهما لفظة مات لا قتل :

﴿ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١٥) ﴿ (مريم) .  
 ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمِ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣٣) ﴿ (مريم) .

وإن كان الموت هي الميتة الطبيعية ، فإن القتل لا يعبر عنها بالموت لأنه يتم بتدخل خارجي ، ويشمل ذلك : الذبح ، والوئد ، والحرق ، فالحقيقة كلها قتل ، إن هي إلا أنواع من القتل : فقد أثبت القرآن الوئد للمدفونة في التراب فسمها (الموءدة) فلما تساءلت عن سبب ما حدث لها استعمل لفظ القتل: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴾ (٨) ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٩) ﴿ (التكوير) .

فقطعت الآية القول ، واعتبرت الوئد قتلاً ؛ لأنه أدى إلى الموت بطريقة غير طبيعية .

وقد يقول قائل : لكن القرآن قد استخدم لفظة (أو) التي تفيد مغايرين المتعاطفين عند القتل والصلب في قوله تعالى : ( وَمَا قُتِلُوا وَمَا صَلَبُوا ) (١) ، ( أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ) (٢)

والحقيقة إن المتأمل في الآية يكتشف أن الصلب نوع من القتل لأنه يؤدي إليه ، والدليل على ذلك أن ما حدث للمسيح عيسى بن مريم بزعمهم هو الصلب ، ومع ذلك هم يقولون : ( إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ) فرد القرآن عليهم بأنه لم يحدث معه هذا القتل ولا صعد إلى الصليب ، فقد يظن قائل أنهم صلبوه ، فأنتزعه الله من على الصليب ، فالقرآن هنا ينفي صعوده على الصليب من الأساس ، وأن من صعد على الصليب شخص آخر ، وقد أكد القرآن في نهاية الآية ذلك ، فجعل النفي للقتل : ( وَمَا قُتِلُوا يَقِينًا ) ولو كان الصلب غير القتل ، ما قالوا : ( إِنَّا قَتَلْنَا ) ولا قال الله ( وَمَا قُتِلُوا ) .

وقد يقول قائل والحرق يختلف عن القتل بدليل استخدام (أو) التي تفيد المغايرة بين القتل والحرق في مقالة أعداء إبراهيم :

﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ (١٤) ﴿ (العنكبوت) .

(١) ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قُتِلُوا وَمَا صَلَبُوا وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُخْلِفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قُتِلُوا يَقِينًا ﴾ (١٥٧) ﴿ (النساء) .

(٢) ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣) ﴿ (البقرة) .

والحقيقة إن الحرق أحد أنواع القتل ، وقد أرادوا قتلة أنكى عليه فتدرجوا من القتل العام إلى تخصيص أشد أنواع القتل وهو الحرق. وكذلك الذبح أحد أنواع القتل ، فالقرآن يعبر عن قتل فرعون لأولاد بني إسرائيل بالقتل والذبح . فالذبح يحدد طريقة القتل . والفرق كذلك : هو قتل .

إن يحيى في القرآن الكريم - إذن - لم يذبح ، بل مات ميتة طبيعية كما يقرر القرآن الكريم . بل أذهب إلى أبعد من ذلك أن لفظة يموت لا تعني الموت شهيداً ، لأن الشهادة تتم بالقتل ، وليس بالموت . فليس صحيحاً ما قيل : أنه سيموت شهيداً ليظل حياً ليتحقق فيه اسمه . وهنا نكون أمام قصة تحتاج إلى دفاع قوى لتصمد أمام الرأى القرآنى المعارض لها :

لماذا يأتي القرآن الكريم بعد القول بقطع رأسه ويصر أن يقرر أنه مات ولم يقتل ؟ إن الله ﷻ يثبت عليهم قتل الأنبياء ، فليس ثمة مشكلة أن يقول يحيى قد قتلوه ضمن من قتلوه ، لو كانوا فعلاً كذلك ، إذن لا يمنعه من إضافة يحيى إلى قائمة المقتولين إلا أن لا يكون كذلك .

إذن نحن أمام لفظة واحدة في القرآن تقرر أن يحيى لم يقتل ، وإنما مات . وإلى جوار ذلك اتهام اليهود بقتل الأنبياء ، ثم لا يضيف يحيى إلى قائمة المقتولين ، فلا مانع عنده من إضافته سوى ألا يكون قد قتل . وهنا نتجه إلى القصة المقابلة التي تقرر ذبح يحيى ، ونحن نطالبها أن تكون متسقة في ذاتها ، فإن لم تكن فإن الرأى الذى خالفها قد نجح في الإطاحة بها .

## ثانياً : قطع رأس يحيى في الأناجيل :

لم يذكر قصة ذبح يوحنا سوى إنجيلين فحسب هما : مرقس ومتى ، وأول عناصر القصة هو سجن يوحنا كما نرى في النصين :

مرقس : **٧** لِأَنَّ هِيرُودَيْسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ أَرْسَلَ وَأَمَسَكَ يُوْحَنَّا وَأَوْثَقَهُ فِي السَّجْنِ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلِبُّسِ أَخِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا.

متى **٣** فَإِنَّ هِيرُودَيْسَ كَانَ قَدْ أَمَسَكَ يُوْحَنَّا وَأَوْثَقَهُ وَطَرَحَهُ فِي سَجْنٍ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلِبُّسِ أَخِيهِ،

تتفق الروايتان في أن هيرودس سجن يوحنا من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه . وهو سبب عجيب لأن الشريعة تفرض ذلك ، لا العكس . كما فرض يهوذا على ابنه أونان أن يتزوج امرأة أخيه راعوث ليقم لأخيه نسلاً<sup>(١)</sup> . فأنت بين أمرين : أن يكون الأخ قد مات وهنا لا يكون ثمة

(١) سفر التكوين : الإصحاح (٣٨) : السطر (٨) .

مشكلة في الزواج ، بل هذا هو ما تقرره الشريعة اليهودية ، ويكون يوحنا افتعل مشكلة دون جدوى . أو يكون الأخ على قيد الحياة ، وقد خطفها أخوه هيرودس أنتيباس عندما كان في زيارة له ، وهنا تتساءل لماذا سكت الأخ على اختطاف زوجته ، وتركها تعيش مع غيره ومعها ابنته ، إن سكوت الزوج قد يرجع إلى :

- أنه ميت ، ولو كان كذلك فلا مشكلة في الزواج ، ويكون يوحنا مخطئاً .
- ليس ميتاً ، لكنه لا يمكنه أن يفعل شيئاً أمام أخيه الملك ، وهذا غير صحيح ، لأنه كان ملكاً مثل أخيه كما ذكر لوقا في إنجيله . **اوهيرودس رئيس ربّ على الجليل ، وفيلبس أخوه رئيس ربّ على إيطورية وكورة تراخونيتس** ،<sup>(١)</sup> .
- ألا تكون القصة قد حدثت من الأساس .

وقطعاً أن يوحنا لن يثير مشكلة لو كان الأخ ميتاً ؛ لأن الأخ لا يخرج عن الشريعة لو أخذ امرأة أخيه المتوفي ، بل توجب عليه الشريعة أن يفعل ذلك ، فليس أمامنا إلا أنه كان على قيد الحياة ، وهنا لا نجد له عذراً في سكوته على استلاب زوجته مادام ملكاً ، إلا أن لم يكن ملكاً ويكون ثمة مشكلة في قول لوقا **( وفيلبس أخوه رئيس ربّ )** .

وقد ذكر تفسير الكتاب المقدس بأن هيروديا كانت زوجة لفيلبس آخر ليس رئيس الربّ، ولو صدق ذلك ، فهي لم تكن امرأة أخيه . ويكون التفسير قد خالف الإنجيل مخالفة صريحة ، فهل حقاً خالف التفسير الإنجيل ؟ لا ، لم يفعل ، لكنه صعب الأمر ، فقد قال أنها كانت زوجة لفيلبس آخر ليس رئيس الربّ ، لكنه في الوقت نفسه أخو هيرودوس ، وأيضاً أخو لفيلبس ، أي أننا عندنا أخوان ، كلاهما يحمل الاسم نفسه ، أحدهما ملك ، والآخر ليس ملكاً ، وهي كانت زوجة للذي لم يكن ملكاً . إذن هي امرأة لفيلبس أخو هيرودوس ، لكنه ليس لفيلبس رئيس الربّ الذي هو أيضاً أخو هيرودوس . وبرغم غرابة الأمر إلا أنه يعلل لسكوت الأخ لأنه ليس ملكاً مثل ذلك الذي يحمل اسمه . لكن كان يجب على النص أن يحدد أي الفيلبيين كانت هيروديا امرأته تحقيقاً للدقة .

ولا ينته الأمر عند ذلك ، لأنك قد لا تعلم أن هيروديا المتنازع عليها ابنة أرسطوبولس أخو فيلبس هذا وفيلبس ذاك ، وأخو أنتيباس ( الذي هو هيرودس قاتل يوحنا ) ، أي أن تلك الفتاة هيروديا بنت أرسطوبولس تزوجت بعمها فيلبس الذي ليس ملكاً ، ثم تطرده وهي على ذمته لتعشق عمها الثاني أنتيباس ( هيرودس ) ، وتقدم ابنتها لترقص شبه عارية أمام الملك الذي هو : زوج أمها ، وفي الوقت نفسه عمها وعم أمها ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، فبعد أن ترقص الفتاة أمام الملك ويعجب بها ويحقق لها مطلبها ، يتقدم لها فيلبس الثاني رئيس الربّ ليتزوجها . وبذلك

(١) لوقا ، : الإصحاح (٣) : السطر (١) .

نحن أمام أربعة إخوة : أرستوبولس ينجب هيروديا ، فيتقدم أخوه فيلبس الذى ليس ملكاً ليتزوج ابنة أخيه هيروديا وينجب منها سالومي ، وهنا يأتي دور الأخوين الآخرين : هيرودس ، وفيلبس الملك ، فالأول يتزوج بهيروديا ، والثاني : يتزوج بابنتها سلومي .

لا تستغرب ، فأنا مثلك كأننا أمام فيلم هندي . إذن أنت أمام الأب أرستوبولس : ينجب ابنته هيروديا . تتزوج عمها فيلبس الذى ليس ملكاً ، وتتجب منه سالومي . ثم تهرب لتعيش مع عمها الثاني وهو في الوقت نفسه أخو زوجها ، أما ابنتها ، سالومي : فجدها هو أرستوبولس ، وأبوها هو فيلبس الذى ليس ملكاً أخو جدها ، وقد رقصت أمام الأخ الثالث لجدها هيرودس وطلبت منه بدلال رأس يوحنا فاستجاب لها ، ثم تزوجت بالأخ الرابع فيلبس الملك . فالأخوة الأربعة : أحدهم جدها ، والآخر أبوها ، والثالث ترقص أمامه ، والرابع تتزوجه .

وفي رواية " مرقص " زيادة عجيبة هي قوله ( **إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا** ) لأن هيروديا إن كانت امرأة فيلبس مازالت ، فلا يصلح أن نقول وهي كذلك إن هيرودس قد تزوج بها ، لأن الشريعة اليهودية تمنع ذلك : **(٢١) وَإِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً أَخِيهِ فَذَلِكَ نَجَاسَةٌ قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَكُونَانِ عَقِيمَيْنِ** <sup>(١)</sup> . فلا يمكنه أن يتزوجها مع وجود مانع شرعي ، وهما من البيت الملكي اليهودي الذى لا يمكنه مخالفة الشريعة التى تضمن لهم الملك ، وطاعة الشعب . فالولى أنها عاشت معه في قصره دون زواج ، وقد قال تفسير الكتاب المقدس إن يوحنا قد أدانها لأن هيروديا قد هجرت فيلبس زوجها لتعيش مع هيرودس ، وقد أدانها يوحنا المعمدان لأجل هذا الفجور <sup>(٢)</sup> .

إننا نجد أنفسنا أمام طرق مسدودة مع كل الاحتمالات :

- **زوجها قد مات** : لا مشكلة ، فالشريعة تنص أن يخلف الأخ أخاه على زوجته .
- **زوجها لم يموت** : إن كان ملكاً لا بد أن تشب حرب . وسنصطدم بأن فيلبس رئيس الربع يكون قد تزوج سالومي ابنة هيروديا كما يقول المؤرخون . أى يكون قد تزوج ابنته .
- ولم يكن ملكاً فإن هذا يخالف ما قاله القديس لوقا ، فإن وصلنا إلى حل وسط وقبلنا الرأى القائل بأن هيرودس الكبير له ولدان يحملان الاسم نفسه ، أحدهما ملك والآخر غير ملك ، فإن هذا يعنى أنه لا يجوز أن يتزوج امرأة أخيه كما تنص الشريعة ، وهذا يخرج قول " مرقص " خطأً لأنه قطع بأن هيرودس كان قد تزوج بها .

(١) سفر اللاويين : الإصحاح (٢٠) : السطر (٢١) .

(٢) أمر أشبه بخطف باريس لهيلانة في قصة حرب طراودة .

إن القول بأن الملك سجن يوحنا بسبب هيروديا امرأة فيلبس أخيه لا تقيد أن الموضوع يخص هيرودس ، فكأنه تناول على امرأة أخيه فغضب هيرودس من أجل ذلك فسجنه ، وهذا غير صحيح ، فيوحنا يقرر أنها لا تحل له ، فالأمر يمسه هو أيضاً ، فهو إن يسجن يوحنا يسجنه من أجل نفسه قبل امرأة أخيه . أما قولة يوحنا نفسها : «لَا يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ امْرَأَةٌ أُخِيكَ» تقال قبل الواقعة لمنعها ، وليس بعدها ، فبعدها الأجدر أن تتدد بفعل الزنا ، لأن تقول : لا تحل لك .

وقد اختلف الإنجيلان تماماً في ردة الفعل الصادرة من البيت الملكي تجاه قولة يوحنا ، فمرقص يرى أن هيروديا حنقت عليه وأرادت قتله ، أما متى فيرى أن هيرودس هو الذي أراد قتله .

**رواية مرقص : ١٩ فَحَنَقَتْ هِيرُودِيَّا عَلَيْهِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَهُ وَلَمْ تَقْدِرْ، ٢٠ لِأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يُوْحَنَّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقَدِيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ وَإِذْ سَمِعَهُ، فَعَلَّ كَثِيرًا، وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ. (١)**

**رواية متى : ٥ وَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ خَافَ مِنَ الشَّعْبِ، لِأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيِّ (٢).**

فالراغب في قتله عند مرقص هو هيروديا ، والراغب في قتله عند متى هو هيرودس، وقد نحاول التوفيق بين الرأيين فنقول بأن كليهما راغب في قتله ، لكنك ستجد في رواية مرقص : ما ينفي رغبته في قتل يوحنا ، مما يعني أن مرقص يرى أن هيروديا تريد وحدها قتل يوحنا ، ولا يمنعها سوى هيرودس لأنه يهابه ، ويحفظه ويسر به .

والعجيب أن متى يذكر هنا أن الملك هو الذي أراد قتله ، ثم بعد ذلك يعرض لنا أن هيروديا لقنت ابنتها أن تطلب رأس يوحنا مما يعني أنها هي التي تريد قتله ، وأن هذا الطلب أصاب الملك بغم وحاول ألا يجيب الابنة لطلبها لولا الأقسام أمام الحاشية . وبذلك نرى أن متى لو صدق هنا ، اعترض على نفسه هناك . فهو لا يتابع مرقص في قوله أن الراغب في قتل يوحنا هو هيروديا ، ولكنه يتجه إلى جعل هيرودس هو الراغب في قتل يوحنا ، ثم لا يلبث أن يبين أن الملك الراغب في قتله هذا قد اغتم عندما طلبت الابنة بناء على توجيه أمها منه قتله .

أما رواية مرقص فأشدّ عجباً لأنه يقدم لنا هيرودس يوثق يوحنا في السجن لأجل امرأته ، ثم يقف حجر عثرة دون محاولتها قتله لأنه كان يهابه ويعلم أنه بار وقديس . ولو صدقت مشاعره تلك نحو يوحنا ، وأنها دفعته ليقف دون امرأته في محاولتها قتله ، فلا يمكن أن يكون قد سجنه . فلا يمكن أن يتطوع الملك لإرضائها بسجن يوحنا ، ثم عندما تحاول أن تقتله وهو في السجن لا تقدر لحب زوجها وتقديره له .

(١) مرقص : الإصحاح (٦) : السطران (١٩ / ٢٠) .

(٢) متى : الإصحاح (١٤) : السطر (٥) .

إن قول مرقص (لأنَّ هيرودسَ كَانَ يَهَابُ يُوْحَنَّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقَدِيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ وَإِذْ سَمِعَهُ، فَعَلَ كَثِيرًا، وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ) هو تعليل لقوله (أَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَهُ وَلَمْ تَقْدِرْ) مما يعنى أن هذا موقف الملك بعد سجن يوحنا ، وأن الملك لم تكن له علاقتان بيوحنا واحدة قبل سجنه وأخرى بعد السجن ، لأن هذا تعليل لعدم قدرتها على قتل يوحنا وهو في السجن مما يعنى أن مشاعر الملك تجاه يوحنا لم تتغير .

وكما اختلفت الروايتان في تحديد الراغب في القتل ، كذلك اختلفتا في تعليل عدم القتل ، فمرقص يرى أن المانع هو هيرودس نفسه : أي أن هيروديا تريد قتله ، ولا يمنعها إلا هيرودس ، أما متى فيرى أن هيرودس هو الذي يريد قتله ، ولا يمنعه سوى تقديس الشعب ليوحنا وأنه عندهم مثل نبي .

**رواية مرقص :** • هيرودس نفسه هو المانع لأنه يقديس يوحنا .

**رواية متى :** • المانع هو تقديس الشعب له .

الكلام السابق يفيد أن هيرودس لم يسجن يوحنا .

• ذكر مرقس زيادة هي عشاء العظماء وقواد الألوف ووجوه الجليل .

• ابنة هيروديا ترقص ، فما سعادة زوج الأم برقص صبية هي ابنة أخيه وابنة زوجته ؟ فما الذى يجعل هذه الفتاة برقصها تسلب لب هذا الملك ؟ ولو كانت كذلك لكانت خطراً على أمها . وما حرص هيرودس على الزواج بامرأة متقدمة في السن بدليل أن لها ابنة قادرة على هذا الرقص المثير ؟

وننتقل إلى نقطة أخرى هي رقصة سالومي ، يقول مرقص أنها برقصها سرت هيرودس والمتكئين معه . أما متى فيكتفى بقوله بأنها سرت هيرودس .

**مرقص :** ٢٢ دَخَلَتْ ابْنَةُ هِيرُودِيَا وَرَقَصَتْ، فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ وَالْمَتَكِّينَ مَعَهُ.

**متى :** ٦ رَقَصَتْ ابْنَةُ هِيرُودِيَا فِي الْوَسْطِ فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ.

فهل كان هيرودس وحده أو معه أحد ؟ قد يقول قائل لكنه يوم ميلاده ، وهذا يجب أن يكون فيه جمعٌ يشهد الاحتفال بيوم الميلاد ، لكن يوم الميلاد طويل ، وكثيراً ما خلا الاحتفال بعيد ميلاده بعد الحفل بامرأة يمارس معها الحب ، فهل رقصت له أثناء الحفل في وجود المتكئين ، أم رقصت له وحده بعد أن خلا المكان ؟

• إن كانت الأولى ، فالأمر غير قوي :

- لأن الإثارة الجنسية يجتهد الإنسان في كتمها عند وجود الناس معه .
- ذكر "متى" أنها عندما رقصت سرت هيرودس .
- إن كانت الثانية ( لا يوجد متكئون ) فهذا يعنى وجود جريمة جنسية بين الصبية وزوج أمها ، ويدعم الرأي ما يأتي :
- لم يذكر "متى" لفظة " المتكئين " عند حدوث السرور والرقص .
- الأقوى في الطلب ليس الرقص أمام الناس ، بل أن تكون له وحده .
- حملت البنت قبل أن تدخل إلى الرقص طلبها من الملك وهو طلب شديد ، لا يمكن أن يتم إلا إذا وصلت شهوة الرجل إلى أقصاها ، ولا يمكن أن يتم ذلك بالرقص أمام جمع من الناس لاستثارة واحد منهم .
- ليس ثمة ما يمنع أن تتم جريمة زنا بين الرجل والصبية ، تدبرها الأم ، تلك الأم التي تعيش مع عمها في الحرام بعد أن هجرت زوجها ، وأجبرت عمها على طلاق زوجته ، وليس عند الملك ما يمنعه من أن يرتكب الزنا مع فتاة وقد ارتكب الزنا مع أمها .
- ويبدو أن الأم دفعت ابنتها إلى فراش عشيقها ، لأنها تثق من قدرات الصبية على سلب لب العجوز المتصابي المحب للشهوة ، وأوصتها إذ تمكنت منه أن تطلب منه هذا الطلب ، وهي واثقة أنه سيستجيب لما تعرف عنه من استثارة جنسية تعجز أن تقاوم نار الشهوة التي تشعلها الصغيرة برقصها المثير له وحده في مخدعه .
- نحن بين أمرين كالعادة:
- لم يكن الملك معه أحد كما قال " متى " ، فهي جريمة زنا ، وهو أمر لا غير مستبعد من أناس يغرقون في الدنس .
- كان الملك معه ضيوف .. كما قال مرقص .. فلا يمكن أن يؤثر رقصها فيه .
- يقسم الملك للصبية أنها مهما طلبت ليعطينها حتى لو طلبت نصف مملكته ، وهو قسم يذكرنا بما في أساطير زيوس ، عندما طلبت منه سميلي أن يقسم بالقسم المقدس ، فأقسم ، فطلبت منه أن يأتيها بكل أبهته التي يذهب بها إلى هيرا ، ولأنه أقسم لم يستطع أن يتراجع ، وكان هذا يعنى احتراق الفتاة لأنها لن تتحمل رؤية جلاله .
- ٧. أقسم لها أن يعطيه طلبها ، لكن عند مرقص زاد ( أعطيك حتى نصف مملكتي ) إن هذا

العرض يمكن أن يعرضه ملك في مقابل شيء ملح يريده ، لكن ما الذي يريده الملك ؟ يريدنا أن نطلب ، ويعرض عليها إغراء لكي يدفعها لتحقيق ما يتمناه وهو أن نطلب ، ما الذي يدفع الملك لإغراء الفتاة بنصف المملكة لكي نطلب ؟ وما الذي يخسره لو لم نطلب حتى يعرض هذا العرض السخي ليمنع الخسارة ؟

وتعود الروايتان للاختلاف بشأن طلب سالومي لرأس يوحنا ، فمرقص يجعلها تخرج تسأل أمها ماذا نطلب من الملك الذي أعلن أنه سيعطيها ما نطلب . والثاني يجعلها قبل أن تدخل تعرف ماذا نطلب دون حاجة إلى خروج ودخول . وأحد الأمرين لا بد ألا يكون صحيحاً ، فلا يمكن أن تكون قد خرجت وسألت أمها ، وفي الوقت نفسه لا تخرج لأنها ليست بحاجة إلى الخروج لأن أمها قد لقنتها ما نطلب قبل الرقص !

رواية مرقص : ٢٤ فَخَرَجَتْ وَقَالَتْ لِأُمِّهَا : «مَاذَا أُطَلِّبُ؟» فَقَالَتْ : «رَأْسَ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانَ» .  
٢٥ فَدَخَلْتُ لِلْوَقْتِ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْمَلِكِ وَطَلَبْتُ قَائِلَةً : «أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِي حَالًا رَأْسَ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانَ عَلَى طَبَقٍ» (١) .

رواية متى : ٨ فَهِيَ إِذْ كَانَتْ قَدْ تَلَقَّنَتْ مِنْ أُمِّهَا قَالَتْ : «أَعْطِنِي هَهُنَا عَلَى طَبَقِ رَأْسِ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانَ» (٢) .

ونحن أمام الاختلاف بين الراويين بين أمرين :

• **قد خرجت** : أمر لا يعقل للأسباب الآتية :

١- ليس من اللائق أن تخرج الصبية من حضرة الملك دون أن تجيبه اللهم إن استأذنته قائلة : أسأل أمي ! .

٢- هذا التصرف يقبل من طفلة ، وليس من أنثى تجيد الرقص حتى تجعل الملك يعرض أن يتنازل لها عن نصف ملكه ، ولذلك نحن أمام تناقض زمني ، جزء يعرض الصبية فتاة تعرف ماذا تفعل ، وجزء يعرضها طفلة غرة تتصرف بسذاجة ، وهذا يجوز في التأليف المسرحي ، لكن الشخص العادي يتسق مع نفسه ، فيعرض نفسه بصورة متحدة .

٣- إن الاحتفال بعيد الملك لا بد أن تكون هيروديا موجودة فيه ، وهي الشخصية

(١) مرقص : الإصحاح (٦) : السطران (٢٤ / ٢٥) .

(٢) متى : الإصحاح (١٤) : السطر (٨) .

القوية في القصر التي أطاحت بسيدة القصر لتحل محلها دون زواج ، فلا يمكن أن يتم الاحتفال بعيد ميلاد الملك ولا تكون على رأس الحضور ، إذن الملكة بالداخل ، فما حاجة الصبية إلى الخروج لسؤالها ؟

٤- إن في خروجها ودخولها منجاة له من طلبها الذي أصابه بالحزن الشديد ، يمكنه أن يعتمد الغضب أنها تركته وخرجت ، أو أنها أضاعت فرصتها بخروجها .

٥- وهل يظل الملك بشهوته المثارة عند خروجها ؟؟

٦- هذه القصة تذكر بقصص بابلية تحديداً قصة سمير أميس ، التي أعجب الملك برقصها ، فطلب منها أن تطلب ما تشاء ، فطلبت .

• **لم تخرج** : طبقاً لرواية "متى" ، فهذا يعنى اتساق القصة مع أن الأمر خلوة جنسية دبرتها الأم ، وكانت الابنة مع الملك وحدهما ، وقد دفعته الأم لمهمة مقدسة ، تقابل فيه بجسدها لتحقيق هدفاً غالياً لها هو الإطاحة بيوحنا الذي يؤلب الناس عليها . حتى إذا نجحت في مهمتها ، وسيطرت بجسدها على سيد القصر ، طلبت منه الهدف الذي جاءت من أجله ، فهي تعرفه قبلاً ، وحضرت من أجله ، وتدري أن ما تفعله الآن يوصل إليه . يعنى أن الأم قد وثقت من قدرات ابنتها الجنسية فلقنتها الطلب وأرسلتها على زوجها الذي تدري باستجابته لغرائزه الجنسية .

القصة بذلك لا تخرج عن قصص توراتية عدة ، منها ما فعلته راعوث عندما دخلت على الرجل .. وما فعلته أستير ..

فنحن بين أمرين لا ثالث لهما : إن صدق مرقص ، فالقصة من تأليف مؤلف مسرح لم يستطع أن يعيش بناء الشخصية ، وأن يتخيل نفسه مكان أبطاله . وإن صدق متى : فالأمر خلوة جنسية مدبرة من الأم تضحي فيها بابنتها من أجل الانتقام .

ثمة نقطة أخرى : في نص مرقص تلقن الأم ابنتها أن تطلب رأس يوحنا المعمدان في صيغة نصية : **فَقَالَتْ: «رَأْسَ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ»**. فتدخل الابنة لتقول : على طبق ، وهي زيادة من عند الفتاة : وكالعادة فالأمر لا يخلو من أحد أمرين :

• الأم ذكرت لفظة طبق ، ونسي الراوي أن يثبتته ، ثم استدرك خطأه وذكره على لسان الصبية .

• الأم لم تذكر لفظة طبق ، وزادتها الفتاة من عندها لأنها أرادت أن تعطي الرأس لأمها ولا

تخرج من المولد بلا شيء فطلبت الطبق .

كلتا الروائيتين تؤكد أن الأم وراء اغتيال يوحنا المعمدان ، فعند مرقص تخرج الصبية تسأل أمها ، وعند متى تدخل الابنة ملقنة من أمها بالطلب نفسه . ويتلقى الملك طلب الصبية بغم أو حزن شديد ، وهذا الغم من الملك يتنافى مع رواية متى سابقاً بأنه حاول أن يقتل يوحنا (لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ خَافَ مِنَ الشَّعْبِ)<sup>(١)</sup> ، وهذا يعني أنه لو صدق متى في هذا السطر لكان خطأ في السطر السابق ، والعكس صحيح .

أما لماذا تحرك الملك المغموم لتنفيذ طلب يحزنه ، فقد أرجعت الروائيتان ذلك إلى أقسامه أمام المتكئين ، وهذا لا غضاضة فيه عند مرقص الذي ذكر من البداية أنها سرت برقصها هيروودس والمتكئين ، أما متى فقد أفرد الملك وحده عند الرقص ولم يذكر أحداً معه (فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ) .

من العجيب أن يخشى الملك الشعب لو قتل يوحنا سراً ، ثم لا يخشاه وهو يقتل أمام الجموع . إن المنطقي أن لا يقبل طلبها أمام المتكئين ، أي أن يمنعه وجودهم من تنفيذ الطلب ، وأليس في المتكئين رجل رشيد يعترض على ذلك ؟ وإن لم يكن فيهم أحد ذو بال فلم يعمل لهم حساب ، وينفذ الوعد بسبب وجودهم . فهم إما رجال أولو مكانة ، فيجب أن يخشى أن تتم تلك الجريمة جهاراً أمامهم ، وإما غثاء لا يأبه لهم فكان يجب ألا يحفل بوجودهم .

مرت الحادثة دون أدنى رد فعل وكأنها لم تحدث ، ثمة موقف يكشف موقف الناس من يوحنا عندما تقدم رؤساء الكهنة إلى المسيح يسألونه بأى سلطان يفعل هذا ؟ فسألهم : معمودية يوحنا من أين كانت ؟ من السماء أم من الناس ؟ ففكروا في أنفسهم قائلين : إن قلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به ؟ وإن قلنا من الناس نخاف من الشعب لأن يوحنا عند الجميع مثل نبي فأجابوا يسوع وقالوا لا نعلم ﴿ متى ٢١ : ٢٧.٢٥ .

وهذه الحادثة ذكرها مرقص ﴿ مرقص ١١ : ٢٢.٢٠ . ولوقا ﴿ لوقا ٢٠ : ٤ . وكلتاها توضح الخوف من غضب الشعب لو قيل أن معمودية يوحنا لم تكن من السماء ، مجرد التشكيك في نبوته تجعل رؤساء الكهنة خائفين من الشعب ، فهل تقديم رأسه على طبق لا يثير الشعب الذي لا يحتمل التشكيك في نبوته ؟؟؟

ولو أراد الملك أن يقتل النبي لقتله بوسائل عديدة وأدعى موته حتى لا يثير الشعب عليه ، لكن أن يقتله ويقطع رأسه ويقدمه على طبق لابنة زوجته التي لا تجوز له فهو أمر ميلودرامي شديد

(١) متى : الإصحاح (١٤) : السطر الخامس .

المبالغة يتعامل مع الشعب على أنه غير موجود .

أما الأقسام فشأنها عجيب ، فلا حاجة للملك أن يقسم ، إن هي إلا استحضارة أسطورة زيوس وسميلي . وأي الفريقين أحق أن يراعيه الملك : الشعب الذى خاف قبلاً أن يقتل يوحنا بسبب أنه عندهم كأنه نبي . أم المتكئون الذين لم يحفل أن يشاهدوه يستمتع برقص حفيدته . إنهم لا خطر منهم ، أما الشعب الذى خافه فما زال كما هو .

لم يصدر من الشعب أى شيء مما خافه قبلاً هيروودس إن هيروودس قدّر أن هناك شعباً ولم يكن تقديره صحيحاً . وخاصة أنه قدر أن يثور الشعب من مجرد قتل يوحنا الذي كان يمكن أن يتم في خفاء ، ويتسع الاشتباه ، ومع ذلك وجدناه يفعلها علناً وذبحاً وتتسب له ، ثم لا يصدر أي موقف وكأن الأمر لم يحدث ، أو الشعب لم يكن . وكأننا بين أحد أمرين : لم يكن ثمة شعب وقتها ، أو أن القصة لم تحدث أساساً .

هذا النص يكشف أن الأم من البداية هي التي تريد قتل يوحنا ، لا الملك . مما يعنى أن ما قاله "متى" أن الملك هو الذي يريد قتله ، ولكنه يخاف الشعب لأنه عندهم مثل نبي غير صحيح ، لأنه لم يتورع عن قتله ببساطة ، ولم يحفل بأى رد فعل .. ولم يفعل أحد شيئاً لمقتل يوحنا . ولو كان الملك يريد قتله فعلاً لفعل مثل أكثر الملوك الذين يقتلون خصومهم في السجن بالسم أو غيره ، دون أن يبدو أنهم قاتلون ، لكن الملك يقتله ذبحاً وجهاراً ، وأمام الجموع ، والسياف يحمل الرأس من السجن إلى القصر ، ويأتى بالرأس إلى الملك أمام الجميع . لو كان يخاف أن يقتله ما قتله بتلك الطريقة .

وبعد استجابة الملك لطلب الصبية يأتى دور السياف الذي يؤمر بقطع رأس يوحنا ، فيفعل ويأتى بالرأس ، ومن تلقاء نفسه يعطيها إلى الصبية دون أن يأمره الملك بذلك ! ولا ندري كيف يتصرف السياف من تلقاء نفسه ؟ كان يجب عليه أن يحضر الرأس ، فيقول له الملك : أعط الرأس للصبية ، وقد تلافى "متى" هذا الأمر غير اللائق من السياف الذي يبدو أنه لم يعيش في قصر ملوك من قبل ، وأنه شخصية ورقية ، فلا يفهم ما يجب عمله ، وتصرف كأنه المهيمن في المكان برغم وجود الملك . وقدم الرأس للصبية التي قدمته بدورها إلى أمها ولا ندري ما حاجة الأم لأن تحوز الرأس ، إذ يكفيها أن ترى الرأس مقطوعة ليتحقق لها التخلص مما يقلقها .

الملك لم يطلب من السياف أن يحضر طبقاً ، لكنه يحضر الطبق ، وكان المتوقع أن يفعل ما أمر به ، فإذا جاء بالرأس أمر الملك خادماً آخر أن يحضر له طبقاً وأن تقدم الرأس عليه للصبية .

وتختتم القصة بإخبار المسيح ، ونؤكد أن المسيح لم يُخبر بشيء ، فقد خلط متى بين تلاميذ المسيح وتلاميذ يوحنا ، تختلف الروايتان في تفسير لفظة (التلاميذ) ولننظر إلى النصين :

رواية مرقص : ٢٩ وَلَمَّا سَمِعَ تِلَامِيذُهُ، جَاءُوا وَرَفَعُوا جُثَّتَهُ وَوَضَعُوهَا فِي قَبْرِ (١).

رواية متى : ١٢ فَتَقَدَّمَ تِلَامِيذُهُ وَرَفَعُوا الْجَسَدَ وَدَفَنُوهُ، ثُمَّ أَتَوْا وَأَخْبَرُوا يَسُوعَ (٢).

لفظة التلاميذ في النص الأول ( طبقاً لرواية مرقص ) تعود على تلاميذ يوحنا الذين رفعوا جثة أستاذهم ووضعوها في قبر .

رواية مرقص : ٢٩ وَلَمَّا سَمِعَ تِلَامِيذُهُ، جَاءُوا وَرَفَعُوا جُثَّتَهُ وَوَضَعُوهَا فِي قَبْرِ (٣).

أما قوله في السطر التالي :

٣٠ وَاجْتَمَعَ الرَّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا. ٣١ فَقَالَ لَهُمْ: «تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ وَأَسْتَرِيحُوا قَلِيلًا».

فهي تتحدث عن رسل المسيح الذين أرسلهم في البلاد، فخرجوا وكرزوا، وأخرجوا شياطين كثيرة، فسمع بهم هيرودس الملك وتساءل عن من يكون وراء هؤلاء التلاميذ، وظن أنه لا يكون سوى يوحنا، قد قام من الأموات (٤). وهنا يعرض مرقص قصة يوحنا، ليس لأنها تحدث الآن، ولكن على سبيل الشيء بالشيء يُذكر، وبعد أن يحكيها كاملة، حتى حضور تلاميذ يوحنا لدفنه في القبر، يعود بعد ذلك لاستكمال حكاية تلاميذ المسيح الذين سمع بهم هيرودس فتوهم أن قائدهم هو يوحنا الذي قطع رأسه، وحكى قصته كجملة اعتراضية بين قوسين، وبعد أن انتهى من حكاية قصة يوحنا، واصل سرد قصة تلاميذ المسيح الذين عادوا إلى المسيح ليخبروه بكل ما عملوا من أعمال بهرت هيرودس نفسه .

إذن فنحن عندنا فريقان من التلاميذ :

- تلاميذ يوحنا رفعوا جثة أستاذهم ودفنوه في قبر .
- تلاميذ المسيح عادوا من رحلتهم ليحكوا للمسيح عما صنعوه .

فالتلاميذ الذين عادوا للمسيح لم يكونوا يحكون له عن قصة يوحنا، بل عن أعمالهم التي كلفهم بها، أما يوحنا، فلم تكن قد حدثت وقتها، بل حدثت قبلاً .

(١) مرقص : الإصحاح (٦) : السطر (٢٩) .

(٢) متى : الإصحاح (١٤) : السطر (١٢) .

(٣) مرقص : الإصحاح (٦) : السطر (٢٩) .

(٤) انظر مرقص، الإصحاح (٦) : السطر (من ٧ : ١٦) .

أما النص عند متى فهو يخلط بين الفريقين من التلاميذ ، فيجعلهم فريقاً واحداً : ١٢ فَتَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَرَفَعُوا الْجَسَدَ وَدَفَنُوهُ ثُمَّ أَتَوْا وَأَخْبَرُوا يَسُوعَ<sup>(١)</sup> .

لاحظ تلاميذه تعود على تلاميذ يوحنا . لأنهم الذين رفعوا جسد أستاذهم ، أما حضورهم لإخبار المسيح ، فهؤلاء ليسوا تلاميذ يوحنا ، بل تلاميذ المسيح الذين أرسلهم ليكرزوا :  
١٠ وَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُلُ أَخْبَرُوهُ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوا ، فَأَخَذَهُمْ وَأَنْصَرَفَ مُنْفَرِداً إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ لِمَدِينَةٍ تَسْمَى بَيْتَ صَيْدَا<sup>(٢)</sup> .

انظر إلى قوله (أَخْبَرُوهُ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوا) فالحديث هنا عن رسل المسيح لا تلاميذ يوحنا . ولم يخبروه بما حدث ليوحنا ، بل أخبروا بما فعلوا في مهمتهم التي أرسلهم إليها .  
والأمر نفسه عند مرقس :

٣٠ وَاجْتَمَعَ الرَّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا .

انظر إلى قوله (وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا) أيضاً الحديث عن رسل المسيح ، وعمما فعلوا في رحلتهم .

إن تصرف المسيح عليه السلام يبدو في غاية الغرابة لو صدق متى في خلطه ، واعتبر أن التلاميذ هم تلاميذ يوحنا جاءوا يخبرونه بما حدث ليوحنا ، لأن المسيح لم يعقب بكلمة على ذلك بل أقام للناس معجزته ( الأرغفة الخمسة والسمكتين ) ، بل حتى لم يترحم على الرجل . لكن يبدو الأمر طبيعياً لو كان المسيح يستقبل رسله بعد أن نجحوا في دعوتهم فيصنع لهم معجزة أكبر مما فعلوا .

ونعود للقصة الاعتراضية (قصة يوحنا) فنجد أن سبب إقحامها هو ما فعله تلاميذ المسيح ، ومنطقي عندما يسمع الملك بعلمهم أن يتساءل عنهم ، لكنه عندما يسمع بما فعله التلاميذ يتعجب لفضل المسيح :

١٤ فَسَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ ، لِأَنَّ اسْمَهُ صَارَ مَشْهُورًا . وَقَالَ : «إِنَّ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانَ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ وَلِذَلِكَ تَعْمَلُ بِهِ الْقُوَّاتُ» . ١٥ قَالَ آخَرُونَ : «إِنَّهُ إِبِلِيَّا» . وَقَالَ آخَرُونَ : «إِنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ كَأَحَدِ الْأَنْبِيَاءِ» . ١٦ وَلَكِنْ لَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ قَالَ : «هَذَا هُوَ يُوْحَنَّا الَّذِي قَطَعْتَ أَنَا رَأْسَهُ إِنَّهُ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ!»

سمع هيرودس ما فعله التلاميذ ، لماذا سمع ؟ (لأنَّ اسْمَهُ صَارَ مَشْهُورًا) والضمير في اسمه تعود على المسيح ، والكلام يجب أن يعود على التلاميذ .

(١) متى : الإصحاح (١٤) : السطر (١٢) .

(٢) لوقا : الإصحاح (٩) : السطر (١٠) .

وقد سمع الملك بما فعله المسيح فظنه يوحنا ، وقد قال تعليقيين في نفس واحد عما سمعه:

- ١- «هَذَا هُوَ يُوْحَنَّا الَّذِي قَطَعْتَ أُنَا رَأْسَهُ إِنَّهُ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ!» .
- ٢- «إِنَّ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانَ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ وَلِذَلِكَ تَعْمَلُ بِهِ الْقَوَاتُ.»

لابد أن القول الصادر عن الملك عقب السماع هو قول واحد ، لكننا أمام قولان مختلفان ، فلو كان ثمة اثنان يسجلان ما تقوله في لحظة معينة ، فلا يمكن أن تنطق لكل واحد على حده بقول ، بل هو قول واحد ولا بد أن يصل إلى الاثنین كذلك ، ولا ندري كيف خرج من فم الملك واحداً ثم يتفرع إلى فرعين عند المستمعين . ويزيد الطين بلة أن يكون المستمع في هذه الحالة واحداً يسمع القول الواحد بطريقتين .

ولا يمكن أن يخرج القولان من فم واحد في لحظة واحدة ، ولا يمكن أن يخرج قول واحد فيسمع واحد بطريقتين ، وقد نقبل في تصوير الأفلام أن يقال قول ، ثم يعيده البطل بطريقة أخرى ، لكن في الفيلم لن ترى إلا اللقطة الأفضل ، لكنك إذا شاهدت كواليس التصوير ستري القولين معاً .

إن أحد القولين كاف عن الآخر ، فالرجل يسمع عن أفعال المسيح ، فيظن أن يوحنا المعمدان قام من الأموات وهو الذي فعلها ، ثم يكرر قولاً ثانياً يقحم فيه لفظة ( قطع رأسه ) .

والقول بتكراره عجيب ، فمن حق أي إنسان أن يظن أن الفاعل هو يوحنا ، اللهم إلا الوحيد الذي قطع رأسه . ولسنا نتطلق من فراغ عندما نرى أن هيرودس ما كان يجب أن يصدق أنه يوحنا ، فهذا لوقا يَصوغ الخبر بطريقة المتعجب الذي ينفي أن يكون يوحنا: ٩ فَقَالَ هِيرُودُسُ: «يُوْحَنَّا أَنَا قَطَعْتُ رَأْسَهُ فَمَنْ هُوَ هَذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْهُ مِثْلَ هَذَا!». لقد سمع هيرودس بجميع ما كان من المسيح ، وارتاب لأن قوماً كانوا يقولون (إِنَّ يُوْحَنَّا قَدْ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ) فلم يمل معهم ، بل قال: (وَحِنَّا أَنَا قَطَعْتُ رَأْسَهُ فَمَنْ هُوَ هَذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْهُ مِثْلَ هَذَا!). إذن نحن عندنا قولان لمتى ، يمكن أن يسد مسدهما قول واحد ، وكلاهما يؤكد أن هيرودس يقرر أن يوحنا قام من الأموات بعد أن قطع رأسه ، وقول لمرقص يقرر أن هيرودس يقول لمن يقرر أن يوحنا قد قام من الموات : لا ، يوحنا أنا قطع رأسه ، فهذا غيره ، فمن يكون هذا الذي يفعل أفعالاً لا يفعلها إلا من هو مثل يوحنا . .

عند مرقص : لقد اشتهر ما فعله تلاميذ المسيح ، فعلق هيرودس بأن هذا لا يفعله إلا يوحنا ، فكأن يوحنا قام من الأموات ، إلى هنا والأمور طبيعية ، فنحن بعد موت يوحنا ، والأحداث بعد ظهور المسيح ، والملك تصله الأخبار ، فتذكره بأفعال السابق يوحنا . وكان يجب أن يكمل السياق بالحديث عن عودة التلاميذ إلى المسيح ليخبروه بما فعلوه ، لكنه قبل أن يفعل هذا أعاد العبارة

التي قالها الملك وأقحم فيها قوله ( الذى قطعت أنا رأسه ) ثم حكى القصة العجيبة : حكاية قطع الرأس التي تقتحم السياق ما بين فعل تلاميذ المسيح وعودتهم إلى المسيح . فلولا قوله ( قطعت أنا رأسه ) ما حكى قصة مقتل يوحنا . فهو لا يحكى مقتل يوحنا في وقتها ، لكن بعد مقتله ، من منطلق الشيء بالشيء يذكر .

وبذلك نرى أن ثمة إقحاماً يبدأ من تكرار عبارة سبق قولها ، وحكاية تبرر هذا الإقحام . وهنا يأتي متى لينقل عنه ، فلا يفهم أمر الإقحام ، ويخلط بين تلاميذ يوحنا وتلاميذ المسيح ، ويظن أن التلاميذ بعد دفنهم أستاذهم يوحنا رجعوا إلى المسيح ليخبروه بمقتل يوحنا ، وهذا كله لا يمكن أن يحدث ، لأن زمن إرسال المسيح لتلاميذه جاء بعد موت يوحنا بمدة زمنية . وأن الذين جاءوا ليخبروه هم تلاميذه هو الذين أرسلوهم ليكرزوا ، وقد عادوا ليخبروه بما فعلوه هم من أداء رسالتهم التي أرسلهم بهم ، ولا شأن لهم بقصة يوحنا ، لأنه قد مات من زمن . ويدعم ذلك بأن المسيح لم يقل شيئاً ولم يعقب على تلك المذبحة ، فموقفه بعد إخبارهم له : كما أنه لم يعرف شيئاً ، والحقيقة أن ذلك حق ، لأنهم لم يخبروه بمقتل يوحنا ، بل أخبروه بنجاح مهمتهم .

### ٣٠ واجتمع الرسل إلى يسوع وأخبروه بكل شيء، كل ما فعلوا وكل ما علموا.

لا يوجد أى رد فعل نحو قتل يوحنا المعمدان الذى تعمد الشعب كله منه بتلك الطريقة البشعة ، حتى المسيح لم يقل شيئاً ، ولم يحزن عليه ، بل انطلق إلى معجزته ( الخمسة آلاف يطعمون ) وكأنه يلهي الناس عن المأساة يجعلهم يتجهون اتجاهاً آخر . ( فلما سمع يسوع انصرف من هناك في سفنه إلى موضع خلاء منفرداً فسمع الجموع وتبعوه مشاه من المدن ، فلما خرج يسوع أبصر جمعاً كثيراً فتحزن عليهم وشفى مرضاهم ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين الموضع خلاء والوقت قد مضى إصرف الجموع لكي يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاما ، فقال لهم يسوع لا حاجة لهم أن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا ، فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان ففلا توتوني بهما إلى هنا فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتى عشرة قفة مملوءة والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل ماعدا النساء والأولاد .

هذا ما حدث يوم علم بقطع رأس يوحنا المعمدان على طبق . هل كان للأكلين رغبة في الطعام حتى يأكلوا ويشبعوا ؟ وما الحاجة للمعجزة في هذا الوقت ؟ سوى صرف نظر الناس عن المأساة ، وخاصة أن في تلك الليلة عمل معجزة أخرى هي المشى على الماء ، وتسكين الريح عندما دخل

السفينة حتى قام الذين في السفينة وسجدوا له قائلين : بالحقيقة أنت ابن الله ....

••• لا علاقة بهذا وما حدث بعد ذلك ؟

٣٠ **وَاجْتَمَعَ الرَّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا.**

هذا كلام منطقي بعد حذف قصة يوحنا ، فالرسل الذين أرسلهم يسوع وفعلوا المعجزات عادوا إليه ليخبروه بكل شيء ، كل ما فعلوا وكل ما عملوا ..

مما يفيد أن قصة يوحنا مقتحمة السياق ، ويؤكد ذلك أن المسيح لم يفعل شيئاً بعد ذلك ، ولم يعلق ، وإنما صنع معجزة الطعام والسمك . تلك إذن قصة مخترعة ، لورفعت لاستقام الكلام ، ونجا الكلام من التناقض .

إن يحيى في القرآن الكريم - إذن - لم يذبح ، بل مات ميتة طبيعية كما يقرر القرآن الكريم . وهنا نكون أمام قصة تحتاج إلى دفاع قوى لتصمد أمام الرأي القرآني المعارض لها :

١- لم يذكر يوحنا هذه القصة كذلك لا نجدها أبداً في الرسائل .

٢- لم يذكر مرقس القصة وإن كان ذكر قطع رأسه .

٣- إن كان يوحنا يندد بزواج هيروديا من هيرودس أخى زوجها ، فمن العبث أن نقنع أن المباراة العدائية بين يوحنا وهيروديا فحسب ، ويبدو هيرودس كالمحايد الذى لا يوجد بينه وبين يوحنا عداوة سوى أنه مستجيب لزوجته .

١- هيرودس عند متى رئيس ربيع وعند مرقس ملك . ( وسيصفه لوقا بأنه رئيس ربيع ) . إذن فهو في الأغلب رئيس ربيع مما يعنى أنه لا يملك تلك القوة لسلب زوجة أخيه ، ولقتل نبي يؤمن به الشعب بتلك الطريقة .

٢- اتفق الاثنان في كلمة ( قام من الأموات ) ، وزاد مرقس إنه إيليا أو أحد الأنبياء ، ثم قال هيرودس هذا هو يوحنا الذى قطعت أنا رأسه إنه قام من الأموات .

٣- سجن هيرودس يوحنا بسبب هيروديا امرأة أخيه فيلبس ، لكن مرقس زاد قوله ( إذا كان قد تزوج بها ) .

٤- في متى نرى هيرودس هو الذى يريد أن يقتله لكنه يخاف الشعب الذى يرى يوحنا مثل نبي ، وفي مرقس نرى الذى يريد أن يقتله هو هيروديا لكن الملك هو الذى يقف حائلاً دون ذلك لأنه

بها به ويحفظه ويسر بسماعه .

٨. عند متى طلبت الصبية طلبها مباشرة وهي في مكانها ، وعند مرقس خرجت تسأل أمها لتي أشارت عليها بالطلب ذاته ، ولا ندرى هل خرجت أم لم تخرج .

٩. جاءت بقية القصة متفقة فقد اغتم الملك ، لكنه لأجل الأقسام التي قطعها على نفسه ولأجل المتكئين معه أمر أن يجاب طلبها ، فقطعت رأس يوحنا وجاءت على طبق فحملته الصبية وقدمته لأمها . ( ولا ندرى ماذا فعلت به الأم ؟ ) ثم قام التلاميذ بدفن الجثة

هذه الاختلافات بين الصياغتين ، وهذا الصمت المطبق عن رد الفعل ، وسكوت يوحنا عن القصة كلها تشكل عوامل ضعف في القصة مما يجعلها عاجزة عن الصمود في وجه التصحيح الذي ذكره القرآن وهو أن يحيى انتهت حياته بالموت لا بالقتل . وهذه النهاية تفسر سكوت الشعب ، وسكوت المسيح .



(٨) : مادامت الشريعة اليهودية تمنع زواجهما ، فالمشكلة لا تنتهي بقتل يوحنا المعمدان ، وكان يجب أن يواصل المسيح نفسه مهمة سلفه ويندد بهذا الحرام القائم .

## ٣ تسع آيات :

أرسل الله ﷻ موسى عليه السلام بأيات إلى فرعون ، وقد حدد تلك الآيات بتسع آيات في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (الإسراء .)

﴿ فِي تِسْعَ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (النمل .)

وقد ذكر سفر الخروج تلك الآيات بطريقة أخرى ، فجعلها عشر آيات ، واتفق في بعضها مع القرآن واختلف في البعض الآخر :

ما انفردت به التوراة

المشترك

ما انفرد به القرآن

١. قلب العصا ثعباناً

٢. الجراد

٣. الضفادع

٤. الدم

٥. البعوض

٦. الذبان

٧. إهلاك الماشية

٨. الدمامل

٩. البرد

١٠. الظلام

١١. موت الأبقار

٥. اليد البيضاء

٦. السنين

٧. نقص الثمرات

٨. الطوفان

٩. القمل

الآيات التسعة : عرضها القرآن في ثلاثة مواضع : ( اثنتان تم تدريبه عليهما في الوادي المقدس : العصا التي تتحول إلى ثعبان ، واليد التي تخرج بيضاء ) واثنتان زمنيتان : ( السنين ونقص من الثمرات ) ، وخمس آيات هي ( الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم ) .

وقد جاءت بهذا التقسيم في ثلاث مواضع :

١. آيتا التدريب : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا يَخَفُ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَدْعَ سَوْءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِئْسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ( التمل ) .

٢. الآيتان الزمنيتان : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ ( الأعراف ) .

٣. آيات المعاناة : تسع ﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ( الأعراف ) .

أما الآيات العشرة في سفر الخروج فهي : ( قلب العصا ثعباناً ، الدم ، الضفادع ، البعوض ، الذبان ، إهلاك الماشية ، الدمامل ، البرد ، الجراد ، الظلام ، موت الأبقار ) .

وسوف نناقش تلك الآيات :

### ١. الآية الأولى : انقلاب العصا ثعباناً :

١٠ فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَعَلَا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ . طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا . الخروج : ٧ : ١٠ .

هي آية مشتركة بين المصدرين . فلا خلاف عليها . ومع ذلك نجد أن ثمة اختلافاً في تفاصيلها ، فالتوراة تجعل هارون هو الذي يستخدم العصا ، في حين يجعل القرآن أن موسى هو مستخدم العصا في كل استعمالاته التي بلغت إحدى عشرة مرة . أما التوراة فتجعل هارون هو من يستخدم العصا أمام فرعون : ( ١٠ فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَعَلَا هَكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ . طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا . ١١ فَدَعَا فِرْعَوْنُ

أَيْضاً الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ فَفَعَلَ عَرَاْفُو مِصْرَ أَيْضاً بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ . ١٢ طَرَحُوا كُلَّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتْ الْعِصِيُّ تَعَابِينَ . وَلَكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عَصِيَّهُمْ<sup>(١)</sup> .

، ولا تقل كيف ذلك ، والرب قد قابل موسى وحده في البرية وأمره هو بآية العصا :  
( ٢ ) فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ : « مَا هَذِهِ فِي يَدِكَ ؟ » فَقَالَ : « عَصَا » . ٣ فَقَالَ : « اطْرَحْهَا إِلَى الْأَرْضِ » . فَطَرَحَهَا إِلَى الْأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا . ٤ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : « مَدَّ يَدَكَ وَأَمْسِكْ بِذَنْبِهَا » ( فَمَدَّ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ فَصَارَتْ عَصَا فِي يَدِهِ ) ٥ « لَكِي يُصَدِّقُوا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُ آبَائِهِمْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ »<sup>(٢)</sup> .

نعم الرب أمر موسى في البرية بذلك ، لكن قبل الدخول على فرعون قال الرب لموسى :  
ولا تقل كيف ذلك ، والرب قد قابل موسى وحده في البرية وأمره هو بآية العصا :  
٨ وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ : ٩ « إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائِلًا : هَاتِيَا عَجِيبَةً تَقُولُ لِهَارُونَ : خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرُ تَعْبَانًا »<sup>(٣)</sup> .

ولو أن التوراة اقتصرت على جعل العصا لهارون ، فلا شأن لنا ، فمن حق كل كتاب أن يقول ما يشاء ، وإذا اختلف الرأيان فليؤمن كل بما يقوله كتابه . لكن بشرط أن يكون كل كتاب متسق مع نفسه ، وفي شأن عصا موسى ، وقف القرآن موقفاً واحد هو أن العصا لموسى فحسب ، أما التوراة فلم تقتصر على جعل العصا لهارون ، بل جاءها موقفاً يتأرجح بين الاثنين ..

فهي تجعل العصا لهارون في ست مرات ، وتجعلها لموسى اثنتي عشرة مرة ، وقد نسبت العصا لله وأعطاهها لموسى ليعمل بها الآيات ضد فرعون :

■ { ١٧ وَتَأْخُذُ فِي يَدِكَ هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي تَضَعُ بِهَا الْآيَاتِ } . [ الخروج ٤ : ١٧ ]

■ { ٢٠ وَأَخَذَ مُوسَى عَصَا اللَّهِ فِي يَدِهِ } . [ الخروج ٤ : ٢٠ ]

فمن غير المعقول أن يستعمل موسى العصا إلا في أول مواجهاته مع فرعون ، وإن كان لهارون نفس ميرزة موسى في العصا ، فلماذا لم يستعمل هارون عصاه تعب موسى وهو

(١) الخروج . الأصحاح السابع . (١٠ - ١٢) .

(٢) الخروج . الأصحاح الرابع . (١٠ - ٥) .

(٣) الخروج . الأصحاح السابع . (٨ - ٩) .

يرفع عصاه، لما أَرَل يشوع لمحاربة عماليق ، فوقف موسى يرفع عصاه ، فإذا رفعها انتصر يشوع، وإذا تعبت يده وأنزلها انهزم ، وهنا أجلسه هارون و حور ، ودعم كل منهما يده :

■ { ١١ وَكَانَ إِذَا رَفَعَ مُوسَى يَدَهُ أَنْ إِسْرَائِيلَ يَغْلِبُ وَإِذَا خَفَضَ يَدَهُ أَنْ عَمَالِيقُ يَغْلِبُ . ١٢ فَلَمَّا صَارَتْ يَدَا مُوسَى ثَقِيلَتَيْنِ أَخَذَا حَجْرًا وَوَضَعَاهُ تَحْتَهُ فَجَلَسَ عَلَيْهِ . وَدَعَمَ هَارُونُ وَحُورُ يَدَيْهِ الْوَاحِدُ مِنْ هُنَا وَالْآخَرُ مِنْ هُنَاكَ . فَكَانَتْ يَدَاهُ ثَابِتَتَيْنِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ . . } [الخروج ١٧ : ١١]

ونسأل لماذا لم يأخذ هارون عصاه ويرفعها ليريح يد موسى ؟ فإن كانت عصا هارون بفاعلية عصا موسى ، فهذا أنسب موقف لاستخدامها . لكن ها قد رأيتم موسى يأبى أن يترك العصا خشية أن تحدث الهزيمة ، ذلك ببساطة لأنه يعرف أن تلك التي معه هي العصا المخصوصة : عصا الرب .

وقد تقول : ربما هي عصا موسى ، لكن الرب لما رأى خشية موسى من عجزه اللساني أمر هارون أن يقود المواجهة الأولى مع فرعون ومن ثم استعمل هارون العصا بنفس قدرات عصا موسى ، ونقول له : ونحن نوافق على ما تقول لو أن التوراة أصرت على موقفها بأن هارون هو من ألقى العصا في مواجهة فرعون ، فالتوراة لا تلبث أن تقول قاطعة بالحقيقة :

■ { ١٤ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : « قَلْبُ فِرْعَوْنَ غَلِيظٌ . قَدْ أَبَى أَنْ يُطْلَقَ الشَّعْبَ . ١٥ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ . إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ . وَالْعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَأْخُذُهَا فِي يَدِكَ . » } [الخروج ٤ : ١٧]

## ٢. الآية الثانية (اليد البيضاء) :

لقد درّب الله موسى على آيتين دليلاً لفرعون على أنه من عند الله ، هاتان الآيتان هما تحول العصا إلى ثعبان ، وقد اتفقت التوراة مع القرآن في ذلك ، والثانية : هي صيرورة اليد بيضاء دون برص . ولم تذكرها التوراة من الآيات التي تعرض على فرعون ، برغم أن التوراة تذكرها في تدريب موسى ، ومادام الله لا يريد لها آية لماذا دربه عليها ؟ إن التوراة تجزم أن العصا واليد البيضاء هما أول آيتين إلى فرعون : ولنترك التوراة ذاتها تكشف ذلك :

٦ ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّبُّ أَيْضًا : « ادْخُلْ يَدَكَ فِي عُنُقِكَ » فَادْخَلَ يَدَهُ فِي عُنُقِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا وَإِذَا يَدُهُ بَرِصَاءٌ مِثْلَ الثَّلْجِ . ٧ ثُمَّ قَالَ لَهُ : « رُدِّ يَدَكَ إِلَى عُنُقِكَ » (فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا مِنْ عُنُقِهِ وَإِذَا هِيَ قَدْ عَادَتْ مِثْلَ جَسَدِهِ)

٨ «فَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا وَلَمْ يَسْمَعُوا لَصَوْتِ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ صَوْتِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ . ٩ وَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَلَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِكَ أَنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى الْيَابِسَةِ فَيَصِيرُ الْمَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَمًا عَلَى الْيَابِسَةِ» . (١)

إن النص التوراتي صريح في أن تلك الآيتين هما الأوليان إذا لم يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، فإذا لم يأتيا بنتيجة تبدأ الآيات الأخرى .

ولا جدال أن تلك آية صريحة في القرآن الكريم ، وقد أيدت التوراة القرآن في ذلك عندما قالت أن الله أمر موسى بالذهاب إلى فرعون وتنفيذ تلك الآية الثانية ، ثم تسكت التوراة عن تنفيذ موسى لها .

مما سبق نرى أن أمامنا أحد احتمالات :

1- موسى قد نسى الآية الثانية التي أمره الله بها :

٨ فَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا وَلَمْ يَسْمَعُوا لَصَوْتِ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ صَوْتِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ (٢) .

2- موسى فعلها ، ولم يذكرها كاتب التوراة لأنه رأى رأيه فيها ، فعدل عنها ظناً منه أنها بلا فائدة ، لأنها لم تؤذ المصريين .

3- أن موسى فهم النص أنه لا حاجة للآية الثانية ( صيرورة اليد إلى بيضاء ) إذا صدقوا الآية الأولى ( تحول العصا إلى ثعبان ) ، أى أنه لم يحتج الثانية لأنهم صدقوا الأولى ، وهذا يناقِ الواقع ، ويعنى أن الأولى لو كانت تغنى عن الثانية فلا حاجة إلى الثالثة وكل ما بعد الثالثة ..

فهي آية مؤكدة يقطع بها القرآن ، وموقف التوراة لا يعنى أنها ليست إحدى الآيات ، فقد أمر الله بها موسى في التوراة بشكل صريح ، لكن موسى يتجاهلها تماماً ، وتلك مشكلة خاصة بالتوراة ، خلقها لها أحدهم ، فظهرت متعارضة مع نفسها .

وبذلك نرى أن القرآن أعلن أنها آية من آيات موسى لفرعون ، ولا تملك التوراة التي لا تعدها آية أن تعترض على ذلك ، لأنها عند اعتراضها تعترض على نفسها ، وتقض تناقض نصوصها ، وعدم اتساقها مع نفسها . وقد قلنا قبلاً أن المتناقض في ذاته يحمل بنية هدمه .

(١) الخروج-الإصحاح الرابع (٦-٩) .

(٢) الخروج-الإصحاح الرابع-السطر الثامن .

## ٤. الآيتان الثالثة والرابعة (السنين ونقص الثمرات) :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣٠) (الأعراف) .

وجاء ترتيب الآيتين السابقتين الثالثة والرابعة . وهو ترتيب منطقي ، فالبدية لا بد أن تكون بالقحط ، وهو متحمل وخاصة مع مخزون الملاء ، وقد استمر القحط عدة سنوات وقد صاحبه آية أخرى هي نقص الثمار : فقد كانت النخلة لا تحمل سوى ثمرة واحدة ، فلمن تكفي ؟ ولما لم تفلح تلك الآيتان ، ونظنهما سوياً متلازمتين ، وقد طال بهما الوقت ، عدة سنوات ، لأن القحط والفقر والجوع من الأشياء التي لا تؤثر في المدى القصير .

وهذا يعني أن ثمة زمن طويل حدث فيه هاتان الآيتان ( السنين ، نقص الثمرات ) ، بلغ عدداً من السنين ، وفي رأينا أنها لا تقل عن خمس سنوات ، وقد تصل إلى سبع سنين . فقد أصاب الناس في عهد يوسف قحط دام سبع سنين ، ودعا النبي S على قريش ، فأصابها قحط استمر سبع سنين . ففعل القحط الذي أصاب المصريين في تلك الحرب المعلنة لا يقل أبداً عن إصابتهم به في عهد يوسف في غير حرب ، وإن كان محمد نبي الرحمة الذي دأب على الدعوة لقومه ، قد دعا على قومه مرة واحدة فأصابهم القحط سبع سنوات ، فهل يكون موسى أشد رحمة بفرعون عدوه من محمد S مع قومه الذين يطمع في إسلامهم .

ولم ترد هاتان الآيتان في التوراة ، وهذا منطقي بالنسبة لها ، لأنها جعلت موسى يحضر إلى مصر وهو في الثمانين من عمره ، ويخرج منها وهو في الثمانين أيضاً ، ومن ثم فمدة الصراع بينه وبين فرعون عدة أشهر ..

ولذلك جاءت الضربات متلاحقة فضربة تحول النهر إلى دم استمرت سبعة أيام ، يليها مباشرة ضربة الضفادع :

﴿ وَمَا كَمَلَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ مَا ضَرَبَ الرَّبُّ النَّهْرَ (ص ٨ : ١) قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : « ادْخُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ : هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ : أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي . ٢ وَإِنْ كُنْتَ تَأْبَى أَنْ تَطْلِقَهُمْ فَهَا أَنَا أُضْرِبُ جَمِيعَ تَحْوَمِكَ بِالضَّفَادِعِ (١) .

فلما استدعاه فرعون ليخلصه من ضربة الضفادع : قال له موسى : عيّن لي يوماً أصلى فيه لأجلك ، فقال فرعون غداً ، أي أن الضربة استمرت يوماً وبضع يوم ، وبعد رفع غلظ قلب فرعون فكانت ضربة التراب الذي تحول إلى بعوض ، وفي اليوم التالي كانت ضربة الذبان ، (١) الخروج- الإصحاح الثامن- السطر الأول والثاني .

وهنا وعدهم فرعون أن يسمح لهم بالخروج ثلاثة أيام ، فدعا موسى يرفع الذبان ، ولكن فرعون تراجع كعادته ، وهنا جاءت ضربة البرد التي لم تستمر سوى ليلة واحدة ، طال فيها البرد كل من تجراً ، وبات ليلته في الحقل ، ولم يصب الذين باتوا في بيوتهم . ثم الجراد الذي لم يبق أكثر من يومين . أما آية الظلام فقد استمرت ثلاثة أيام ..

٢٢ فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَكَانَ ظَلَامٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ مَضْرَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .<sup>(١)</sup>

؛ وَقَالَ مُوسَى : « هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِنِّي نَحْوُ نَضْفِ اللَّيْلِ أَخْرَجُ فِي وَسَطِ مَضْرَ هَفِيمُوتُ كُلِّ بَكْرٍ فِي أَرْضِ مَضْرَ مِنْ بَكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بَكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى وَكُلِّ بَكْرٍ بِهِمَّةٍ<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لو عددت هذه الضربات كلها ستجد أنها تمت في أقل من شهر . ولا ندري كيف لم تتجاوز موجات فرعون مع موسى عدة أشهر ، وبرغم أن القرآن لا يحدد مدة ، لكن كما يبدو الأمر يستغرق سنين ، فالآيات في القرآن :

١- آيتان : من أجل الإثبات ( العصا ، واليد البيضاء ) .

٢- آيات استمرت وقتاً طويلاً ( السنين ، نقص الثمرات ) .

٣- آيات مفصلات ، تمت متوالية في سنة واحدة .

من المنطقي أن أقصرها وقتاً هي إيات إثبات الذات ( العصا واليد ) لأنهما آيتان لإبراز القدرة ، ومع ذلك فلا بد أن تحتاج وقتاً يصل إلى عدة أشهر ، يتم فيه إرسال حاشرين إلى ربوع مصر لجمع السحرة لمواجهة موسى عليه السلام ، ولما يفشلوا يرسل مرة ثانية حاشرين ليأتوا له بسحرة أكثر احترافاً ويستضيفهم فرعون في قصره حتى يحين موعد المباراة : يوم الزينة . فإن كانت أيسر الآيات تستغرق وقتاً ، فما الحال بالآيات الأخرى ، لكن التوراة مضطرة أن تفرغ من كل الآيات في عجالة لأنها حصرت مدة بقاء موسى كلها : حضوره من مدين كان وهو في الثمانين ، وخروجه من مصر إلى سيناء كان أيضاً في الثمانين .

٤. الآية الخامسة : (الطوفان) :

هي الآية الأولى في الآيات المفصلات :

﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾

(١) الخروج- الإصحاح العاشر- السطر الثاني والعشرين .

(٢) الخروج- الإصحاح السابع- السطر الرابع والخامس .

وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ (الأعراف) .

والطوفان لا يكون إلا الماء ، فقد دعا موسى عليهم بعد إصرارهم على الكفر بعد آياته الأربع السابقة . فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا عهدك ، رب فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نعمة ولقومي عظة ولن بعدهم آية وعبرة ، فبعث الله عليهم الطوفان ، وهو الماء ، أرسل الله عليهم الماء حتى امتلأت بيوتهم بالماء فلا يعيشون في بيوتهم إلا وقوفاً ، حتى لا يغمرهم الماء وهم جلوس .

فالطوفان كما يقول الزمخشري : أنهم أمطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمرأ ، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره ، حتى كادوا يهلكون . ومن ثم فهذه الآية جامعة لآيتي البرد والظلام في التوراة .

وهي آية موجعة لأنها جاءت بعد سنين القحط ، فقد ظلوا ينشدون المطر ، فجاء المطر بكثرة مهلكة جعلتهم يتمنون لو لم يتمنوه .

والطوفان ( الذي لا بد أن يكون ماءً ) فقد استخدم الله لفظة الطوفان مع نوح ، ولا بد أن السماء أنزلت مطراً ، والأرض أخرجت مطراً ، لكن دون إهلاك ، فالماء لا يغطيهم ، لكنهم يتداخل في حياتهم ، يدخل إلى بيوتهم ، فلا يمكنهم الخروج ، ولا يهناون بالمقام في الداخل .

والطوفان لا يهلك كل أخضر ، مما يسمح للجراد بأن يؤدي مهمته التالية .

## ٧. الآية السادسة : (الجراد) :

هي الآية الثانية في الآيات المفصلات في القرآن الكريم .. :

﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾  
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ (الأعراف) .

عندما غمرهم المطر ، قال فرعون لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فتؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان ، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئاً لم ينتبه لهم قبل ذلك من الكلاً والزرع والثمر وأخصبت بلادهم ، فقالوا: ما كان هذا

الماء نعمة علينا وخصبا ، فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا في عافية ، فبعث الله عليهم الجراد وهو حشرة طائرة ذات ست أجنحة ، يهلك الزرع والشجر . فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم .

وهذه آية مشتركة بين القرآن الكريم والتوراة ، لكنها منطقية بعد طوفان المطر ، لأن المطر بعد توقفه سيؤدي إلى الزرع والثمر والخصب . وبذلك يكون العقاب الآتي هو أن يأتي عليهم الجراد ليسلبهم المكاسب التي جنوها من توقف العقاب السابق .

لكنها لا تكون منطقية أبداً في التوراة ، إن أصرت التوراة على أن الآية التي تسبقها هي سقوط البرد . لأن انقشاع البرد لن يؤدي إلى خروج الزرع في اليوم التالي ، وإذا لم يخرج الزرع فما الحاجة إلى الجراد ، سيأتي ليأكل ماذا ؟

إن القرآن يقرر وجود مطر ، فتوقف المطر يجعل الأرض خصبة ، فتزدهر ، فإذا أصروا على بغيهم ، كانوا يتمتعون بثمر العقاب . وهنا يكون الجراد منطقياً ..

أما البرد الذي كان بداخله نار ، سيصيب الزرع بإتلاف ، لكنه لن يجعل الأرض خصبة ولن تزدهر ، فلا يكون ثمة حاجة إلى الجراد ، وخاصة أنفي السياق التوراتي لا توجد مسافات زمنية بين كل آية وأختها .

## ٧- الآية السابعة : ( القمل ) :

هي الآية الثالثة في الآيات المفصلات في القرآن الكريم .. :

﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءآيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف) .

وَالْقُمَّلُ: بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة يختلف عن الْقُمَّلِ . بفتح القاف وسكون الميم ، فالأخير معروف وهو حشرة تصيب شعر الرأس . أما الْقُمَّلُ : فجراد عظيم يسمى الْحُمَّانُ - بضم الحاء المهملة وميم ساكنة ونونين - واحدته حمناة وهو يمتص دم الإنسان .

لقد بدأ القرآن بأيتي برهان يثبان لفرعون أن موسى مرسل من عند الله ، فلما أبى التصديق شن عليه حرباً اقتصادية ، فلما أساءوا التفسير وعدوا ذلك من شؤم موسى

وقومه عليهم ، كان لا بد أن تتدرج الايات وتصبح مفصلات لا يضلون عنها ، فكان الطوفان الذى لا يجعلهم يهناون في بيوتهم ، فلما أقروا بأن هذا من عند رب موسى ، وأنهم سيؤمنون لو توقف المطر . ودعا لهم موسى ، وجدوا خيراً ونعمة من آثار المطر ، فأصروا على كفرهم وقالوا كان المطر نعمة وليس عقاباً . وهنا أرسل عليهم الجراد ليجردهم من كل شيء .

وهنا بعد أن فقدوا متاعهم .. بدأت الحرب النفسية . عندما سلب عليهم حشرات تجعل الإنسان يريد أن يهرب من نفسه . حشرة مؤذية تدخل بين قمصانهم وجلودهم ، تمص دماءهم ، توصلهم إلى حالة من الجرب ، والهياج ، فهم في معالجتهم لها كالمجانين ، فلا يمكنه أن يأكل لأنه يتسلل في الطعام ، ويلصق في أشعارهم ، وأشعار عيونهم ، وحوابجهم ، وجلودهم كأنه الجدرى .

وترتب على الحك المستمر أن خرجت البثور والدمامل ، ولهذا نرى أن آية الدامل ليست بآية مستقلة ، لكنها نتيجة لآية القمل .

ولهذا نرى أن القمل كلمة جامعة سدت مسد ثلاث آيات في التوراة هي ( الذبان والبعوض ، والدمامل ) .

## ٨. الآية الثامنة : (الضفادع ) :

هي الآية الثانية في الآيات المفصلات في القرآن الكريم .. :

﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف) .

وهي آية مشتركة بين القرآن والتوراة ، لكن التوراة تخالف الترتيب ، فالقرآن يأتي بالضفادع ويختم بالدم ، أما التوراة فيبدأ بالدم ويثنى بالضفادع .

إن الترتيب القرآني بدأ بآيتي التدريب ، لإثبات أنه مرسل من عند الله ، وبدأ السياق ، ومباراة السحر وانتصر موسى ، وقتل السحرة .

وأصبح كل فريق في جانب ، فبدأ الحصار الاقتصادي ، وهكذا الحروب ، انظروا ماذا تفعل أمريكا قبل أية حرب ؟ إنها تظل عدة سنوات تنصب الحصار الاقتصادي ، حتى تضعف مقاومة المنافس . وهذا ما حدث في آيتي ( السنين ، ونقص الثمرات ) .

ثم بعد ذلك بدأ الإرهاق وتغيص العيش ( وهى أشبه بالضربات الجوية ) طوفان من الماء لا يجعلهم يستقرون في بيوتهم ولا يمكنهم من الخروج ، ثم جراد يأكل الأخضر واليابس . وبعد أن أصبحوا مجردين من الاستقرار ، ومن أي مخزون في الطعام : وهى مرحلة الحيلولة بين الفرد وما يوجد في الخارج ، فيصبح كمن دخل حرباً وأصبح لا يريد سوى النجاة بنفسه ، ولا يعنيه متاع الدنيا .

وبعد أن وصلت الناس إلى مرحلة الفرار بالنفس ، بدأ العذاب الفردي ، فلا يحتمل أن يبقى مع نفسه ، تفصل بينه وبينها القمل ، وهى حشرات يجمع بينها صفة المضايقة ، تسلطت عليهم ، تدخل بين قمصانهم وجلودهم ، تمص دماءهم ، توصلهم إلى حالة من الجرب ، والهيأج ، فهم في معالجتهم لها كالمجانين ، تعوقه عن الأكل ، وتجبره على الحك المستمر مما ترتب عليه خروج البثور والدمامل .

وجاءت الضفادع ، لتكون الحشرات داخلية ، والضفادع خارجية . وكانت أشد مما ذى قبل ، فهى في كل مكان ، لا يكشف شيئاً إلا وقفزت منه الضفادع ، ولو فتح فاه لدخلت الضفادع فيه ، ولا يمكنه النوم لأن الفراش قد احتلته ضيوفه من الضفادع .

## ٩. الآية التاسعة (الدم) :

هذه الآية جاءت في المصدرين ، والمنطق العلمي يقتضى ألا تناقش الآية المشتركة ، لكن ثمة اختلاف في التفاصيل ، فالقرآن الكريم يجعلها الآية الأخيرة ، في حين جعلها التوراة الآية الثانية بعد العصا .

ولنقف على الترتيب ، إن الآيات لا تتدرج تنازلياً ، من الأشد إلى الأقل ، فلا يعقل أن تقدم الأشد ، فإذا لم تفلح قدمنا الأقل منها ! المنطقي أن نعطيها أية شديدة ، فإذا لم تفلح معهم أرسلنا أشد منها ، وهكذا ، فعند التعذيب يجب التدرج تصاعدياً من الشديد إلى الأكثر شدة ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤٨) (الزخرف) .

فكل آية كبيرة ، لكن التى تأتى بعد الآية الكبيرة أكبر من سابقتها ، وهذا هو الترتيب التصاعدي . وهكذا نجد الترتيب منظومة منسقة :

آيتان إعجاز لإثبات الصدق ولا يضر الناس . وآيتان إجهاد ، فسرهما الكفرة تفسيرات عديدة دون أن يعترفوا أنها من الله ( حصار اقتصادي ) . فجاءت الآيات الخمسة المفصلات التي فيها عقوبة لا يشك بعدها أحد أنها من الله : فبدأ بالتجريد أو عزله عما يملك من خلال الطوفان ، ( الذي لا بد أن يكون ماءً ) فقد استخدم الله لفظة الطوفان مع نوح ، ولا بد أن السماء أنزلت مطراً ، والأرض أخرجت مطراً ، لكن دون إهلاك ، فالماء لا يغطيهم ، لكنهم يتداخل في حياتهم ، يدخل إلى بيوتهم ، فلا يمكنهم الخروج ، ولا يهناون بالمقام في الداخل . ومن خلال الجراد ، فلما أصبحت نفسه هي مطعمه واطمأن بنجاتها له ، سلب عليها ما يجعلها لا تستريح ( لا نوم ، لا أكل ، لا هدوء نفسى ، لا استقرار ) إنها مسلطة على جهازه العصبي . ثم جاءت الآية الأخيرة التي لا بد أن تكون مهلكة وهي الدم ، أو حرمان الماء حتى يوشك على الهلاك ، فكان أشد ما عاينوه ألا يجدوا الماء ، عندما تحول النهر نفسه إلى دم ، هو الهلاك عينه ، وهو أقوى مما مر ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يستغنى عن الماء . وقد ظن فرعون أن موسى سحر الماء ، وأنهم يرونه أحمر وليس كذلك ، فأمرهم أن يشربوا مع العبرانيين من إناء واحد ، فكان العبراني يشرب ماء ، والقبطي دماً من الإناء ذاته ، وقد أشرف فرعون على الهلاك حتى كان يمص الأشجار الرطبة .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد ذكر تسع آيات مرتبة ترتيباً تصاعدياً وبينها حتمية منطقية ، وأعقبها الغرق والإهلاك الفعلي بعد المطاردة .

### فإذا عن التوراة :

أولاً : التوراة تذكر عشر آيات كاملة ، ليس منها العصا ، واليد البيضاء ، وإن كانت تذكر أن العصا تمت . وبذلك خالف موسى أوامر الرب لأنه أمر بهاتين الآيتين أولاً ، إن لم يؤمنوا بالأولى ، يفعل الثانية ، فلا ندري لماذا لم يفعل الثانية ، هل آمنوا بالأولى ؟ وإن كانوا كذلك ، فلماذا كانت سائر الآيات ؟؟

١ فأجاب موسى : «وَلَكِنْ هَا هُمْ لَا يُصَدِّقُونَنِي وَلَا يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي بَلْ يَقُولُونَ لِمَ يَظْهَرُ لَكَ الرَّبُّ» . ٢ فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ : «مَا هَذِهِ فِي يَدِكَ؟» فَقَالَ : «عَصَا» . ٣ فَقَالَ : «اطْرَحْهَا إِلَى الْأَرْضِ» . فَطَرَحَهَا إِلَى الْأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا . ٤ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : «مُدَّ يَدَكَ وَأَمْسِكْ بِذَنْبِهَا» ( فَمَدَّ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهَا فَصَارَتْ عَصًا فِي يَدِهِ ) ٥ «لَكِي يُصَدِّقُوا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُ آبَائِهِمْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ» . ٦ ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّبُّ أَيْضًا : «أَدْخُلْ

يَدَكَ فِي عُبْك» فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي عُبِّهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا وَإِذَا يَدُهُ بَرَصَاءٌ مِثْلَ الثَّلْجِ . ٧ ثُمَّ قَالَ لَهُ: «رُدَّ يَدَكَ إِلَى عُبِّكَ» (فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى عُبِّهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا مِنْ عُبِّهِ وَإِذَا هِيَ قَدْ عَادَتْ مِثْلَ جَسَدِهِ) ٨ «فَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقْكَ وَلَمْ يَسْمَعُوا لَصَوْتِ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ صَوْتِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ . ٩ وَيَكُونُ إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَلَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِكَ أَنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَتَسْكُبُ عَلَى الْيَابِسَةِ فَيَصِيرُ الْمَاءُ الَّذِي تَأْخُذُهُ مِنَ النَّهْرِ دَمًا عَلَى الْيَابِسَةِ» .

ثانياً: بدأت الآيات العشرة بالدم ، وعندما يتحول النهر إلى دم ، حتى لا يستطيع الناس أن تشرب ، وتحفر بجوار النهر ، ولن نتوقف عند نقطة أنهم وإن حضروا سيجدون دمًا أيضاً .. تلك البداية هي النهاية ، لأنها آية إهلاك .. عندما يمنع الماء .. فبدأ من حيث يجب أن ينتهي .

وهكذا .. نجد أن موسى لم يقم بالآية الثانية وهي اليد البيضاء ، ثم بدأ بأقوى الآيات وهي الدم ، التي إن لم تقدر نفعاً فلا جدوى لما بعدها .

إن تحول الماء إلى دم يؤدي إلى الإهلاك ، فلا حاجة بعدها لآيات أخرى ، فمكانها آخر الآيات . فإن لم يتعظوا بها وظلوا على عنادهم فليس إلا الإغراق في البحر . وقد استغرقت تلك الآية سبعة أيام : ( ٢١ وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ )<sup>(١)</sup> . والعجيب أن الآية لم تجبر فرعون حتى على التوسل لموسى ، فلما لم يفعل حضر موسى إليه بعد سبعة أيام ، بتهديد جديد هو الضفادع التي فاض بها النهر ، ولا ندري كيف يفيض وهو قد أنتن ، وما زال كذلك .

وقال الرب لموسى «قُلْ لِهَارُونَ: مَدَّ يَدَكَ بَعْصَاكَ عَلَى الْأَنْهَارِ وَالسَّوَاقِي وَالْأَجَامِ وَأَصْعِدِ الضَّفَادِعَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ» . ٦ فَمَدَّ هَارُونُ يَدَهُ عَلَى مِيَاهِ مِصْرَ فَصَعِدَتِ الضَّفَادِعُ وَغَطَّتْ أَرْضَ مِصْرَ<sup>(٢)</sup> .

ولا ندري كم من الوقت يستغرق هارون ليلمس كل هذه الأماكن لتنتج ضفادع ، وخاصة أن الآية كلها وجوداً وإلغاءً لم تستغرق سوى يوم . لأن موسى قال لفرعون : «عَيْنَ لِي مَتَى أُصَلِّي لِأَجْلِكَ وَلِأَجْلِ عِبِيدِكَ وَشَعْبِكَ لِقَطْعِ الضَّفَادِعِ عَنْكَ وَعَنْ بِيوتِكَ . وَلَكِنَّهَا تَبْقَى فِي النَّهْرِ» . ١٠ فَقَالَ: «غَدًا» . فَقَالَ: «كَقَوْلِكَ» . لَكِي تَعْرِفَ أَنَّ لَيْسَ مِثْلَ الرَّبِّ إِلَهِنَا .

وإن تتعجب من السرعة التي تتم بها الآيات وتنتهي ، فأعجب من ذلك موقف فرعون الذي يقال له عين وقت انتهاء المحنة فلا يقول : الآن ، بل يقول : غداً . المهم بقيت تلك

(١) الخروج-الإصحاح السابع-٢١ .

(٢) الخروج-الإصحاح الثامن-٥-٦ .

الآية هذا اليوم ، ورفعت في اليوم التالي ، وماتت الضفادع : ( ١٤ ) وَجَمَعُوهَا كَوْمًا كَثِيرَةً حَتَّى أَنتَبَتِ الْأَرْضُ<sup>(١)</sup> . وكيف تتنت الأرض برفع الضربة ، إنها ليست ضربة جديدة حتى تتنت الأرض بسببها ، لكنها نعمة من موسى على فرعون ينتظر منه أن يلين قلبه بها ، فكانت يجب ألا تترك أثراً سيئاً . المهم لم يلن قلب فرعون .. وهناك جاءت الضربة الرابعة :

١٦ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : « قُلْ لِهَارُونَ : مَدِّ عَصَاكَ وَاضْرِبْ تُرَابَ الْأَرْضِ لِيَصِيرَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ » .  
 ١٧ فَفَعَلَا كَذَلِكَ . مَدَّ هَارُونَ يَدَهُ بَعْصَاهُ وَضَرَبَ تُرَابَ الْأَرْضِ فَصَارَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبِهَائِمِ . كُلُّ تُرَابِ الْأَرْضِ صَارَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ . ١٨ وَفَعَلَ كَذَلِكَ الْعَرَاْفُونَ بِسِحْرِهِمْ لِيُخْرِجُوا الْبَعُوضَ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا . وَكَانَ الْبَعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبِهَائِمِ<sup>(٢)</sup> .

في هذه الضربة تحول كل تراب مصر إلى بعوض .. ( كلُّ تُرَابِ الْأَرْضِ صَارَ بَعُوضًا فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ ) ، ولم يستطع العرافون أن يخرجوه ، وهل كانوا متفرغين منه ليفرغوا له ؟؟ ومتى جمعهم فرعون ، والضربة لا تستمر طويلاً ، وتتعقبها الخرى بدون أن تنتهي ، وهكذا ..

٢٠ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : « بَكِّرْ فِي الصَّبَاحِ وَقِفْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ . إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ . وَقُلْ لَهُ : هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ : أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي . ٢١ فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتَ لَا تَطْلُقُ شَعْبِي هَا أَنَا أُرْسِلُ عَلَيْكَ وَعَلَى عِبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى بِيُوتِكَ الذَّبَّانِ فَتَمْتَلِي بِيُوتِ الْمِصْرِيِّينَ ذَبَّانًا . وَأَيْضًا الْأَرْضُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا . ٢٢ وَلَكِنْ أُمِيزُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَرْضَ جَاسَانَ حَيْثُ شَعْبِي مُقِيمٌ حَتَّى لَا يَكُونَ هُنَاكَ ذَبَّانٌ . لِتَعْلَمَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ فِي الْأَرْضِ . ٢٣ وَأَجْعَلُ فَرْقًا بَيْنَ شَعْبِي وَشَعْبِكَ . عَدَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ »<sup>(٣)</sup> . .

يحدد الرب لموسى كيف يقابل فرعون ، مبكراً في الصباح لأنه يخرج إلى النهر ، وكأن الضربات لا تصل إليه ، فهذا هو يخرج مستجماً ، وهكذا جاءت الضربة الخامسة : الذبان ، لكن في هذه الآية نجد اختلافين عن سابقتها :

لم نعرف من أية مادة جاء هذا الذبان ، كما عرفنا البعوض الذي جاء من التراب ، والأمر الثاني : حدث في تلك الضربة التمييز بين الشعبين ، فتجا شعب إسرائيل المقيم في جاسان فلم يقربه الذبان ، ولم ينبه الرب لتلك في ضربة البعوض ، فهل عاني شعب إسرائيل من البعوض ؟ وإن لم يعان منه ، فلماذا خصص هنا أنه مُمِيز حتى لا يكون عنده ذبان . ووعده فرعون بإطلاق بني إسرائيل في البرية ثلاثة أيام لو رفع الذبان : ٣١ فَفَعَلَ الرَّبُّ

(١) الخروج-الإصحاح الثامن-١٤ .

(٢) الخروج-الإصحاح الثامن-١٦-١٨ .

(٣) الخروج-الإصحاح الثامن-٣١ .

كَقَوْلِ مُوسَىٰ فَارْتَفَعَ الذُّبَانَ عَنِ فِرْعَوْنَ وَعَبِيدِهِ وَشَعْبِهِ . لَمْ تَبْقَ وَاحِدَةً! (١) ..

ولم يتعظ فرعون برغم ذلك .. لتأتي الضربة السادسة : إهلاك المواشي :

٣ فَهَآ يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَىٰ مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ عَلَى الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَبِأَثْقَالٍ جَدًّا .

٤ وَيُمَيِّزُ الرَّبُّ بَيْنَ مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ وَمَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ . فَلَا يَمُوتُ مِنْ كُلِّ مَا لَبِنِي إِسْرَائِيلَ شَيْءٌ» .

ما الذى تفهم من الآية السابقة؟ أنا أفهم منها هلاك كل مواشي المصريين ، ونجاة

المصريين . لعلك مثلي تفهم كذلك ، وخاصة إذا علمت أن موسى لم يتراجع عن التنفيذ :

٦ فَفَعَلَ الرَّبُّ هَذَا الْأَمْرَ فِي الْغَدِ . فَمَاتَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ . وَأَمَّا مَوَاشِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَمُتْ مِنْهَا

وَاحِدٌ . ٧ وَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَإِذَا مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَمُتْ مِنْهَا وَلَا وَاحِدٌ (٢) .

نحن الآن أمام تعبير صريح (فَمَاتَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ) ومع ذلك سنجد في الآية

السابعة التى حدثت بعدها مباشرة هناك بهائم :

٨ ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ: «خُذَا مِلءًا أَيْدِيكُمَا مِنْ رَمَادِ الْأَتُونِ وَلْيَذَرِهِ مُوسَىٰ نَحْوَ السَّمَاءِ أَمَامَ عَيْنَيْ

فِرْعَوْنَ ٩ لِيَصِيرَ غَبَارًا عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ . فَيَصِيرُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ دَمَامِلٌ طَالِعَةٌ بَثُورٌ فِي كُلِّ أَرْضِ

مِصْرَ» . ١٠ فَأَخَذَا رَمَادَ الْأَتُونِ وَوَقَفَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَذَرَاهُ مُوسَىٰ نَحْوَ السَّمَاءِ فَصَارَ دَمَامِلٌ بَثُورٌ طَالِعَةٌ فِي النَّاسِ

وَفِي الْبَهَائِمِ . (٣) .

فهناك بهائم .. لا حظ أنه لم يكن ثمرة وقت لتولد بهائم جديدة .. وفي الآية الثامنة :

سنجد أيضاً بهائم :

١٩ فَالآن أرسل احم مَاشِيكَ وَكُلُّ مَا لَكَ فِي الْحَقْلِ . جَمِيعُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ الَّذِينَ يُوْجَدُونَ فِي الْحَقْلِ وَلَا

يُجْمَعُونَ إِلَى الْبُيُوتِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْبَرْدُ فَيَمُوتُونَ» . ٢٠ فَالَّذِي خَافَ كَلِمَةَ الرَّبِّ مِنْ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ هَرَبَ بِعَبِيدِهِ

وَمَوَاشِيهِ إِلَى الْبُيُوتِ .

٢٥ فَضْرَبَ الْبَرْدُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ . وَضْرَبَ الْبَرْدُ جَمِيعَ عُشْبِ الْحَقْلِ

وَكَسَرَ جَمِيعَ شَجَرِ الْحَقْلِ (٤) .

فكما ترى ثمرة بهائم تموت جميعها ، ثم تجدها على قيد الحياة ، مما يعنى أن إهلاك

(١) الخروج- الإصحاح الثامن- ٢٠-٢٣

(٢) الخروج- الإصحاح التاسع- السطر السادس .

(٣) الخروج- الإصحاح التاسع- السطر الثامن- إلى العاشر .

(٤) الخروج- الإصحاح التاسع- السطر الخامس والعشرون .

الماشية لم تكن من الآيات ، لكنه نتيجة القحط فالبعض يموت والبعض لا ..

ولا ننسى أن الرب قد ميز بين مواشي المصريين ومواشي بني إسرائيل : «وَيُمَيِّزُ الرَّبُّ بَيْنَ مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ وَمَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ . فَلَا يَمُوتُ مِنْ كُلِّ مَا لَبِنِي إِسْرَائِيلَ شَيْءٌ» .

وهل يعجز فرعون أن يأخذ مواشي بني إسرائيل منهم ؟؟ مادامت كل الايات لترغمه أن يتركهم وهو يرفض ، فهو يقدر عليهم .

وتأتي الضربة السابعة ٨ ثم قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ : «خُذَا مِلءَ أَيْدِيكُمَا مِنْ رَمَادِ الْأَتُونِ وَلِيذَرِهِ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ ٩ لِيَصِيرَ غُبَاراً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ . فَيَصِيرُ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ دَمَامٌ طَالَعَةٌ بِبُتُورٍ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ» . ١٠ فَأَخَذَا رَمَادَ الْأَتُونِ وَوَقَفَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَذَرَاهُ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ فَصَارَ دَمَامٌ بِبُتُورٍ طَالَعَةٌ فِي النَّاسِ وَفِي الْبَهَائِمِ . ١١ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْعَرَاوِفُونَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ مُوسَى مِنْ أَجْلِ الدَّمَامِ لِأَنَّ الدَّمَامِ كَانَتْ فِي الْعَرَاوِفِ وَفِي كُلِّ الْمِصْرِيِّينَ

ولا ندرى لماذا أمر الاثنين أني يأخذا الرماد ، ثم عند ذره نحو السماء ، موسى الذي يفعل ، فلماذا لا يفعلوا معاً .. وماذا يفعل هارون بالرماد الذي أخذه في يده ، هل يبقى في يده ؟؟ أم سيمد به موسى ليلقيه ثانية ..

ولم تلتن تلك الضربة فرعون ، وهنا جاءت الضربة الثامنة .. البرد .. التي تتحدث عن أن الرب أمطر برداً ، ( وَأَمْطَرَ الرَّبُّ بَرْدًا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ) وهي المرة الوحيدة التي يتم فيها في كل العهد القديم المطر بشيء غير مادي .

وهذا البرد العجيب الذي يمطره الرب ، يقتل من يبني خارج بيته : ( جَمِيعُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ الَّذِينَ يَوْجَدُونَ فِي الْحَقْلِ وَلَا يَجْمَعُونَ إِلَى الْبُيُوتِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْبَرْدُ فَيَمُوتُونَ ) .

وهذا البرد العجيب فيه نار ( ٢٤ فَكَانَ بَرْدٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ فِي وَسْطِ الْبَرْدِ . ) فما دور النار المتواصلة وسط البرد ؟ اللهم إلا إذا كانت لتخفيف البرد ! ولا ندرى كيف يرسل الله عذاباً ويضع معه ما يبطله . وليست نار رحمة كما كانت نار إبراهيم . وإن تجاوزنا عن ذلك ، واعتبرناها ناراً لا تكسر حدة البرد ، فهي تعطى الضوء ، والعذاب يكون أشد في الظلام ، وقد قيل في الطوفان ( الآية الخامسة في القرآن ، إنه مطر منهمر وسط ظلام ) . بل أن التوراة ترى الظلمة آية مستقلة ، فكيف تضعها في هذه الآية؟ وهي التي تدرى قيمتها ؟

وبعيداً عن وجود النار وسط البرد ، سنجد أن لهذا البرد قدرة خارقة ، فقد ( وَضَرَبَ الْبَرْدُ

جَمِيعَ عُشْبِ الْحَقْلِ وَكَسَرَ جَمِيعَ شَجَرِ الْحَقْلِ) وضرب الكتان والشعير (لأنَّ الشَّعِيرَ كَانَ مُسْبِلًا وَالْكَتَانَ مُبْزِرًا. ٣٢ وَأَمَّا الْحِنَطَةُ وَالْقَطَانِيُّ فَلَمْ تُضْرَبْ لِأَنَّهَا كَانَتْ مُتَأَخَّرَةً) ولا ندري كيف خالف البرد جوهره في هذا الموقف: وكيف يضرب الكتان وهو مازال بذرة في الأرض، ألا تحميها الأرض الذي يحتمي في رحمها، ألم يتجنب البرد من يبيت في البيوت، فلماذا لم يتجنب من يدفن في الأرض؟ لا تجرف البذور المزروعة في الأرض إلا بماء، لكن ليس ثمة ماء..

ولا تسأل عن الظرف الزمني للآية لأنها لم تستغرق سوى يومين.

وقد فرّق البرد بين المبيتين في البيوت، والمبيتين خارجها، فلم يضرب سوى المبيتين في الحقول: كل ما في الحقول من ناس وبهائم (٢٥ فَضْرَبَ الْبَرْدُ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحَقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبِهَائِمِ). وكذلك فرّق البرد بين المصريين وبنو إسرائيل، فكان البرد في المصريين (٢٦ إِلَّا أَرْضَ جَاسَانَ حَيْثُ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا بَرْدٌ).

أما كيف بدأت الضربة؟ فقد بدأت بقول الرب لموسى: «مُدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ بَرْدٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْبِهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ عُشْبِ الْحَقْلِ فِي أَرْضِ مِصْرَ». فما الذي حدث؟ لم يمد موسى يده، بل مد عصاه.. ٢٢ فَمَدَّ مُوسَى عَصَاهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَمَعَ ذَلِكَ حَدَّثَتِ الاسْتِجَابَةُ مِنَ الرَّبِّ (فَأَعْطَى الرَّبُّ رُعُودًا وَبَرْدًا وَجَرَتْ نَارٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَمْطَرَ الرَّبُّ بَرْدًا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ)، وإذن قد فعل موسى الصواب برغم أنه لم يلتزم بما قاله الرب.

وتبقى نقطة محيرة: إن فرعون في هذا الموقف هو من يتحكم في إطلاق بني إسرائيل، فيطلب من موسى وهارون: ٢٨ صَلِّيًا إِلَى الرَّبِّ وَكَفَى حُدُوثُ رُعُودِ اللَّهِ وَالْبَرْدُ فَأُطْلِقْكُمْ وَلَا تَعُودُوا تَلْبَثُونَ». وبعيداً عن تناقض موقف فرعون حيث يبدو مشروطاً في موقف يتوسل فيه، إلا أنه لما طلب التوقف حدد (وَكَفَى حُدُوثُ رُعُودِ اللَّهِ وَالْبَرْدُ) وخرج موسى من عنده فيسقط يديه إلى الرب (فَانْقَطَعَتِ الرُّعُودُ وَالْبَرْدُ وَلَمْ يَنْصَبِ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ)، وبذلك أصابهم بالبرد والرعود والنار ثم رفع العقاب، فانقشع البرد والرعود، ولم يرد ذكر النار، ربما لأن فرعون لما طلب رفع العذاب لم يحددها، لكن الغريب جداً أنه وإن لم ترفع النار، إلا أن ثمة شيء توقف لم تشر الآية لحدوثه إلا وهو المطر، فهل كان هناك مطر؟ إن كان ذلك فهذا هو الطوفان الذي أشار إليه القرآن الكريم، وقد تقول إنه قال (وَلَمْ يَنْصَبِ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ) أي أن المطر لم ينزل من الأساس، لكن الحقيقي أن التوراة تقر بوجود المطر، كما نجد في هذا النص (٢٤) وَلَكِنْ فِرْعَوْنُ لَمَّا رَأَى أَنَّ الْمَطَرَ وَالْبَرْدَ وَالرُّعُودَ انْقَطَعَتْ عَادَ يُخْطِئُ وَأَغْلَطَ قَلْبَهُ هُوَ وَعَبِيدُهُ. لم يذكر أنه

نزل عليهم مطر ، ثم عندما رفع العقاب ، توقف المطر .. فكيف انقطع ما لم ينزل ؟ مما يقطع أن هناك مطراً . مطر لم تعرفه أرض مصر من قبل .

وتأتي الضربة التاسعة : الجراد .. الذي لا يترك أخضر إلا ويلتهمه ، لكن هل هذا توقيت مناسب للعقاب بالجراد ، وأي شيء يلتهمه الجراد بعد أن أباد البرد في الضربة السابقة كل الزروع حتى المبذورة منها .

حقاً .. لماذا الجراد في هذا الوقت ؟ تقول التوراة : ( لِيَضَعَدَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ وَيَأْكُلَ كُلَّ عَشْبِ الْأَرْضِ كُلَّ مَا تَرَكَ الْبَرْدُ ) ولا نترك أي شيء من عشب الأرض قد بقي بعد البرد ، وقد قالت التوراة قبلاً أنه ( وَضَرَبَ الْبَرْدُ جَمِيعَ عَشْبِ الْحَقْلِ وَكَسَرَ جَمِيعَ شَجَرِ الْحَقْلِ ) .

وكان لا بد أن يفصل بينه وبين الآية التالية الجراد سنة على الأقل لينبت لهم الزرع ، حتى إذا أتى الجراد أخسرهم زرعهم ، وإلا لا فائدة من الجراد مادام سيأتي بعد الطوفان الذي أهلك الزرع .

ونحن بين أحد أمرين :

١- عدم تصديق ما فعله البرد

٢- اليقين بعدم جدوى آية الجراد لأنه جاء دون حاجة ، فما سيفعله حدث قبله .

فلا بد من واحدة منهما ، ولأن القرآن الكريم ذكر الجراد ولم يذكر البرد ، فهذا يعني أن الجراد في القرآن له وظيفة هي أن يأتي على كل أخضر في مصر ، أما الجراد في التوراة ، فجاء ولا يوجد ما هو أخضر ، فما جدواه ؟

وبذلك تبطل آية البرد :

١- لأنها سبقت بما يبطلها ، فقد قيل عنها أنها أهلك البهائم التي باتت في الحقل ، وقبلها ذكرت آية إهلاك الماشية التي أخبرت عن موت كل البهائم ، فهي تحكى عن باطل . قيل أن إهلاك البهائم

٢- لأن وجودها سيعوق آية الجراد التي اتفق عليها المصدران ، ومن ثم فهي أقوى .

مما سبق نكتشف أن آية البرد ليست من ضمن الآيات ، لأنها تضرب فيما قبلها ، وفيما بعدها .

والعجيب أن الجراد لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك : ولعل ذلك صحيح ، فقد غطى الجراد (وَجَهَ كُلُّ الْأَرْضِ حَتَّى أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ) ولا ندري كيف تظلم الأرض هل الجراد كان في الجو ، ولم يكن على سطحها .. ٢٩

وهنا تأتي الضربة التاسعة : وهي الظلام ..

21 ثم قال الرب لموسى : «مُدَّ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ لِيَكُونَ ظَلَامٌ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى يُلْمَسَ الظَّلامُ» . ٢٢ فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ فَكَانَ ظَلَامٌ دَامِسٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . ٢٣ لَمْ يَبْصُرِ أَحَدٌ أَخَاهُ وَلَا قَامَ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .

فأين الشمس ؟ لا ريب هي موجودة ، : (ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم!) . ويتشدد فرعون فيقول لموسى : («أذهب عني . اخترز . لا تر وجهي أيضا . إنك يوم ترى وجهي تموت» . ٢٩ فقال موسى : «نعماً قلت! أنا لا أعود أرى وجهك أيضاً» .

ولاشك أن هذه الضربة ليست بإجاع ما يسبقها ، فلو تمدد إنسان على فراشه ثلاثة أيام ، ما أزعجه ذلك إزعاج ضربات سابقة كالدماغ والذبان والدم .. ولاشك أن الظلام يوجع مع غيره وليس وحده وخاصة إن اقتصرته مدته على ثلاثة أيام .

ثم في أمر عجيب يعلم الرب شعبه سرقة المصريين : ٢ تكلم في مسمع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب .

وقد نفذ الشعب هذا السلب : ٣٥ وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً . ٣٦ وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم . فسلبوا المصريين .

و تأتي الضربة الأخيرة ، وبذلك تكون الآيات إحدى عشرة وليس منها آية اليد البيضاء . وهي موت الأبقار . فالرب في نصف الليل يخرج في وسط مصر من أجل أن يموت (كل بقر في أرض مصر من بقر فرعون الجالس على كرسيه إلى بقر الجارية التي خلف الرحى وكل بقر بهيمة . ٦ ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضا . ٧ ولكن جميع بني إسرائيل لا يسئ كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم . لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل .

ويطلب موسى من قومه ألا يخرج أحد منهم من باب بيته حتى الصباح ، لن الرب يجتاز ليضرب المصريين : (فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب . ) وفي نصف الليل ضرب الرب كل بقر في أرض مصر (من بقر فرعون الجالس على كرسيه إلى بقر الأسير الذي في السجن وكل بقر بهيمة . ٣٠ فقام فرعون ليلا هو وكل عبده وجميع

المُصْرِيِّينَ . وَكَانَ صَرَخُ عَظِيمٍ فِي مِصْرَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيِّتٌ .

وهنا يدعو فرعون موسى وهاروني ليلاً ، ويطلق سراح الشعب : « قَوْمُوا أَخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمْ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعاً وَادْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ . ٣٢ خُذُوا غَنَمَكُمْ أَيْضاً وَبَقَرُكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ وَادْهَبُوا . وَبَارِكُونِي أَيْضاً . »

ولن أقف عند موافقة فرعون على إطلاق الشعب ، وخروج بني إسرائيل بموافقته ، بل ويطلب من الرسولين مباركته ، فهذا أمر يقف في وجه صحته التاريخ وكل شيء حتى التوراة نفسها التي لن تلبث أن تجعل فرعون يسعى وراء القوم ، وإلا كيف يحدث غرق فرعون ..

هَلَمَّا أُخْبِرَ مَلِكُ مِصْرَ أَنَّ الشَّعْبَ قَدْ هَرَبَ تَغَيَّرَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ وَعَبِيدِهِ عَلَى الشَّعْبِ . فَقَالُوا : « مَاذَا فَعَلْنَا حَتَّى أَطَلَقْنَا إِسْرَائِيلَ مِنْ خُدَمَتِنَا ؟ » ٦ فَسَدَّ مَرْكَبَتَهُ وَأَخَذَ قَوْمَهُ مَعَهُ .

أن الترتيب التوراتي غريب ، فقد بدأ بالدم ، وانتهى بموت الأبنكار ، ولاشك أن الطوفان وحده أشد من موت الأبنكار ، فالطوفان قد يهلك أسرة كاملة ، لا واحداً فيها ، والدم قد يدمر الأمة كلها أبنكارها وغيرهم . كما أن موت الأبنكار بالنسبة للبهائم عجيب ، فكيف يموت البكر من البهائم فحسب ويبقى الباقي ، في حين قد ماتت كل البهائم قبل ذلك مرتين في ضربة إهلاك الماشية وضربة البرد .

إن البهائم لا تقنى ، فبعد هلاك كل المواشي في الضربة السادسة ، تمكن البرد من أن يقتل كل البهائم التي باتت في الحقول ، ونجت البهائم التي آوت إلى البيوت ، أية بهائم ؟ وهل أبقت الضربة السادسة شيئاً ؟ أكاد أسمع رداً يقول : إنها بهائم جديدة غير التي ماتت ، ولا يدرون أن الضربات كانت متوالية لا يفصل بينها زمن في قصة التوراة . فمادام لا يوجد زمن فاصل بين الضربات ، فكيف بقى للبهائم بعد فنائها بكر يموت في تلك الضربة .

ولا أوافق من يقول إنه الطاعون ، أو الموت ، فكل هذا ليقرب المعنى لما قالته التوراة من موت الأبنكار .

﴿ وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا  
 يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي  
 جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (النمل)

.(

وَأَلْقَى عَصَاكَ من الفعل الرباعي (أدخَلَ : يُدخِلُ ) وهو أن يكون الدخول ليس ذاتياً ، بل يكون  
 بفعل فاعل ، فاليد لن تدخل بذاتها ، بل بفعل موسى . وقد قال الله ﷻ في سياقين  
 في هذا الأمر

فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ الرؤية تتم بمجرد النظر بخلاف الإبصار يحتاج التمعن ، والضمير هنا يرجع  
 إلى العصا ، أي أن العصا مازالت عصا . لكنها أخذت صفات شيء آخر .

كَأَنَّهَا جَانٌّ استخدام التشبيه يعني أن العصا لم تتحول حقيقة إلى جان ، لكنها ظلت عصا ،  
 وأخذت حركة الجان ، فموسى لما خاف ، لم يخف من انقلاب الحية إلى شيء  
 آخر ، ولكن من بقاء العصا عصا ، لكن اكتسابها قدرات ليست من طبيعتها .

وقد جاء الحديث عن العصا في أكثر من مرة ، في إشارة إلى تحولها من هيئتها  
 الجمادية إلى هيئة حيوانية وقد استخدم القرآن الكريم كلمات <sup>١٠</sup> <sup>١١</sup> <sup>١٢</sup> .  
 fl . والبحث هنا يصر أن قوله تعالى (كَأَنَّهَا جَانٌّ) لم تتغير فيها العصا عن  
 هيئتها وظلت عصا ، لكنها تشبه شيئاً آخر يمتلك خاصية الحركة وهو الجان .

وإن قصة العصا حدثت في مكانين أحدهما بعد الآخر ، المكان الأول في سيناء  
 وكان الحديث بين رب العزة وموسى عليه السلام ، والثاني في فرعون وكان  
 الحديث بين موسى عليه السلام وفرعون . وقد ترتب عليه خوف موسى وفراره  
 من حضرة رب العزة .

﴿ ١ ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ ﴿طه﴾

﴿ ٢ ﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴿الأعراف﴾

﴿ ٢ ﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴿الشعراء﴾

- 1 } فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى ﴿٣٠﴾ [طه]
- 2 } فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ [الأعراف]
- 2 } فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ [الشعراء]

**الصورة الأولى 1:** { فَأَلْقَاهَا } : النص الأول في التجربة في الوادي المقدس طوى ، وقد كان الحديث يدور عنها قبل ذلك ، لهذا عندما طلب منه أن يلقى عصاه لم يستخدم الاسم الصريح ، لأنها كانت موضع الحديث :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْوَكْتُهَا عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنِيِّ وَلِي فِيهَا مَثَابٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ [طه]

**الصورة الثانية 2:** { فَأَلْقَى عَصَاهُ } : هذا النص في مواجهة فرعون ، ولهذا صرح بالاسم لأن العصا هي موضع المعجزة مع فرعون لهذا صرح بها . كما أن فرعون لم يكن يعرف الآية التي جاء بها موسى ، وكان الحديث يدور عنها بشكل غامض ( إن كنت جئت بآية ، فأت بها / أو لو جئتك بشيء مبین ) :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ [الأعراف]

﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ [الشعراء]

مما سبق نرى أن فرعون لم يعلم بالآية التي جاء بها موسى وطالبه بها إلا بعد أن ألقى العصا .

**الصورة الثانية 2:** { فَأَلْقَى عَصَاهُ } : : هذا النص في أيضاً مواجهة فرعون ، ولهذا صرح بالاسم لأن العصا هي موضع المعجزة مع فرعون لهذا صرح بها . كما أن فرعون لم يكن يعرف الآية التي جاء بها موسى ، وكان الحديث يدور عنها بشكل غامض ( و لو جئتك بشيء مبین ) :

﴿قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء]

مما سبق نرى أن فرعون لم يعلم بالآية التي جاء بها موسى وطالبه بها إلا بعد أن ألقى العصا .

- |   |                     |              |                    |       |           |
|---|---------------------|--------------|--------------------|-------|-----------|
| 1 | } فَأَلْقَاهَا      | فَإِذَا هِيَ | حِيَّةٌ تَسْعَى    | ﴿٣٠﴾  | [طه]      |
| 2 | } فَأَلْقَى عَصَاهُ | فَإِذَا هِيَ | ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ | ﴿١٠٧﴾ | [الأعراف] |
| 2 | } فَأَلْقَى عَصَاهُ | فَإِذَا هِيَ | ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ | ﴿٣٢﴾  | [الشعراء] |

### الصورة الأولى 1-ي: { حِيَّةٌ تَسْعَى }

مع فرعون ، وقد مرت العصا في طور التجربة بخطوتين ، فبمجرد أن ألقاها موسى تحركت واهتزت ، وقد خاف موسى عندما بدأت العصا تتحرك ، ولم تكن قد انقلبت إلى شيء ، فقد اهتزت فتوهمها موسى جانا ، ولم يقل الله : فإذا هي جان ، ليثبت تحولها إلى الصورة الجديدة ( الجان ) بل قال كأنها جان أي تخيلها هو كذلك .

﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴿١٠﴾﴾ [النمل]

﴿وَأَنَّ أَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴿٣١﴾﴾ [القصص]

ومع ذلك ولي موسى خائفا ولم يعقب لمجرد أن رأى العصا تدب فيها الحياة وتهتز ، ولم يرجع إلا بعد أن ناداه ربه باسمه ليبث فيه الطمأنينة ويقول له لا تخف ، إنك من الأمنين :

﴿يَمْوَسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾﴾ [النمل]

﴿يَمْوَسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾﴾ [القصص]

وبعد نداء رب العزة له باسمه ، وطلبه منه بالألا يخاف زال الخوف من موسى ، وحل محله الأنس بربه ، وبدأ الحوار مرة أخرى بعد عودته : فقال له :

﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُتَجَرَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه]

فهذا الموقف موقف أنس ، ولهذا نجد موسى يحاول أن يطيل الحديث مع الله . وهنا بعد أن وصل موسى إلى تلك المرحلة من الأنس بالله والرغبة في استطالة الحديث معه ، عاوده ربه العزة بالأمر مرة ثانية بأن يلقي العصا مرة أخرى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]

وبذلك جاء تطور العصا تدريجياً مناسباً لاحتمال موسى ، فعند الوهلة الأولى لن يتحمل موسى أن يرى العصا تتحول إلى حية ، فبدأ معه بأصفر حالة وهو اهتزاز العصا مع بقائها على حقيقتها كعصا ، وبرغم ذلك وبرغم أن العصا لم تتغير عن صورتها بدليل ( كَأَنَّهَا ) إلا أن موسى خاف في البداية مما يؤكد أنه ما كان ليحتمل أن يبدأ معه بالصورة الأشد خوفاً مادام لم يحتمل أدنى درجاتها .

ولم يصف القرآن العصا في حالته ( كأنها جان ) فلم يقل وصفاً للجان ، لأنه لو وصف الجان فهذا يعني أنها تحولت حقيقة إلى تلك الحالة ، بينما سيتم وصف الحية بأنها تسعى ، والثعبان بأنه مبين لأن العصا تحولت فعلياً إليهما .

وبعد اطمئنان موسى تدرج الله به ، فحولها إلى حية ، وهنا نرى دقة الوصف القرآني عندما لا يقول كأنها ، بل يقول ( فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ) مما يعني أنها انتقلت إلى صورة أخرى فعلية ، وهذا التدرج كان الهدف منه تدريب موسى ، لأن الله لا يريد لموسى أن يفاعج بمنظرها عندما يلقيها في مواجهة فرعون .

• وبذلك نرى أن الله عزوجل بعد أن عاد لموسى الاطمئنان يأمره ثانية بإلقاء العصا ، فهنا تصبح العصا حية حقيقية ، بدليل:

١. وصفها هي لا تشبيهها ، فلم يقل ( كأنها ) .

٢. كذلك بوضع جملة وصفية ( سَعَى ) ليؤكد انتقالها إلى هيئتها الجديدة ، وبذلك تدرجت التجربة إلى خطوة أكبر مما قبلها .

٢. قوله تعالى: ( سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ) ، فبرغم اطمئنان موسى إلا أنه ظل لا يمد يده إليها ، لهذا جاء أمر الله له :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ [١١] [ظه]

• أما تحول العصا إلى حالتها القصوى ( ثعبان مبین ) فقد ادخره الله للمواجهة مع فرعون ، واكتفى هنا في سيناء بتحسين موسى من الفزع من تحولات العصا .

## الصورة الثانية 2 والثالث 2 : { ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } : تطورت الحية إلى صورتها المنشودة

( ثعبان مبین ) وذلك في المواجهة الحقيقية مع فرعون ، وبذلك نرى أن العصا تحولت إلى جان أخاف موسى برغم صغره ، ثم بعد أن ثبته الله وقال له لا تخف ، اطمئن وأنس وأراد استطالة الحديث مع ربه ، وهنا تدرج الله في التجربة ، فأصبحت العصا حية تسعى . وبذلك ، وذلك لأن موسى في المواجهة الحاسمة مع فرعون ستتحوّل العصا إلى ثعبان مبین ، فلو اقتصر موسى على رؤية العصا في حالتها الأولى (الاهتزاز كأنها جان) ثم رآها مع فرعون ثعباناً مبین لفزع ، فكان لا بد من تدريبه على رؤية العصا في صورة أكبر من الجان وأصغر من الثعبان ليعتاد أن يرى العصا في مراحل نامية فلا يفاجئ عند المواجهة . ولهذا نرى أن العصا لم تتحول إلى ثعبان إلا في المواجهة الحقيقية مع فرعون وليست في التدريب الرباني لموسى .

﴿ فَأَتَتْ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝١٦ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِیْنٌ ۝١٧ ۞ ﴾ [الأعراف]

﴿ فَأَتَتْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝٣١ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِیْنٌ ۝٣٢ ۞ ﴾ [الشعراء]

■ فالعصا في مواجهة فرعون ذكرها القرآن مرتين ، وفي المرتين تحولت العصا إلى شيء ثابت ، هو الثعبان ، وبذلك لم يختلف ما رآه فرعون فلم يرها إلا ثعباناً . وفي المرتين وصفها : فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِیْنٌ . ولم يقل كأنها ، فتحولها إلى ثعبان أمر ثابت في عين الجميع ، وفي حقيقتها . وسنجد أن موسى هو الذي ألقى عصاه بذاته ، ولم يطلب ذلك منه كما حدث في حضرة الله . فقد أعطاه الله طلاقة قدرته .

عند مواجهة فرعون ، أصبحت العصا أكثر تطوراً ، فتطورت من حية تسعى إلى ثعبان . وهي هنا أيضاً قد انتقلت إلى هيئة أخرى فلم تعد عصا ، نستشف ذلك أيضاً من قوله ( فإذا هي ثعبان مبین ) ولم يقل كأنها ، ثم جاء الوصف بكلمة مبین ليرسخ انتقال العصا إلى صورتها

الجديدة . ولأن الغرض إخافة فرعون فقد جاء الوصف بكلمة مبين ، لتحقيق تلك الإخافة . وبذلك كانت المغايرة إلى الثعبان المبين هو التطور الطبيعي للعصا من أجل مواجهة فرعون بما يخيفه .

وفي المباراة الثانية مع السحرة ، لم يرد وصف العصا ، لكنه وصف ما فعله السحرة من استرهاب الناس بسحرهم ، ثم جاءت هي لتلتهم ما ألقوه ، ولا بد أنها كانت أشد هولاً من الثعبان المبين ، فماذا تكون العصا التي تبتلع عصى وحبال السحرة الذين وصل عددهم إلى قرابة سبعين ساحراً .

العصا كانت في حضرة الله : عصا تهتز تصورها موسى جاناً ولم تكن كذلك ، ثم حية حقيقية تسعى (مراعاة لشعور موسى وتدرجاً مع طبيعته الإنسانية) . وفي مواجهة فرعون كانت ثعباناً حقيقياً ثم كانت أشد هولاً في حضرة فرعون في مباراة السحرة ، ولم يصفها في مواجهة السحرة لأنها فاقت الوصف .

مما سبق يتبين لنا أن العصا مرت بثلاث مراحل في أربع مواقف : موقفين في حضرة الله مع موسى : وموقفين في حضرة فرعون مع موسى :

حالة العصا	حالة العصا	الموقف	
في التدريب ( في اللحظة الأولى) وقد خاف وهرب . بعد الإقبال والاطمئنان	شبه الجان حية فعلية	1. قبل فرار موسى خوفاً 2. بعد عودة موسى واطمئنانه	في حضرة الله
في المواجهة مع فرعون	ثعبان فعلي لم يحدد اسمها لكنه وصفها بأنها التهمت ما فعله السحرة .	3. قبل لقاء السحرة 4. مع السحرة	في حضرة فرعون

وَلَيْ مُدْبِرًا وَالتعقيب كما قال الزخشي : عقب المقاتل، إذا كرّر بعد الفرار. أي لم ينظر

حتى إلى الورا من شدة الخوف .

وَلَمْ يُعَقِّبْ  
التعقيب كما قال الزمخشري : عقب المقاتل، إذا كرّر بعد الفرار. أي لم ينظر  
حتى إلى الورا من شدة الخوف .

يَمُوسَى  
النداء من رب العزة .

لَا تَخَفْ  
هذا ليس أمر كوني من جنس ( كُنْ فَيَكُونُ ) لكنه طلب من الله ليقاوم خوفه  
، لأنه لو كان أمر كوني لمات الخوف منه إلى الأبد ، لكننا بعد ذلك نراه يتوجس  
خيفة في مواجهة السحرة :

● ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿ فَلَمَّا لَا تَخَفْ بِإِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿٦٨﴾ ( طه ) .

فقد خاف موسى بعض الشيء ثانية ، وثانية قال له رب العزة : لا تخف. وقال  
ابن عاشور : وليس في النهي حط لمرتبة موسى عليه السلام عن مراتب غيره  
من المرسلين وإنما هو جار على طريقة: مثلك لا يبخل.

إِنِّي  
القائل هورب العزة . لأنه يخاطب خائفاً فاحتاج إلى التأكيد . ولم يقل إنني  
لأن الله هنا .. يحكى الحدث بعد حدوثه ، بدليل استخدامه أي التفسيرية :  
( فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ) ، فالله √ عند الحكى عن الحادثة  
يطوي النون ، لكن عند الحدث المباشر : يفخم ويذكر ( إنني ) :

﴿ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ ( التمل ) .

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ ﴿١٤﴾ ( طه ) .

كما ترى / عبر الله √ عن نفسي في الموقف نفسه مع موسى بقوله ( إنني ) ،  
( إِنِّي ) : والفارق هو : غير المباشرة أي الحكى عن الحدث ، والمواجهة المباشرة  
أي ما حدث في الحدث نفسه .

ثم يقول رب العزة:

﴿ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ فِي تَسْعِ أَيْدِي إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا

فَوَمَا فَسِقِينَ ﴿١٢﴾ (النمل) .

لَا يَخَافُ

الفرق بين الخوف والخشية : إن الخوف ضعف في الفاعل ، فقد يخاف من شيء وهمي ، أما الخشية فاستعظام المفعول ، أما الخوف فهو ضعف في الفاعل ، ولذلك لم يطالبنا الله إلا بخشيته<sup>(١)</sup> ، لا بخوفه ، ولم تستعمل بعيداً عن الله إلا مع الخوف الشديد ، لأن أصل الخشية مأخوذ من قولهم على الشجرة اليابسة شجرة خشية . فهي ضياع كامل وفوات بالكلية . كما أن الخشية تعنى عظم المخشى ، لهذا فالجميع عرضة لها أقوياء وضعفاء ، لأنها لا علاقة لها بالفاعل ، بل بالمفعول ، ولا بد أن يكون هذا المفعول عظيماً أو رهيباً لتتحقق الخشية :

ويلاحظ أن كل استعمالات الخشية بعيداً عن الله ، كان المخشى عظيماً وهو بشكل حقيقي وهي ( الخشية من الجيوش الكثيرة<sup>(٢)</sup> ) . والهرزيمة<sup>(٣)</sup> ، وفرعون وجيشه<sup>(٤)</sup> . يوم القيامة<sup>(٥)</sup> ، الفقر<sup>(٦)</sup> . • خشية العبد الصالح من طغيان الابن على أبويه<sup>(٧)</sup> . • الرجم<sup>(٨)</sup> . • خشية هارون من

(١) مثل : **الْمِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ( ) ، **لَوْ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ( ) ، **الْمِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ** ( ) ، **لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ( ) ، **الْأَخْيَى الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ** ( ) ، **الْمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ( ) ، **فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي** ( ) ، **فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي** ( ) ، **الَّتَخْشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ** ( ) ، **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ( ) ، **وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ** ( ) ، **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ( ) ، **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً** ( ) ، **وَأَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ** ( ) ، **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ( ) .  
: **إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى** ( ) ، **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ( ) ، **وَأُوَاهِدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** ( ) ، **الْمَنْ يَخْشَى** ( ) ، **أَوْ هُوَ يَخْشَى** ( ) ، **السَّيِّدُ كَرُّ مَنْ يَخْشَى** ( )

(٢) ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ( آل عمران ) .

(٣) ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْتَرْعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ ( المائدة ) .

(٤) ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ ( طه ) .

(٥) ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَآ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْعُرُورُ ﴾ ( لقمان ) .

(٦) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مَن تَرْتَفِهِمْ وَإِنَّا نَكُنُّ مِنْ قَتْلِهِمْ كَانِ خَطَأًا كَبِيرًا ﴾ ( الإسراء ) .

(٧) ﴿ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ( الكهف ) .

(٨) ﴿ فَإِنِ آتَيْكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاحْشَهِ فَعَلَيْهِمْ نَصْفٌ مِمَّا عَلَى الْمُحْضِنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ

## غضبة موسى (١).

أما الخوف فهو أقل من الخشية ، لأنه من قولهم على الناقة المريضة : ناقة خوفاً ، وهذا نقص ، لكنه غير ميثوس منه كيبوس الشجرة ، فالآفة المرجو علاجها : خوف ، والآفة الميثوس علاجها : خشية . ولهذا فالخوف من إنسان هو خوف يمكن تحمله ، لكن الخوف من الله هو خشية لأنه لا يمكن تحملها .

وإن كانت الخشية كما قلنا يجب أن يكون المخشي منه عظيماً هائلاً وقد يكون الذى يخشاه قوياً لأن الخشية تهتم بإبراز المفعول ، فإن الخوف يتعلق بشخصية الخائف ، فالخائف يخاف بسبب ضعف فيه هو ، وقد يكون ما يخاف منه لا يستحق الخوف .

وسوف نقف على الفرق بينهما مما يأتي :

[التحل]	{ ٥٠ }	مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ	{ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ }	{ 1 }
[البرعد]	{ ١١ }	وَيَخَافُونَ سَوْءَ الْحِسَابِ	{ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ }	{ 2 }

**الصورة الأولى 1** : { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ } : يتحدث عن الملائكة ، لذلك استخدم الخوف التى تكشف عن ضعف الفاعل ، فهم مع قوتهم ضعفاء بالقياس إلى قوة ربهم الذى من فوقهم . فالملائكة : أقوياء لذلك استخدم لفظة تكشف ضعفهم أمام الله وهي لفظة الخوف .

**الصورة الثانية 2** { وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } : يتحدث عن المؤمنين ، وهم ضعفاء بشكل واضح ، فلا حاجة إلى بيان ضعفهم ، لهذا لم يستخدم مع الله لفظة الخوف التى توضح ضعفهم ، بل استخدم لفظة الخشية التى توضح عظمة الله تعالى . في حين كشف ضعفهم عندما قال ويخافون سوء الحساب .

(١) ﴿ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النساء: ٢٥) . قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (طه: ٩٤)

ولأن المؤمنين لا يشتهر عنهم قوة الملائكة ، فلم يكن ثمة حاجة لإثبات ضعفهم أمام الله ، فلم يجعلهم يخافون ، واستخدم لفظة الخشية التي تكشف إدراكهم لعظمة ربهم . وفي الوقت نفسه جمع لهم إلى جوار الخشية : الخوف ، فهم شديداً الخوف لعظم المفعول : الله ( يخشون ) ، وهم ضعفاء في ذاتهم يخافون من أى شيء دون أن يدروا كنهه ، وهل هو مخيف أم لا ، فالمؤمنون قد يكون حسابهم غير مخيف بل هذا مؤكد وبرغم ذلك يخافونه لأن الخوف لا يتعلق هنا بالمفعول ، بل يتعلق بالفاعل الذي يخشى من ذنوبه القليلة ويظنها عظيمة .

وثمة موقف آخر يوضح الفرق بين الخوف والخشية :

[فاطر]	﴿٢٨﴾	اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ	يَخْشَى	﴿٢٨﴾ إِنَّمَا	①
[طه]	﴿٢١﴾	سُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى	وَلَا تَخَفْ	﴿٢١﴾ قَالَ خُذْهَا	②

**الصورة الأولى ①** : { يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } : يتحدث عن الموقف القلبي للعلماء من الله فاستخدم الخشية ليرز عظمة المفعول ( الله ) .

**الصورة الثانية ②** { وَلَا تَخَفْ } : يتحدث عن الموقف القلبي لموسى من الحية المنقلبة عن العصا ، فاستخدم الخوف ليكشف ضعف موسى من شيء لا يستحق الخوف . لأن تحول العصا إلى ثعبان معجزة لموسى لن تستعمل ضده ، ولكنه لا يعرف ذلك فخاف منها وإن كان لا خوف منها عليه حقيقة . والدليل على أن الخوف داخل موسى ، وليس من شيء مادي فعلي ، إنه خاف مرة ثانية والعصا سلاحه ، فقد خاف أن تخذله أمام سحر السحرة :

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68)  
طه

وقد جاءت لفظة لا تخف ، طمئنة لكل خائف لا يعرف القادم ، فالخوف يلزمه جهل الخائف بما يخافه . والخشية يلزمها معرفة الخائف بما يخشاه

لَدَى استخدام لفظة الخصوصية لأن الجميع عند الله √ ، أما هنا فهو مع

موسى في لقاء خاص ، فصلحت لفظة الخصوصية .

الْمُرْسَلُونَ

يستخدم القرآن الكريم لفظة المرسلين إذا كان يقصد الكلمة بمعناها العام ، أي المرسلين على مدى الزمن ، ولذلك عندما يكذب أحدهم يعتبر الله أن القوم كذبوا الجميع<sup>(١)</sup> ، وكذلك عند التأكيد لأحدهم بأنه رسول يقول له : إنك لمن المرسلين . فلا يختلف أحد عن غيره فلفظة المرسلين عامة شاملة تشمل عائلة زمنية تشمل المرسلين على مدى الزمن . وبذلك نرى أن الكلمة مازالت تحمل الدوام الزمني . لأنهم دائمون في تلك المهمة في طول الوقت .

فالكلمة تدل على الثبات ، فكل أفرادها متساوون ، وكل أوقاتها متساوية ، وكل أدوارهم متساوية ، وما يقال على أحدهم يقال على سائرهم . لذلك لا يمكن استخدام رسل إلا في المواقف المتفاوتة بين الرسل . ولا يحل محلها المرسلون إلا إذا كانت ما يقال يعبر عن الجميع . جاءت الكلمة جمعاً سالماً : مادمت تقصد كلمة عامة ، جمعها كالمفرد ، فلا يصلح إلا الجمع السالم الذي يحفظ على سلامة الكلمة في جمعها مثل مفردها .

ولعل تلك الآية في سورة الأنعام التي جمعت بين الكلمتين معا (رُسلٌ) ، (الْمُرْسَلِينَ) تكشف عن الفرق بينهما :

● ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَمْ نَصْرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٤) (الأنعام) .

فقوله (وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ) يخاطب الله عزوجل رسوله S ، فلم يقل (مرسلون) لأنه لو قال مرسلون لحملت التعميم ، لكنه هنا يقصد رسلاً مخصوصين سبقوه مباشرة بدليل حرف الجر (من) فعند التخصيص لم

(١) ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٠٥) (الشعراء) .

● ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٣٣) (الشعراء) .

● ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) (الشعراء) .

● ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٦٠) (الشعراء) .

● ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٦) (الشعراء) .

تصلح لفظة المرسلون العامة التي لو استعملت لدلت على أن الجميع تم تكذيبهم . وهذا غير صحيح . أما عند الحديث عن نصر الله لهم ، فهذا أمر يتم مع الجميع سواء من يخبره عنهم أو من لم يخبره ، لذلك عدل عن لفظة رسل إلى اللفظة العامة التي تشمل كل المرسلين . ويكون الجمع فيها معبراً عن كل واحد .

ولذلك جاء هورب العزة . لأنه يخاطب خائفاً فاحتاج إلى التأكيد . ولم يقل إنني لأن الله هنا .. يحكى الحدث بعد حدوثه ، بدليل استخدامه أي التفسيرية : ( فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِي أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ) ، فالله √ عند الحكي عن الحادثة يطوي النون ، لكن عند الحدث المباشر : يفخم ويذكر (إنني) :

من الفعل الرباعي (أدخل : يُدْخِلُ ) وهو أن يكون الدخول ليس ذاتياً ، بل يكون بفعل فاعل ، فاليد لن تدخل بذاتها ، بل بفعل موسى . وقد قال الله √ سياقين في هذا الأمر

١. أَسَلَّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

٢. وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

فقد استعمل فعلين مختلفين ، ( اسلك / أدخل ) والسري في ذلك أن الفعل الأول تم بعد عودته من مدين ، في سيناء في ميدان التدريب قبل الذهاب إلى فرعون ، وموسى كان يلبس ثوباً مغلقاً من فتحة جيب الصدر ، لذلك فلن يدخل يده إلا بعد أن يعالج الدخول ، فعليه أن يدخلها على مهل دون استقامة ، حتى تتمكن أن تنفذ إلى الداخل ، فهنا لا يناسبها إلا اللفظة ( اسلك ) لأن السلك أن تتحرك كما يسمح لك الطريق ، فتلف معه وتدور ..

أما الثانية فسينفعلها عندما يذهب في مواجهة فرعون ، فسيكون مستعداً ، لن يكون الجيب مغلقاً أو ضيقاً ، بل يعمل موسى حسابه بأن يكون الجيب مفتوحاً ، فإذا وضع موسى يده دخلت مباشرة بدون مقاومات ، لأنه في مواجهة وقد استعد لها ، والناس لن تنتظر منه وقتاً وهو يعالج يده لتدخل تحت إبطه ، هو يريد أن يدخلها وفي لحظة يخرجها فيجدون المعجزة .

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ

وَأَدْخَلَ

فالفارق سببه أن كل فعل تم في مكان وظروف مختلفة عن المكان الآخر ، فاستعمل الفعل ( اسلك ) في التدريب لأن موسى لم يكن مستعداً ، وحتى يدخل يده في ثوب غيرمجهز لذلك يحتاج أن يعالج الأمر أما في الثانية فموسى قد ذهب مستعداً بثوب له فتحة جيب واسعة تسمح بمرور اليد بيسر ، لهذا أصبح الفعل المناسب هو الدخول الذي لا يجد مقاومة .

[القصص]	{ ٣٢ }	يَدُّكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ	أَسْلُكُ	}	1
[النمل]	{ ١٣ }	يَدُّكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ	وَأَدْخُلُ	}	2

**الصورة الأولى 1** : { أَسْلُكُ يَدُّكَ } : إن موسى قام بالاختبار مرتين ، ففي المرة الأولى مازال جيبه غير مفتوح ، فلو وضع يده ، فهو يضعها بمعالجة حتى تدخل إلى جيبه ، لهذا استعمل لفضة ( اسلك ) التي تعنى الدقة والتأني في إدخال اليد إلى الجيب . ففي هذه المرة ( الأولى ) كان موسى غفلاً عما سيطلب منه ، فهو يلبس ثوباً شبه مغلق من فتحة الجيب ، فلما فاجئه الله / وطلب منه أن يضع يده في جيبه ، لم يكن الأمر متيسراً بسهولة ، فهل في المرة الثانية لن يحرص موسى عليه السلام على أن يعد ثوبه بحيث يكون مفتوحاً ؛ ليسهل انزلاق اليد بمجرد أن يضعها ؟

**الصورة الثانية 2** { وَأَدْخُلُ يَدُّكَ } : تلك هي المرة الثانية التي سيفعلها موسى ، لكن في مواجهة فرعون ، وهو يعلم بما سيفعله مسبقاً ، لذلك حرص موسى أن يجعل جيباً مفتوحاً ليسهل انسياب اليد إليه ، بعد أن أصبح الجيب مفتوحاً بإدخال اليد في المرة الأولى ، لم يعد من اللازم استعمال ( اسلك ) لأنه تدرّب على إدخال يده في المرة الأولى ، فأصبح الإدخال سهلاً في المرة الثانية . وإن كانت المرة الأولى تحتاج إلى تأني ودقة ومعالجة ، فبعد هذا التدريب الإلهي يكون قد اكتسب المهارة ، ويصبح من السهل عليه إدخالها ثانية أمام فرعون وقومه . لأنه يكون قد تدرّب على ذلك ..

هي اليد اليمنى ، واختار تلك المعجزة لأن المصريين كانوا بارعين في السحر ،

يَدُّكَ

والسحر أوضح أموره تظهرها اليد .

.....

.....

[طه] { ٣٣ }

وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ

1

[القصص] { ٣٣ }

مِنَ الرَّهْبِ

وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ

2

**الصورة الأولى 1:** { وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ } : كان موسى يريتيدي زرمانقة من صوف ، أى جبة والجبة لا أكمام لها ، والمقصود بالجنّاح هو ما تحت الأبط ، فهو سيضم يده اليمنى لتلامس جنبه الأيسر ، ثم يضمم بالأخرى جناحه الآخر الأيمن ، أى يضع يده اليسرى على جنبه الأيمن . يقصد أن يدخل يده اليمنى ويضعها على جنبه الأيسر بحيث تلامس جسده . فهذا معنى واضمم يدك إلى جناحك ، لأن اليد هى التى تتحرك ، والجناح ثابت .

**الصورة الثانية 2:** { وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ } : يقصد أن يمد يده اليسرى في الوقت نفسه ليضم جناحه الأيمن ، وبذلك تكون كلتا اليدين على الجنبين : اليمنى على الجناح الأيسر فيتم تحويلها إلى بياض . واليسرى على الجناح الأيمن تشده ( تضممه إليه ) لتزيل عنه الرهبة . فيكون كالمحتضن نفسه . وبذلك تصبح يده اليمنى تحت إبطه الأيسر ويشد عليه ، ويبدو أن عملية البياض تتم بالضغط على اليد .



**في جيبك** الجيبة هى فتحة الصدر الأمامية ، وهو أشبه بتجار الأمس الذين كانوا يلبسون جلابيب وصديرى ، فإذا أراد أن يخرج محافظته من الصديرى أدخل يده إلى جيبه . واختار الجيب لأنه في مواجهة الناس .

الفعل ( أدخل ) فعل متعد ، أى أن الفاعل هو موسى ، واليد مفعول به ، أى موسى يقوم بالإدخال ، وهى التى تدخل ، أما هنا فالفعل المستعمل لازم ، لم يتعد ، أى

تخرج

أنك تقوم بمهمة الإدخال ، ولا شأن لك بعد ذلك ، هي تخرج من نفسها حتى لو لم يشأ موسى أن يخرجها .

بِيَضَاءٍ ملازمة للفعل ، والبياض هنا لأن موسى عليه السلام كان أسمر ، فيكون تحول اليد دون الذراع إلى اللون الأبيض دليل قاطع على معجزته .

مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ احتراساً حتى لا يظن أن ذلك مرض البرص .

فِي تِسْعِ آيَاتٍ أَي أن تلك آية واحدة من بين الآيات التسع .

إِلَى فِرْعَوْنَ استعمل فعل الإدخال الذي يفيد أن تلك المرحلة الثانية وليس مرحلة التدريب ، لهذا ناسبه أن يذكر فرعون ، لأنه لن يذهب إلى فرعون إلا مستعداً .

وَقَوْمِهِ هذه المعجزات ستكون ليست قاصرة على فرعون . سيشاهدها الناس وسيعانون منها . وفي نص سورة طه سنجد أن القرآن يفاير في المعطوف على فرعون ، فيجعلها وملائه ، ومرجع ذلك : أن موسى في الأولى أرسل برسالة خاصة فيها برهانان لمقابلة فرعون ، وهذه المقابلة الخاصة لن يحضر قوم فرعون ، بل ستقتصر على فرعون وملائه ، لهذا عند الرسالة الخاصة التي تقتصر على برهانين مع موسى استعمل الملائ لأنهم وحدهم الذين سيحضرون تلك المقابلة الخاصة .

أَي أن التسع الآيات ليست خاصة بفرعون وملائه ، بل هي له ولقومه ، أما البرهانان لإثبات نبوته فهي لفرعون وملائه خاصة .

إِنَّهُمْ هذه العبارة تقال من الله ليس لموسى ، ولكن لمحمد S ، فجاء التأكيد لأنه يحكى له ما لا يعلمه .

كَأَنَّهُمْ لأن هذه العبارة موجهة للرسول S وليس لموسى عليه السلام ، فتاسبها أن يعبر عنهم بالماضي لأنهم ماض بالنسبة للرسول ، وليسوا بالنسبة لموسى .

صيغ الخبر عن فسقهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الفسق فيهم ، وتمكنه منهم ، ورسوخه فيهم من البداية ، وأنهم ميالون إلى النزوع عن الإيمان أو أن الإيمان ثقيل عليهم ، ودلت (كان) على استمرار الصفة فيهم .

فَمَوًّا  
 إن العيب في هؤلاء الناس ، لم يكن في كونهم أفرادهم ، فهم كأفراد كل منهم متميز ، لكن عيبهم أنهم كقوم يخدعون أنفسهم بالتقرب إلى الحاكم . فقد استخفهم فأطاعوه ، وأصبح اللعالم المجتمعي غير جيد ، فهم سيرون الظلم ولن يقاوموه .. بل سيزينونه للحاكم .

واستخدام لفظة ( قوم ) ليؤكد أن الفسق ليس فردياً ، بل هو صفة متواجدة في كل فرد .

فَسِقِينَ  
 الفسق يأتي بعد استواء ، فهم لم يكونوا كذلك ، هم من جعلوا أنفسهم كذلك ، فكانوا كالثمرة الرطبة التي تنزلق من قشرتها . وقد حجب ألف الكتابة في كلمة (فَسِقِينَ) لأن الفسق ليس متساوياً عند الجميع ، فهو موجود عند الجميع لكن درجته تتفاوت من فرد إلى آخر .



## ٤ محمولات السفينة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤٠) (هود).

النص يقرر أن الله ﷻ أمر نبيه نوحاً بأن يحمل في السفينة (من كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) ومع ذلك فقد أثار بعضهم اعتراضاً على استخدام (زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) باعتبار أن لفظة (اثنين) زائدة .. وقد تكرر هذا التعبير مرتين في القرآن الكريم :

1 ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٤٠) (هود). (١)

2 ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١٧) (المؤمنون). (٢)

إن الزوج لا يعني اثنين ، بل الزوج يعني واحداً من اثنين متماثلين ، فكل واحد منهما زوج ، وهما معاً زوجان ، فلفظة (زَوْجَيْنِ) لا تعني أربعة أفراد ، بل تعني اثنين . لأن الزوج واحد . وقد جاء في سورة الأنعام الحديث عن ثمانية أزواج :

﴿ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ ﴾ (١٤٣) (الأنعام).

فلو كان الزوج اثنين لكان معنى (ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ) ستة عشر فرداً ، في حين أن القرآن لا يذكر سوى (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) ، (وَمِنَ الْأَبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ) والمجموع ثمانية مما يقطع أن الزوج لا يعني به سوى أحد المتماثلين .

أما الآية الكريمة موضع الحديث :

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٤٠) (هود).

فلو لم تتون (كُلِّ) لكان المعنى احمل من كل زوجين .. اثنين . أي احملها كلها .

(١) نص الآية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤٠) (هود).

(٢) نص الآية : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ (١٧) (المؤمنون) .

ولوقيل (أَتْنَيْنِ) بدون (زَوْجَيْنِ) لكان المعنى : احمل ذكرين أو أنثيين .

ولو استغنى عن (أَتْنَيْنِ) ، لكان المعنى : احمل فيها ذكراً وأنثى لكن يمكن أن تحمل من كل صنف أكثر من ذكر وأنثى . أما ذكر لفظه اثنين : فهي تقنين للمحمول : ( ذكراً وأنثى ) بدليل قوله (زوجين) ويقتصر العدد على اثنين فلا زيادة . فذكر العدد (أَتْنَيْنِ) تقنين لنوح ليحمل من كل صنف من الكائنات ذكراً واحداً وأنثى واحدة ، وكما قلنا لو أسقطت لفظ (زَوْجَيْنِ) وترك (أَتْنَيْنِ) لحمل نوح اثنين من صنف واحد ، ولو تركت لفظه (زَوْجَيْنِ) ولم يذكر (أَتْنَيْنِ) لحمل نوح أكثر من زوجين من الصنف نفسه . مما يكشف حاجة العبارة إلى كلتا اللفظتين ، (زَوْجَيْنِ) و (أَتْنَيْنِ) .

ولم تأت كلمة زوجين بدون وصفها (أَتْنَيْنِ) إلا في مرة واحدة :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٩) (الذاريات) .

فلو قال (أَتْنَيْنِ) لكان معنى ذلك أن الله لم يخلق سوى اثنين فحسب ، الذكور والأنثى ، أما ما جاء منهما فلم يخلقه هو ، فجاءت كلمة (زَوْجَيْنِ) بلا تحديد لتوضح أنه يقصد الجنسين الذكر والأنثى وما ينتج عنهما من ذرية . وبذلك يمكن أن تقف على الفرق بين التعبيرين :

① ﴿ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٤٠) (هود) .

② ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٩) (الذاريات) .

في ① زَوْجَيْنِ أَتْنَيْنِ : خذ اثنين أحدهما ذكر والآخر أنثى من كل الكائنات ، واطرق بقية مصدقات هذا النوع .

أما ② زَوْجَيْنِ : جاءت بدون كلمة اثنين لتعني أنه يريد مطلق الجنس ، وقد خلق من كل نوعين زوجين ، لكن لا يحدد العدد .

مما سبق نرى أن اللفظة ليست زائدة .. ولا يجوز أن يأتي التعبير إلا كذلك .

هنا تقف على ما قاله سفر التكوين من أن الرب أمر نوحاً بأن يحمل عدداً مخالفاً لما ذُكر في القرآن الكريم ، يقول سفر التكوين في أصحابه السابع :

(من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، ومن البهائم التي ليست

بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى ) تكوين ٧: ٢-٣

{ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور ، وكل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى . كما أمر الله نوحاً } تكوين ٧: ٩-٨

هذا هو الأمر الإلهي من الله لنوح بشأن محمولات السفينة ، :

١٩ وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلِ إِلَى الْفُلِّ لِاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ . تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى .

والنص يعني أمرين أن يأخذ من كل ذي جسد اثنين ، وافترقت النص إلى دقة تحديد النوع ، لفظة اثنين : لا تشترط أن يكون مختلفين ، لكن في الوقت نفسه النص يذكر علة هذا الأمر : لاستبقاء الجنس ( لِاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ ) . أي أن الاثنين لابد أن يكونا : ذكراً وأنثى . ثم جاء التخصيص بعد ذلك ليعالج ما افتقدته لفظة ( اثنين ) فقال : ( تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى ) .

وفي السطر عشرين : كرر الأمر ثانية :

٢٠ مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنَ الْبِهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنْ كُلِّ دَبَابَاتِ الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا . اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلِ إِلَيْكَ لِاسْتِبْقَائِهَا .

فمن كل دبابات الأرض ، والطيور ، والبهائم يُدخِل اثنين .. والعلة لاستبقائها ، ومرة أخرى يستخدم اللفظة الحاملة للعدد دون النوع ( اثنين ) لكن النص السابق قد عالج ذلك . كما أن لفظة لا استبقائها تشير إلى وجوب أن يكونا نوعين مختلفين .

وفي السطر التالي ( ٢١ ) :

٢١ وَأَنْتَ فَخْذٌ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعُهُ عِنْدَكَ فَيَكُونُ لَكَ وَلِهَا طَعَامًا .

والسطر السابق لا يحمل أية مشكلة ؛ لأنه أمر منطقي أن يحمل طعاماً لأهل السفينة بشراً أو حيوانات .. لكن هذا الكلام يصبح مشكلة إذا عرفنا المدة التي حددها هذا السفر للطوفان ، وهي سنة وبضعة أيام .. هنا يصبح حمل طعام يكفي لكل أنواع المخلوقات لمدة سنة أمراً شديداً الصعوبة أو الاستحالة خاصة إذا عرفنا أن السفينة كما حدد سفر التكوين أبعادها أقل من فدان ، والفدان لمن لا يعرف هو نصف مساحة ملعب كرة قدم ، فكيف يتسع نصف ملعب لكل تلك الأطعمة المدخرة لتكفي كل المخلوقات التي بقيت بعد الطوفان لمدة أكثر من عام ، إن تلك المساحة لا تكفي حتى لو خلت من المخلوقات التي ستأكلها .

وفي السطر التالي (٢٢) :

٢٢ فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللَّهُ . هَكَذَا فَعَلَ .

فهو تأكيد أن نوحاً فعل الأمر السابق : حمل نوعين اثنين من كل جنس لاستبقاء الجنس ، وحمل معها طعامها ، ولا اعتراض لنا إلا على طول مدة الطوفان الذي تجاوز السنة . فإذا انتقلنا إلى الأصحاح السابع وجدنا أمر مغايراً لما ذكره الأصحاح السادس ، يقول السطر الثاني :

٢ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ تَأْخُذُ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَرًا وَأُنْثَى . وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ اثْنَيْنِ : ذَكَرًا وَأُنْثَى .

٣ وَمِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضاً سَبْعَةً سَبْعَةً : ذَكَرًا وَأُنْثَى . لِاسْتِبْقَاءِ نَسْلِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ .

وهو نص مغاير لما سبق ، لنا معه هذه الملاحظات :

١. البهائم الطاهرة ارتفعت إلى سبعة سبعة بدلاً من اثنين ، أي أصبح عددها متضاعفاً ، وهل تكفي المساحة للطعام وحده حتى تكفي للمخلوقات بهذا العدد؟
٢. ما علة الزيادة ؟ يقول النص ( لِاسْتِبْقَاءِ نَسْلِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ ) وهل استبقاء النسل يحتاج لهذه المضاعفة التي يمكن أن يقوم بها اثنان ذكراً وأنثى ؟
٤. لو كانت العلة استبقاء الجنس ماذا يفعل الفرد الواحد ، فسبعة أي ثلاثة من نوع وثلاثة من النوع الآخر ، فما شأن السابع ؟ لا يمكن أن يكون بديلاً منتظر لنوعه ؟؟
٣. لم تتم مضاعفة البهائم التي ليست بطاهرة ، فلماذا ؟ هل لأنها غير طاهرة ليس مهماً أن يستبقى نسلها .

٤. لم يفرق في الطيور بين الطاهرة وغير الطاهرة ، فهل كلها طاهرة ؟؟

٥. لم يذكر في هذا النص ( وَمِنْ كُلِّ دَبَابَّاتِ الْأَرْضِ ) التي ذكرها في النص السابق ، ومادام لا يستخدم التعميم ، ولجأ إلى التفصيل فيجب ألا يغفل أحد المكونات .

٦. سر التقسيم لا يبدو سوى في الطهر ، فلماذا ضاعف الطاهرة ؟ هل احتياطاً لهلاك بعضها ؟ وهل غير الطاهرة لا تحتاج إلى هذا الاحتياط أم لأنها غير طاهرة فإلى الجحيم ؟؟

أما الملاحظة الأخيرة : فهي ما موقف هذا النص من الأصحاح السابق :

- ١٩ وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلِ إِلَى الْفُلْكِ لَاسْتَبْقَائِهَا مَعَكَ . تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى .
- ٢٠ مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنْ كُلِّ دَبَابَاتِ الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهِ . اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلِ إِلَيْكَ لَاسْتَبْقَائِهَا .
- ٢١ وَأَنْتَ فَخِذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُوْكَلُ وَاجْمَعُهُ عِنْدَكَ فَيَكُونُ لَكَ وَلَهَا طَعَامًا .
- ٢٢ فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللَّهُ . هَكَذَا فَعَلَ .

هل يمكن أن يجتمعا معاً .. ؟؟ لقد قال الإصحاح السابق باثنين فحسب ، وقال : ( ٢٢ ففعل نوح حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللَّهُ . هَكَذَا فَعَلَ . ) وفي الأصحاح السابع رفع العدد إلى سبعة أضعاف وأيضاً قال : ( ٥ ففعل نوح حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّبُّ ) ، فأى الأمرين فعل نوح ، لو كنت مكانه لوقعت في حيرة شديدة ، أي الأمرين للرب أنفذ ؟؟ لكن أية حيرة ، الحيرة تكون إن أمره بالأمرين ووقف حائراً لا يدري ماذا يفعل ، لكن النص يخبرنا أنه فعل كلا الأمرين بكل بساطة ..

لكننا لو مضينا مع هذا الأصحاح قليلاً ، لوجدناه مازال لم يخبرنا بما فعله نوح ، وسيبدأ نوح في التنفيذ مع قوله :

٨ وَمِنَ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ وَمِنَ الطُّيُورِ وَكُلِّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ

٩ دَخَلَ اثْنَانِ اثْنَانِ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلْكِ ذَكَرًا وَأُنْثَى . كَمَا أَمَرَ اللَّهُ نُوحًا .

فعند قيام نوح بتنفيذ أمر الله لم يدخل نوح سبعة سبعة ، بل دخل ( اثْنَانِ اثْنَانِ ) وهذا يعني أحد الاحتمالات الآتية :

١. لم يدخل سوى البهائم غير الطاهرة .
٢. نوح لم يلتزم بالأمر الإلهي الذي فرّق بين البهائم غير الطاهرة وغيرها . ورأى أن يأخذ الجميع ، لكن دون تصنيف .
٣. نوح التزم بالأمر ، لكن الأمر الإلهي لم يطلب منه سوى إدخال زوجين فحسب ، وأن الرقم سبعة سبعة لم يقل به الله ( ويؤكد ذلك أن هذا ما قاله الله في القرآن الكريم ) .

ولا رابع لهذه الاحتمالات ، والاحتمالات تعني :

١- أن السفينة لم يدخل سوى البهائم غير الطاهرة ، وهذا مستحيل عقلاً وواقعاً .

٢- أن نوحاً ثم يطع الله ، أمره بشيء وفضل آخر .

٣- أن السفينة دخلتها كل الأنواع ، ونوح التزم بأمر الله ، وأن الرقم (سبعة) مزيد ، لم يصدر من الله .

وبذلك نرى أن هذا النص ينسف ما قبله ، ويردنا لما جاء في الأصحاح السادس ، لم يدخل إلا اثنان اثنان .. وهو تعبير يعني اثنان من هذا الجنس ، ثم اثنان من جنس آخر ، وفي هذا الموقف فهي حالة دخولة ، ويجب أن تكون الكلمة منصوبة في الترجمة العربية .

وهكذا لم يدخل نوح إلا اثنين من كل نوع دون تفرقة بين الطاهرة وغير الطاهرة ، وذكر

النص هذه المرة ( وَكُلِّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ ) التي أغفلها نص السبعة .

ومرة أخرى يرجع النص إلى تأكيد ثنائية الداخلين : ففي السطرين ١٥ ، ١٦ من الأصحاح

نفسه : ١٥ وَدَخَلَتْ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلِّ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحٌ حَيَاةٍ .

١٦ وَالذَّخَالَتُ دَخَلَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ . وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ .

فمرة أخرى لم يدخل من كل ذي جسد فيه روح وحياء إلا اثنان لاستبقاء النوع كما أمره الله

. وزاد قوله ( وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ ) .

وهكذا نجد أن الأصحاح السادس ذكر العدد اثنين ، والسابع : ذكر العدد اثنين مرتين ، أي

يصبح المجموع ثلاثة مرات ، مرة يأمر الرب ، ومرة يفعل نوح ، والثالثة يخبرنا بأن ما حدث

من نوح كان مطابقاً لما أمره الرب ، ويظل النص القائل بأنها (سبعة) نشازاً وسط نصوص

الأصحاحين أنفسهما .

وبذلك يتفق العدد المذكور في سفر التكوين مع ما ذكره القرآن من أنها اثنان ،

والغرض بالقطع استبقاء النوع .



## ٥ ليست منسوخة :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة) ٢٣٤

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة) ٢٤٠

• الاختلاف في تحديد عدة المتوفى عنها زوجها ، في الأولى أربعة أشهر وعشر ليال ، والثانية حددت العدة نفسها بحول كامل .

### الرد على الشبهة :

الميل العام إلى أن الآية الثانية منسوخة ، وأن عدة المتوفى عنها زوجها كانت حولاً ثم أصبحت أربعة أشهر وعشراً . وأعتقد أن ذلك رأي قاله واحد ، واتبعه الباقون ثقةً في مكانته ، ولا أسلم برأي لم يقله الرسول ﷺ إذا لم يتسق مع النص القرآني ، ومن الوهلة الأولى أرى أن النسخ مستبعد ، وذلك لأن الآية المنسوخة جاءت بعد الآية الناسخة ، وهما في سورة واحدة ، والأولى أن يأتي الترتيب بالمنسوخة ثم بالناسخة ماداماً في سورة واحدة ، كما أن ترتيب نزول الآيتين مجهول .

ونبدأ بالآية الأولى ولنسميها آية العدة :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة) ٢٣٤

على الزوجة التي يتوفى عنها زوجها الانتظار عدتها أربعة أشهر وعشراً ، فإذا انقضت تلك المدة ، فمن حقها وليس لأحد من الأولياء أن يمنعها أن تقدم على الأمر المعروف المشهور وهو الزواج .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ

● لفظة زمنية تختص بكل عصر على حده .

ويَذَرُونَ أَزْوَاجًا ● هذه الكلمة تتحدث عن تارك ومتروك ، فالتارك هو الفاعل ( واو جماعة الرجال ) والمفعول هي : أزواج ( دلالة على أن كلمة أزواج هنا هي جمع زوج : المرأة .

● انتقل الحديث إل المتروك ، أيها الزوجات اللاتي توفى عنكم أزواجكم ، وأصبحت كل واحدة منكن متوفى عنها زوجها ، عليكن العدة ، وترويض النفس على تحمل تلك العدة وهي أربعة أشهر وعشراً . فالحديث هنا ليس موجهاً للرجال المتوفين قبل وفاتهم ، لكنه موجه للأرامل .

يَتَرَبَّصْنَ

فالعدة للمرأة ، وعليها هي أن تعد عدتها ، فهي المنوطة بذلك . واستخدم لفظة تتربص لأن نفس المرأة الفاقدة لزوجها بالطلاق أو بالوفاة تهفو إلى الزواج ، فعليها هي أن تقمع تلك النفس ، وأن تمسك زمامها لتحذ من جموحها لحين انتهاء العدة .

● الباء : ليست تأكيداً للفاعل ، لأن النفس إذا أكدت ضمير الرفع المتحرك وجب الفصل بينهما بضمير رفع منفصل ، فلو كانت تأكيداً لكان يجب أن يقول يتربصن هن أنفسهن . فالباء حرف جر أصلى . وبذلك جعل حرف الجر نفس الأرملة شخصية أخرى غيرها تتعجل الزواج ، فعلى المرأة الأرملة أن تمسك بتلك النفس المندفعة ، وأن تتحضر لقمعها .

بِأَنْفُسِهِنَّ

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

● حدد مدة العدة بالليالي ، فقد جاءت لفظة عشرا مذكرة مما يعنى أن تمييزها مؤنثاً فهي ليلة وليست يوماً . وقيل في ذلك أن ذلك عمر الجنين حتى تصبح فيه الروح : فكما جاء عن النبي S في حديث ابن مسعود أن الجنين « يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح » ، فهو يمكث (120 يوماً نطفة ، علقة ، مضغة ) وزيدت الأيام العشرة لأن تشهد نفخ الروح في الجنين . ولو كانت المرأة المتوفى عنها زوجها حاملاً وأنجبت ولو بعد وفاته بأيام فقد انتهت عدتها ولا تنتظر المدة المحددة (أربعة أشهر وعشرا) .

فَإِذَا

● استخدم إذا اليقينية لأن إذا تستوجب وجوب حدوث فعل الشرط ، وهذا يعنى تحريم جواب الشرط ما لم يحدث فعل الشرط ، ففعل الشرط مطلوب وجوباً وهو الوصول للأجل المحدد (العدة) . .

بَلَّغَنَّ

● المقصود بالأجل هو انقضاء مدة العدة المحددة . وهو مطلوب وجوباً لسبقه بإذا ، فلولم يحدث ، يعكس الجواب ويصبح : عليكم جناح أيها الأولياء لو فعلت النساء الأمر المعروف ( الزواج ) والعدة لم تتم .

أَجَلَهُنَّ

● الخطاب للفقهاء والأولياء ، وهو جواب الشرط ، فعليكم ألا تتدخلوا (مادامت المرأة بلغت الأجل ) إذا قامت هذا المرأة بالزواج . ويصبح الأمر معكوساً لو لم يحدث فعل الشرط ، فعليهن منعها من الأمر المعروف التى ستقدم عليه المرأة (المباح المعهود بعينه بعد انقضاء العدة هو الزواج ) .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

● لا جناح عليكم ، أى لا تتدخلوا لو أرادت المرأة أن تتزوج في النص الأول : ( وجاءت فيما فعلن بأنفسهن بالمعروف ) جاءت المعروف معرفة لتدل على أمر مشهور ومحدد وهو الزواج .

فِيَمَا فَعَلْنَ

● دمج الحرفين يعني ( في كل ) . واستخدم لفظة الفعل لا العمل لن العمل متكرر كالحرفة ، أما الفعل فمرة أو مرتين .

فِي أَنْفُسِهِنَّ

● أي كل واحدة في نفسها ، وجاء بجمع القلة لأن المخاطبات ليست كل النساء بل بعضها أو القليل منها . ولو أراد كل الناس لا تستخدم لفظة ( نفوس ) .

بِالْمَعْرُوفِ

● جاء المعروف معرفة ليدل على أمر محدد ومقصود واستخدمت معه (أل ) العهدية لتشير إلى وجه واحد بعينه هو الزواج . إن الأرملة من حقها أن تفعل أشياء مستساغة كثيرة ، لكن لو أردنا شيئاً واحداً فحسب ، وسألت كل إنسان على حده : اذكر شيئاً واحداً لا تختلف فيه مع غيرك يمكن أن تفعله الأرملة بعد انقضاء عدتها ويكون حلالاً لا يعترض عليه الناس . إن الإجابة المتحددة للناس لن تخرج عن : الزواج . لأنه لا مستساغ مشهور سواه . فالمعروف هو تزوج الأرملة بعد انقضاء عدتها ، وهذا هو سبب التشديد في استخدام أداة الشرط اليقينية (إذا بلغن) ليكون التزوج قائماً على يقين وهو انقضاء العدة . فالعبارة

جواب شرط، أما الشرط فهو إتمام المرأة لعدتها ولا جناح بعد إتمام المرأة لعدتها فيما تفعله في نفسها بأمر الله المشهور وهو التزوج بعد انقضاء العدة.

• وجاءت الباء للإلصاق .. ليلتصق بهذا الأمر، وكأن الأمر المحبب أن تتجه إلى الزواج بعد انقضاء العدة لما في ذلك من إحسان للأرملة.

• استخدم لفظة الجلالة لأنه في سياق تقرير حقوق ، فلم يستخدم لفظة الرب حتى لا يحدث إطماع في تخطى تلك الحدود .

وَاللَّهُ

• استخدم لفظة الجلالة لأنه في سياق تقرير حقوق ، فلم يستخدم لفظة الرب حتى لا يحدث إطماع في تخطى تلك الحدود . واستخدم الفعل (تَعْمَلُونَ) لأنه لا يقصد الأفعال التي تتم بشكل قليل ، لكنه يقصد الأعمال التي يتم مداومة عليها .

بِمَا تَعْمَلُونَ

• إشارة إلى أنه مطلع على الأعمال الخفية .

خَيْرٌ

## تحليل السورة الثانية :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة) .

والذين يتوفون ويتركون أزواجاً إذا أحسوا بالوفاة فعليهم أن يوصوا وصية لهذه الزوجات تنص بتمكينها من السكنى في بيته بعد وفاته حولاً كاملاً ، ينفق عليها من ماله ، ويشدد على الأهل بعدم إخراجها جبراً ، فإذا أرادت الخروج بإرادتها والانتقال إلى بيت آخر ، فلها ذلك ، وتصبح كسائر النساء تفعل ما يفعلن ولا يعترض تصرفاتها أحد مادامت في حدود الشرع المتعارف عليه .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ

• لفظة زمنية تتكرر بتكرار الزمن .

والحديث هنا عن حالة وفاة الرجال ، فيالسابقة ، قال في هذه الحالة على النساء فعل كذا .. هنا .. سيقول : على هؤلاء الرجال أن يتركوا وصية لأرامهم

من بعدهم ، وهذا معنى أن الرجل قبل وفاته أن يترك وصية من أجل زوجته .

● **وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا** ● الجملة الفعلية فيها فاعل ومفعول ، فالفاعل هي واو الرجال ، والمفعول هي

أزواج ، وهي كلمة مشتركة للرجال والنساء ، وهي هنا النساء .

● **وَصِيَّةً** ● على المتوفى أن يوصى لزوجته وصية . جاء المصدر منصوباً دلالة على أنه

ناب مناب فعله الأمر ، أي يا أيها الرجال يا من تتركون بوفاتكم نساءكم عليكم ترك وصية لأهلكم لرعاية تلك الزوجة .

● **لِأَزْوَاجِهِمْ** ● الوصية تترك للزوجات ، ولفظة أزواج هنا يقصد بها الأرامل بدليل إضافتها

لضمير المذكر (هم) ولو كان مقصود بها الرجال لقليل : لأزواجهن .

● **مَتَاعًا** ● مفعول به للمصدر وصية ، والتقدير النحوي : أوصوا متاعاً ، والمعنى : أيها

الزوج : أوص أن تمتع زوجتك في بيت عاماً كاملاً .

● **إِلَى الْحَوْلِ** ● الحول هو سنة كاملة تبدأ من اللحظة التي أنت فيها إلى ما يماثلها بعد سنة .

● **غَيْرَ** ● حال . (غير مخرجات) متاعاً لا يصاحبه إخراج .

● **إِخْرَاجٌ** ● استكمال الوصية ، استعمل المصدر إخراج ( وفعله أخرج ) فالنفي لا ينصب

على خروجهن ، بل على إخراجهن بواسطة أهل الزوج .

● **فَإِنْ خَرَجَنَّ** ● استعمل إن الشكية الاستيعادية التي تفيد أن فعل الشرط ليس حتماً ، ولا

يشدد على حدوثه ، فجواب الشرط غير مترتب عليه وحده ، فكل ما لا يستنكر

من أفعال النساء مباحة لها سواء خرجت أو لم تخرج . واتجاه الآية يؤثر عدم

الخروج مع إباحة الجواب برغم عدم تحقق الشرط ، فهو يبيح لها الخروج

(حق لها) أما الفضل فهو البقاء في بيت زوجها حتى انقضاء الحول وهو يتسق

مع قوله تعالى: **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى** (٣٣) (١)

فالمعنى أن الله برغم إباحتها لهن الخروج إلا أنه يجهد ألا يفعلن ذلك ، لكن لو

شاءت الخروج لكن لو شاءت الخروج فلها ذلك ، لكن لا يكون خروجها إخراجاً

أى جبراً من أهل المتوفى . وجاء الفعل مجرداً غير مزيد ليبدل على أن الخروج

(١) الأحزاب: ● ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ (الأحزاب) .

بإرادتها ، بخلاف المصدر (إخراج ) المنهى عنه فهو خروج جبري قسراً عنها لأنه من الفعل المزيد (أخرج) . ولا تصلح المدة عدة أبداً ، فلو كان الحول هو العدة فكيف يبيح لها الخروج قبل انقضاء الحول ؟

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۗ ﴾ (البقرة) (٢٣٤)

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۖ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۗ ﴾ (البقرة) (٢٤٠)

• والمغايرة الآتية توضح الفرق بين استعمالها أداة الشرط :

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ	فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ	{	١
فَإِنْ حَرَجْنَ	فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ	{	٢

الصورة الأولى ① : { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ }<sup>(١)</sup> : استخدم إذا لأن بلوغ الأجل لابد أن يحدث ، فجاءت يقينية .

الصورة الثانية ② : { فَإِنْ حَرَجْنَ }<sup>(٢)</sup> : استخدم إن : شكية لأنه لا يريد منهن الخروج ، وهو يتناسب مع قوله تعالى : ( ... وقرن في بيوتكن ... ) ، فهو استبعاد نفسي .

## فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

• خطاب للأولياء: لا حجر على زوجة خرجت من بيت زوجها قبل انقضاء الحول مادامت أفعالها مستساغة غير منكورة .

• فصل اللفظين دلالة على البعضية بخلاف الآية السابقة وصل اللفظين دلالة في ما على الكلية . أي لا جناح عليكم في بعض أفعالهن .

(١) سورة البقرة : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۗ } .

(٢) سورة البقرة : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۖ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۗ } .

فَعَلَنَّ

● استخدم لفظة الفعل لا العمل لن العمل متكرر كالحرفة ، أما الفعل فمرة أو مرتين .

فِي أَنْفُسِهِنَّ

● أي كل واحدة في نفسها ، وجاء بجمع القلة لأن المخاطبات ليست كل النساء بل بعضها أو القليل منها . ولو أراد كل الناس لا استخدم لفظة ( نفوس ) .  
● والمغايرة الآتية توضح الفرق بين الاستعمالين في كلمة معروف :

1	{ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ }	فِيمَا فَعَلَنَّ	فِي أَنْفُسِهِنَّ	{ ٣٣٤ }	[البقرة]
2	{ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ }	فِي مَا فَعَلَنَّ	فِي أَنْفُسِهِنَّ	{ ٢٤٠ }	[البقرة]

**الصورة الأولى 1-ى :** { فِيمَا فَعَلَنَّ }<sup>(١)</sup>: القرآن في كتابته الخطية يدمج بين الكلمتين إذا كان يقصد الكلية ، ولأنه يتحدث عن المرأة بعد انتهاء عدتها ، في كل ما تفعله للانتقال إلى حياة جديدة وزوج جديد بشرط لا تخالف ما تعارف عليه الناس .

**الصورة الثانية 2-ة :** { فِي مَا فَعَلَنَّ }<sup>(٢)</sup>: الفصل بين الكلمتين يدل على البعضية لأنه يتحدث عن أرملة تعيش في بيت زوجها بعد انتهاء عدتها

● كل ما هو غير منكر من تصرفات النساء مباح لها ، ولا يقصد الزواج ، ولو قصده لقال بالمعروف كما فعل في الآية السابقة الخاصة بالعدة ( بالمعروف ) فالمرء الذي تفعله النساء بعد انقضاء العدة هو الزواج .

جاءت نكرة لأن لأنه لا يقصد أمراً محدداً معهوداً بعينه لكي يستخدم ( ال العهدية ) ، فهو يقصد وجهاً من الوجوه التي لهن أن يأتينه فهي تحتمل كل المور المباحة لها ( عمل ، تزين ، ) ، ويصبح المعنى : لا جناح على المرأة فيما تفعله من أفعال يجيزها الشرع ، وجاءت كلمة ( مَعْرُوفٍ ) لتؤكد على شرعية تلك الأفعال ، وأنها مما تعارف عليه الناس ، وجاءت ( مِنْ ) قبلها للتبويض . أي يبيح كل الأفعال ، فكل فعل من هذه الأفعال تفعله هو حلال .

(١) سورة البقرة: { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلَنَّ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } { ٣٣٤ } .

(٢) سورة البقرة: { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلَنَّ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } { ٢٤٠ } .

أو إذا فعلت أي شيء غير الزواج بعد خروجها من بيت زوجها من أشياء لا يعترض عليها الشرع ، فلو أرادت العمل التجارة أو غير ذلك ، ليس للأولياء منعها من ذلك . مادام ما تفعله غير مناف لأوامر الدين ، وجاءت كلمة معروف نكرة لأن ما يباح للأرملة من أشياء غير الزواج ليس أمراً واحداً محدداً .

• والمغايرة الآتية توضح الفرق بين الاستعمالين في كلمة معروف :

[البقرة]	{ ٢٣٤ }	بِالْمَعْرُوفِ	} فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ	1
[البقرة]	{ ٢٤٠ }	مِن مَّعْرُوفٍ	} فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ	2

**الصورة الأولى 1** : { بِالْمَعْرُوفِ }<sup>(١)</sup> : فالعبارة جواب للشرط ، أما الشرط (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ) فهو إتمام المرأة لعدتها ولا جناح بعد إتمام المرأة لعدتها فيما تفعله في نفسها بأمر الله المشهور وهو التزوج بعد انقضاء العدة. فلفظة المعروف تشير هنا إلى التزوج بعد انقضاء العدة، وجاءت معرفة بآل لأنه أمر محدد مقصود. وجاءت الباء للإلصاق .. ليلتصق بهذا الأمر، وكأن الأمر المحبب أن تتجه إلى الزواج بعد انقضاء العدة لما في ذلك من إحسان للأرملة.

**الصورة الثانية 2** : { مِنْ مَّعْرُوفٍ }<sup>(٢)</sup> : جاءت معروف نكرة لأنه أكثر من أمر مباح لهن، فمعروف هنا تعني: لا جناح على المرأة فيما تفعله من أفعال يجيزها الشرع، وجاءت كلمة (معروف) لتؤكد على شرعية تلك الأفعال، وأنها مشهورة شرعاً الله فأصبحت مشهورة. وجاءت (مِنْ) قبلها للتبويض. أي يبيح كل الأفعال، فكل فعل من هذه الأفعال تفعله هو حلال.

**\*\* المعروف** : بالوجه المعروف شرعاً الذي أبانه الله لهم.

**معروف** : وجهاً من الوجوه التي لهن أن يأتينه.

(١) سورة البقرة : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } { ٢٣٤ } .

(٢) سورة البقرة : { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } { ٢٤٠ } .

وَاللَّهُ

● استخدم لفظة الجلالة لأنه في سياق تقرير حقوق ، فلم يستخدم لفظة الرب حتى لا يحدث إطماع في تخطى تلك الحدود .

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ● عزيز: أى غالب ينتقم ممن لا ينفذ ما يقول ، حكيم : يضع انتقامه في مكانه ، فلا ينتقم إلا بحق . فكأنه يقول فإن زللتهم عما أقول فإنى عزيز حكيم ، ولم يستعمل هنا : غفور رحيم : حتى لا يغرى الناس بالزلل .

من التحليل السابق يتبين لنا عدم التعارض تماماً بين الآيتين ، وأن الأولي تحدد عدة الأرملة التي يحق لها التزوج بعدها . أما الثانية فهي وصية يتركها الزوج لأقاربه بشأن بقاء زوجته بعد وفاته حولاً تظل فيه سيدة منزلها ، لا يجوز لهم إخراجها منه ، فإذا شاءت هى الخروج فلها ذلك ، ولها الحرية في فعل كل ما تفعله النساء مادام الناس تتعارف عليه بأنه بعيد عن المنكر .

إن النص الثاني لا شأن له بالعدة :

١- الخطاب للمتوفي قبل وفاته ، والعدة تختص بها الزوجة التي توفي عنها ، فلو كان المقصود العدة لخاطب الزوجة كما فعل في النص الأول عندما خاطب أرملة وطالبها بالتربص بنفسها .

٢- المدة المحددة في النص الثاني حولاً ، فلو قصد به العدة فهي عدة مدة سنة مع البقاء في بيت الزوج ، ولم تذكر لنا الكتب حادثة واحدة أمضت فيها الزوجة التي توفي زوجها عاماً كاملاً . وخاصة أن السورة مدنية وتاريخ المسلمين في المدينة تحت الضوء .

٣- تبيح الآية لهن الخروج : فكيف تكون المدة عدة لها ، ويبيح لها أن تخرج قبل انقضائه ؟ فهذا معناه أن تتزوج قبل انقضاء الحول بنص الآية ، ومن المستحيل أن يحدد الله أجلاً ويأمر في الآية نفسها بعدم الالتزام به . ولو خرجت بعد أيام فقد أبيع لها ذلك . مما يعنى أن الآية لا تقصد العدة ، بل إكرام الزوجة بالبقاء في بيت زوجها عاماً إلا أن شاءت هى الرحيل ، ولو كان الأمر بشأن العدة ما جعل الأمر راجعاً إلى مشيئتها ، بل فرضه قسراً عليها ، لأن الله لا يدرى بنفسها وتشوقها إلى الزواج وهذا ما جعله يستخدم في النص الأول الصريح بذكر العدة لفظة ( يتربصن ) .

٤- استخدم في آية العدة ( المعروف ) معرفاً بأل العهدية ، واستخدم في النص الثاني النكرة ، واليون واسع بينهما ، فالأول كالعالم ، والثاني كل مستساغ ممكن .

٥- استخدم في آية العدة ( إذا ) الشرطية التي توجب حدوث فعل الشرط أولاً قبل إجازة الجواب ، ففعل المعروف معلق بيقينة فعل الشرط ، فلو لم نتأكد من انتهاء مدة العدة فلا إجازة للمعروف التي ستفعله . في حين استخدم في النص الثاني إن الشكية ، التي تعنى عدم اشتراط حدوث الفعل .

٦- الفعل المستخدم في النص الأول يؤكد أن المرأة لا يجوز لها المعروف إلا بعد انقضاء العدة ( فإذا بلغن أجلهن ) . أما النص الثاني فالمنهي عنه الإخراج الخارجي الصادر من أهل الزوج بدليل قوله ( غير إخراج ) ، لكن الخروج الإرادي منها مباح ، وهذا يعنى أن فعل الشرط المستخدم ( فإن خرجن ) يجيز لها الخروج قبل انقضاء العدة . ولو كان النص الثاني خاص بالعدة لشدد على وجوب بلوغ الأجل ، وليس بإباحة الخروج قبل انتهاء المدة ، خاصة وأنه أباح لها أن تفعل المعروف بمجرد خروجها ، فهي ستخرج قبل انتهاء المدة ويباح لها المعروف ، فلو كان المعروف الزواج لكان الله يبيح لها الزواج قبل انتهاء الحول ، ولأنه لم يحدد متى تخرج ، إذن يجوز لها الزواج متى شاءت . ولذلك نظلم الآية لوجعلنا لفظة معروف النكرة تعنى الزواج ، فهي من حقها الخروج وممارسة كل حلال للمرأة دون أن يكون هذا المعروف هو الزواج ، وإلا لجاء به معرفاً .

٧- إن كانت لفظة معروف لا تعنى الزواج ، ولا بد ألا تعنى الزواج ، لأنها لو عنيت الزواج لكانت العدة المنهى عنها قد أبيع للمرأة أن تتزوج فيها قبل انقضائها ، وإذا اتفقنا أن معروف النكرة لا يعنى الزواج ، لا يكون الحول عدة ، لأنه لم يغلقه بزواج .

٨- لو كانت الآيتان يتحدثان عن موقف واحد : هو عدة المتوفى عنها زوجها ، ما اختلف الخطاب ، ولا الفاعل ، ولا التعريف أو التنكير ، ولا أداة الشرط ، ولا فعل الشرط ولا نهايات الآيات . وما شأن الزوج الذى توفى في عدة زوجته ؟ لقد توجه لأهله بإكرامها وشدد عليهم ألا يجبروها على الخروج ، وأباح لها أن تفعل ما تشاء بعد الخروج لو أرادت وليس لأحد أن يمنعها .

لو كانت العدة في إلزامها حولاً في بيت الزوج فقد حرم الإخراج الجبري وأباح الخروج

الإرادي منها قبل إتمام الحول ، فمن المستحيل أن يكون ذلك عدة ويباح لها الخروج قبل إتمامها .

إن العدة حكم بالانتظار ، وهذا نراه في لفظة ( يتربصن بأنفسهن ) في النص الأول ، ولا يمكن أن تقدمه لفظة ( متاعاً إلى الحول ) . فالعدة معاناة وقيود ، والمتاع نعمة .

إن العدة تفعلها المرأة وهذا ما نراه في النص الأول ( يتربصن بأنفسهن ) ، أما في النص الثاني فالأمر موجه إلى أهل الميت ( غير إخراج ) ، ومن ثم لم يأمر المرأة بشيء بل لها الخروج ، لكن الممنوع هو الإخراج . وهذا يعني أن المرأة لم تأمر بعدة ، بل الذي أمرهم الأهل ، وليس للأهل عدة ، بل لهم تركها تبقى في البيت ، مما يعني أن النص الثاني هو وصية لتكريم الزوجة لا لعدتها . وأن النص الذي حدد العدة هو النص الأول ، ولو لم يأت لما كان هناك عدة للمرأة المتوفى زوجها ، لأنه سمح لها بالخروج قبل إتمام الحول ، لكن منع ذلك على أهل الزوج ( فليس لهم أن يخرجوها ) .

إن العدة لا يجوز انتهاكها ، وهذا نراه في النص الأول : يباح لهن الحلال بشرط أن يبلغن أجل العدة ( أربعة أشهر وعشرا ) ، ولا نراه في النص الثاني الذي يجعل الشرط لفعل الحلال عدم الوصول إلى الحول ( غير إخراج ، فإذا خرجن ) .

المباح بعد العدة الزواج ، والزواج أمر كالعلم في الحياة الزوجية ، فاستخدام أُل العهدية تجعل هذا المباح هو الزواج لا غيره لأنه العلم في هذا السياق ، وقد رأينا ذلك في النص الأول ، إذا جاء المعروف محلياً بأُل العهدية ليشير إلى الزواج الذي أبيض بعد إتمام المدة . ولم نجد ذلك في النص الثاني ، فقد جاء الحلال نكرة مما لا يشير إلى أمر بعينه ، مما يعني أنه ليس الزواج ، ومن ثم فلا غضاضة أن يتم قبل انقضاء الأجل المضروب ( الحول ) لأنه أبيض لها أن تفعل هذا المعروف قبل انقضاء الأجل ، فلو كان هو الزواج ما أبيض لها ، ولو أبيض لكانت العدة لهواً ، فلم يكن المعروف النكرة إذن هو الزواج ، ومادام كذلك فهو ليس غاية الحول ، إذن ففى النص الأول : جعل غاية انتظار المدة إباحة الزواج ، ولم يكن إباحة الزواج هو الغاية في النص الثاني مما يعني أنها ليست العدة ، ولو كانت العدة لكان الغاية منها هو إباحة الزواج ، وليس إباحة التزين أو العمل أو ..

كما أن الآيتين لا تتفقان سوى في المبتدأ (وَالَّذِينَ يُتَوَقَّاتُ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَرْوَاجًا) ، ولا يمكن أن نرى في الحديث عن أحد حديثين تناقضاً لمجرد اتحاد المبتدأ ، فقد نتحدث عن المتقين في أكثر من موضع ، ولا يكون أحدهما ناسخاً للثاني ، بل يمكن أن يحدث الأمران معاً .

تختلف الآيتان بعد المبتدأ (وَالَّذِينَ يُتَوَقَّاتُ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَرْوَاجًا) فيما يلي :

الثانية	الأولى	الخطاب
للرجل قبل وفاته	للمرأة بعد وفاة زوجها	المطلوب
وصية يتركها زوجها قبل الوفاة	سلوك تفعله المرأة	الغرض
تكريم لها	عدة لها	المنفذ للأمر
أهل الزوج	المرأة ذاتها	الوصية
عليهن أن يسمحوا للزوجة بأن تبقى في بيت زوجها حولاً كاملاً وليس لهم أن يخرجوها	عدة قدرها أربعة أشهر وعشر ليال لا يجوز لها الزواج إلا بعد انقضائها	المرأة
مفعول ( غير إخراج ) ولو كانت فاعلاً لقال ( غير خروج )	فاعل ( يتربصن )	الشرط
الخروج قبل انتهاء الحول	بلوغ الأجل أى انتهاء العدة	الأداة
إن ( قد لا تختار المرأة الخروج )	إذا ( يقينية الوصول للأجل )	الأولياء
يسمح لها بكل معروف	يسمح لها بالمعروف	المقصود بالمعروف
جاءت نكرة لتشير إلى كل مستساغ تفعله .	المعروف جاءت معرفة بأل لتشير إلى الزواج تحديداً .	الله
يحذر من الغدر بالوصية .	يحذر من المخالفة لأنه خبير بالبوطن .	

مما سبق نجد أن لا اتفاق في الآيتين سوى في المحور المتحدث عنه ، وهو المتوفى الذي يترك زوجة . ولأنه جاء على هيئة الاسم الموصول اعتقدوا التطابق ، وأن الخبرين عن شيء واحد ، لكن الظاهر من المقارنة أن الآية الأولى تتحدث عن العدة التي تنتظرها الأرملة دون زواج ، والثانية الوصية التي يتركها المتوفى لأهله بشأن زوجته . وسوف نقوم بتحليل كل آية على حدة ،



## ٦ زيادة لفظة مفتريات:

تحدى القرآن الكريم الكافرين بأنوا يأتوا بعشر سور مثل القرآن ، لكنه قال (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ) ، وقد يرى البعض أن القرآن هنا يقر على نفسه بأنه مفترى .. هذا المبحث يتناول لفظة (مُفْتَرِيَاتٍ) في هذا الموضوع: { أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [هود]

لماذا قال الفعل (قل) ؟ لأن الله لا يرد على الكافرين بشأن كتابه ، ولكن بشأن قل اختيار رسوله ، فعند الحديث عن صدق الرسول S ، لا يترك نبيه يدافع عن نفسه ، أما عند الحديث عن صدق كتابه ، فيعلم الرسول S الرد ويتركه يدافع عن كتاب الله . ولذلك نجد أن الله لا يترك للنبي أن يدافع عن الكتاب هنا لأن الكلام عن القرآن ، بينما في نص آخر يرد الله بنفسه على الكافرين : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة]

وتلاحظ في النص الأخير أن الله هو المتحدي وليس نبيه ، وإمعاناً في التحدي نزل في تحديه إلى الحد الأدنى (سورة واحدة) . فيقول للكفار : إن شككتم في تلك النبوة فلتأتوا بشخص يقول ولو سورة واحدة من نمط هذا القرآن ، وادعوا من يشهد بوجود هذا الشخص . لذلك جاءت من البعضية إمعاناً في التحدي ، وأنه لا يطلب منهم شيئاً كبيراً ورغم ذلك سيعجزون .

- |          |        |               |      |   |   |
|----------|--------|---------------|------|---|---|
| [هود]    | { ١٣ } | قُلْ فَأْتُوا | قُلْ | { أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ }                                 | 1 |
| [يونس]   | { ٣٨ } | قُلْ فَأْتُوا | قُلْ | { أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ }                                 | 2 |
| [البقرة] | { ٢٣ } | قُلْ فَأْتُوا |      | { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا } | 3 |

**الصورة الأولى 1-ى :** { قُلْ } : لأن الكافرين يتقولون على القرآن ، فالله يعلم نبيه الرد عليهم ، فالله لا يرد على الكافرين مباشرة ، لهذا جاءت لفظة قُلْ لتوضح أن الكلام موجه للنبي ليتولى هو الرد على الكافرين .

**الصورة الثانية 2-ة :** { قُلْ } : أيضاً في هذا النص ، الكافرون يتقولون على القرآن ، فالله يعلم نبيه الرد عليهم ، فالله لا يرد على الكافرين مباشرة ، لهذا جاءت لفظة قُلْ لتوضح أن الكلام موجه للنبي ليتولى هو الرد على الكافرين .

**الصورة الثانية 3-ة :** { } : خلت الآية من لفظة قُلْ لأن الله هو المتحدى بذاته ، وهو الذى يتولى مخاطبة الكافرين ، فلم يترك لنبيه الفرصة للرد عليهم هذه المرة ، لأنه يتركه يرد عندما يتقولون ، ويدعون أن النبى قد افترى القرآن من عند نفسه ، هنا فالله يعهد لنبيه بالرد ويعلمه كيف يفحمهم بالرد ، أما هنا فنحن لسنا في سياق الرد على أقوالهم ، بل الله يرد على حالهم المتشككة . وإذن ذكر قُلْ عند الرد على تقولاتهم ، وحذفها عند تحدى الله لهم مباشرة .

■ . . . . .

بِعَشْرِ استخدم هنا لفظة (عشر) بينما في السورتين الأخريين استخدم سورة ، والمغايرة توضح سر الاستخدام :

ذكر التمييز في هذه الآية ولم يذكرها في سورة الأنعام :

1 { فَأَتُوا } { بِعَشْرِ سُورٍ } { مِّثْلَهُ } [هود]

2 { فَأَتُوا } { بِسُورَةٍ } { مِّثْلَهُ } [يونس]

3 { فَأَتُوا } { بِسُورَةٍ } { مِّنْ مِّثْلِهِ } [البقرة]

**الصورة الأولى 1-ى :** { بِعَشْرِ سُورٍ } : { بِعَشْرِ سُورٍ } ولم يقل (بِسُورَةٍ) ؟ أما في سورة

هود فقد زاد العدد ليأتوا (بِعَشْرِ سُورٍ) لأنه جاراهم في زعمهم بأن القرآن مفترى ، فقال لهم مادام هو مفترى وليس من عند الله ، فهو سهل عليكم ، فهاتوا عشر سور من هذا النوع المفترى .. أى أنه طالبهم بعشر سور مراعاة للافتراض الذي جاراهم فيه وهو أن القرآن من وضعه هو : مفترى ) . يتناول دعوى الكفار بأن القرآن من افتراء محمد ، فقال لهم لو كان القرآن مفترى كما تزعمون فما المانع لكم عن معارضته فائتوا بسورة مماثلة ، ولم يأت بمن التبعية ، فقد أتى بها ليسخر من عجزهم وأنهم سيعجزون رغم أنه لم يطلب إلا قليلاً . وهنا لم يأتى بها لأنه أيضاً يسخر من عجزهم ، فقد جاراهم في مقالتهم ، مادام مايقوله محمد مفترى فلن يصعب عليكم أن تأتوا بمثله ، ولم يذكر من ، لأنه مادام مفترى فهو سهل عليهم ، وإن عجزوا عن السهل المفترى فهو ليس بمفترى . والعجز عن الإتيان بمثل المفترى يتساوى مع العجز عن الإتيان بمن مثل القرآن .

**الصورة الثانية 2ة :** {بِسُورَةٍ} : نزل في التحدي للحد الأدنى لأن الله √ يدري أن قرآنه معجز لا يمكن لأحد أن يأتى بسورة مثله فلماذا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة تماثله .

**الصورة الثانية 3ة :** {بِسُورَةٍ} : الله هو القائل ، لهذا إمعاناً في التحدي نزل في تحديه لهم إلى الحد الأدنى (سورة واحدة) . يتناول شك الكفار في نبوة محمد S ، فيقول لهم : إن شككتم في تلك النبوة فلتأتوا بشخص يقول ولو سورة واحدة من نمط هذا القرآن ، وادعوا من يشهد بوجود هذا الشخص . لذلك جاءت من البعضية إمعاناً في التحدي ، وأنه لا يطلب منهم شيئاً كبيراً ورغم ذلك سيعجزون.

سُورٍ لماذا ذكر التمييز في هذه الآية ولم يذكرها في سورة الأنعام :

1	{ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ	عَشْرُ	أَمْثَالِهَا	{ ١١٠ }	[الأنعام]
2	{ فَأَتُوا	بِعَشْرِ سُورٍ	مِثْلَهُ	{ ١٣ }	[هود]

**الصورة الأولى 1ة :** {عَشْرُ} : يقرر الله √ أن الحسنه جزاؤها عشرة أضعاف . وقد جاء العدد (عَشْرُ) لأنه الغاية القصوى من المضاعفة ، وقد جاء بدون التاء أي ليس على أصل بنائه ليتجه للفرع المؤنث ، ثم جاء بعدها بما يخالف التأنيث فقال (أَمْثَالِهَا) وهي

كلمة مذكرة ؛ لأن التذكير والتأنيث يرجع إلى المفرد ، والمفرد (مثل) مذكر . والتمييز يجب أن يكون مؤنثاً ليطابق العدد الذي ابتعد عن أصل بنائه بحذف تائه . وهو مفهوم مما قبله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ) فالتقدير من جاء بالحسنة فله عشر حسنات أمثالها ، وبذلك يكون إعراب كلمة (أَمْثَالَهَا) نعتاً للتمييز (حسنات) المحذوف ، وقد قامت الصفة مقام الموصوف ، وهو رأى الزمخشري (١) .

**الصورة الثانية 2:** { بَعَثَ سُورٍ } : لعل هذا المثال تدعيم لرأى الزمخشري السابق ، لأنه جمع التمييز والصفة معاً : فلفظة (سُورٍ) هي التمييز المؤنث ، ولفظة (مِثْلِهِ) نعت ، كذلك لفظة حسنات هي التمييز ، و(أَمْثَالَهَا) نعت حل محل المنعوت . لكن لم يجر حذف النعت ، لأن النعت لو قام مقام المنعوت في سورة هود لفهم أن الله يطلب منهم عشر أمثال القرآن ، وهذا غير مطلوب ، فهو يطلب عشر سور مفتريات من مثل القرآن في زعمهم . لهذا لم يحذف الموصوف ، بخلاف الآية التي معنا ، حذف الموصوف لن يخل بالفهم لأن الموصوف هو (حسنات) . وقد حكى سيبويه : عندي عشرة نسابات ، أى عندي عشرة رجال نسابات (٢) .

مِثْلِهِ لماذا قال (مِثْلِهِ) ؟ ولم يقل من مثله؟ لأن من البعضية فيها إمعان للتحدي ، وهذا أليق لو كان الله هو المتحدث . وهنا المتحدث هو النبي S .

[هود]	{ مِثْلِهِ ١٣ }	بَعَثَ سُورٍ	{ فَاتُوا 1 }
[يونس]	{ مِثْلِهِ ٢٨ }	بِسُورَةٍ	{ فَاتُوا 2 }
[البقرة]	{ مِّنْ مِّثْلِهِ ٢٣ }	بِسُورَةٍ	{ فَاتُوا 3 }

**الصورة الأولى 1:** { مِثْلِهِ } : القائل هو النبي S ، لهذا لم يضع من التبعية . .

**الصورة الثانية 2:** { مِثْلِهِ } : القائل هو النبي S ، لهذا لم يضع من التبعية . .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثاني ، ص ٨٠ .

(٢) سيبويه ، الكتاب ، الجزء الثاني ، ص ١٧٥ نقلا عن ابن النحاس في إعراب القرآن ص ٣٣٤ .

**الصورة الثالث 3ة :** { مِنْ مِّثْلِهِ } : الله هو القائل ، لهذا إمعاناً في التحدي نزل في تحديه لهم إلى الحد الأدنى (سورة واحدة) . يتناول شك الكفار في نبوة محمد S ، فيقول لهم : إن شككتم في تلك النبوة فلتأتوا بشخص يقول ولو سورة واحدة من نمط هذا القرآن ، وادعوا من يشهد بوجود هذا الشخص . لذلك جاءت من البعضية إمعاناً في التحدي ، وأنه لا يطلب منهم شيئاً كبيراً ورغم ذلك سيعجزون .

يتناول دعوى الكفار بأن القرآن من افتراء محمد ، فقال لهم لو كان القرآن مفترى كما تزعمون فما المانع لكم عن معارضته فأتوا بسورة مماثلة ، ولم يأت بمن التبعية كما أتى بها ليسخر من عجزهم وأنهم سيعجزون رغم أنه لم يطلب إلا قليلاً . وهنا لم يأت بها لأنه أيضاً يسخر من عجزهم ، فقد جاراهم في مقاتلتهم ، مادام مايقوله محمد مفترى فلن يصعب عليكم أن تأتوا بمثله ، ولم يذكر من ، لأنه مادام مفترى فهو سهل عليهم ، وإن عجزوا عن السهل المفترى فهو ليس بمفترى . والعجز عن الإتيان بمثل المفترى يتساوى مع العجز عن الإتيان بمن مثل القرآن .

**مُفْتَرِيَاتٍ** لماذا قال : لماذا قال ( مِّثْلِهِ ) ؟ لم يقل من مثله ، لأن من البعضية فيها إمعان للتحدي ، وهذا أليق لو كان الله هو المتحدث . وهنا المتحدث هو النبي S .

[هود]	{ ١٣ }	مُفْتَرِيَاتٍ	مِّثْلِهِ	بِعَشْرِ سُورٍ	فَأْتُوا	1
[يونس]	{ ٣٨ }		مِّثْلِهِ	بِسُورَةٍ	فَأْتُوا	2
[البقرة]	{ ٢٣ }		مِنْ مِّثْلِهِ	بِسُورَةٍ	فَأْتُوا	3

**الصورة الأول 1ى :** { مُفْتَرِيَاتٍ } : زاد تلك اللفظة على سبيل الافتراض ، فهو يطلب من نبيه أن يجاريهم في افتراضهم . فمادام هو مفترى من وضع إنسان يعيش بينهم ، فهم قادرون على أن يفعلوا صنيعه . فهو عند الحديث عن الافتراء ليس بحاجة أن يقلل المطلوب ، بل الافتراء يوسع عليهم ، فيناسبه أن يزيد في العدد ، ولهذا لما قال في الآية الثالثة مفتريات ، ذكر عشر سور ولم يذكر سورة واحدة . فالأصعب عليهم أن يأتوا بمثل

القرآن ، لكن لا بصعب عليهم أن يأتوا بكلام مفترى . بينما لم يضع لفظة مفتريات في النص الذي رد فيه عليهم الله  $\gamma$  ، إذ لا يليق أن يتحدث الله عن أمر افتراضي ، بل هو يتحدث عن القرآن في صورته الحقيقية ، فلا يفترض إلا من يجهل القادم .

وهكذا زاد العدد مع مجاراته لهم في وصفهم له بالافتراء ، أليس مادام مفترى يسهل عليكم فأتوا بكثير ،

فهو عند الحديث عن الافتراء ليس بحاجة أن يقلل المطلوب ، بل الافتراء يوسع عليهم ، فيناسبه أن يزيد في العدد

**الصورة الثاني 2:** { } : لم يذكر مُفْتَرِيَاتٍ أيضاً في النص الآخر في سورة يونس الذي رد فيه النبي S على الكفار ، لأن

**الصورة الثالث 3:** { } : لأن الله هو القائل فلا يليق أن يتحدث عن أمر افتراضي ، بل هو يتحدث عن القرآن في صورته الحقيقية ، فلا يفترض إلا من يجهل القادم .

وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ

هذا ما سيقوله S لهم ، فنحن أمام أسلوبيين للتحدى تحدي من الله  $\gamma$  مباشرة ، وتحدي يقوم به النبي S بتوجيه من الله ، وهذه القولة هي تلقين الله  $\gamma$  لنبيه ليتحدى بها الكفار .

1 { } أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ

وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ صَادِقِينَ

مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ [هود]

2 { } أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ صَادِقِينَ

مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ [يونس]

3 { } وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ صَادِقِينَ

مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ [البقرة]

**الصورة الأولى ① س:** {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ} : النبي S يتحداهم أن يأتوا بمثل ما جاء به ، ويطالبهم بأن يدعوا كل من استطاعوا . من دون الله . ليساعدوهم على التحدي . ولم يطلب منهم شهداء ، لأن سماع ذلك منهم لا يحتاج إلى شهادة من أحد . واستعاض عن ذلك بأن سمح لهم بأن يستعينوا في تأليفهم بمن يقدرون .

**الصورة الثانية ② س:** {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ} : النبي S يتحداهم أن يأتوا بمثل ما جاء به ، ويطالبهم بأن يدعوا كل من استطاعوا . من دون الله . ليساعدوهم على التحدي . ولم يطلب منهم شهداء ، لأن سماع ذلك منهم لا يحتاج إلى شهادة من أحد . واستعاض عن ذلك بأن سمح لهم بأن يستعينوا في تأليفهم بمن يقدرون .

**الصورة الثالثة ③ س:** {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ} : المتحدي هو الله ، وهو يتحداهم بأن يأتوا بقائل يقول سورة من مثل ما يقوله محمد S ، فهو يقول لهم : إن شككتم في تلك النبوة فلتأتوا بشخص يقول ولو سورة واحدة من نمط هذا القرآن ، ولهذا طالبهم بأن يدعوا الشهداء على وجود هذا الشخص .

■ ■ فعندما تحدثوا عن أن النبي S افترى القرآن ، تحداهم بمحاكاة هذا القرآن المفترى ، وهنا طالبهم بأن يدعوا من يستطيع أن يساعدهم في ذلك .  
■ ■ وعندما تحدثوا عن الشك في أن محمداً S هو النبي ، وأن غيره أليق منه بالنبوة تحداهم بأن يأتوا بشخص يمكنه أن يقول بعض ما قاله محمد ، وهنا غاير فلم يطلب منهم أن يدعوا من يستطيع ، بل طالبهم بشهداء على وجود هذا الشخص الذي يمكنه أن يقول ذلك .

وقد اختار الرد على قولهم بافتراء القرآن بأن يرد النبي S . فهو أليق أن يجاريهم في افتراضهم .

واختار الرد على شكهم في النبي S : بأن يقوم هو الرد عليهم دفاعاً عن نبيه ، ولا يترك النبي S هو الذى يدافع عن نفسه ، لأن المدافع عن نفسه لا يكون في موقف قوة ، والتحدى يحتاج إلى قوة .

■ ■ عجزوا أن يأتوا بشخص مماثل له S سمع منه ما يسمع من محمد S ، وعجزوا أن

يأتوا بسورة واحدة من سور القرآن، وعجزوا أن يأتوا بكلام مفترى .

■ طلب منهم أن يستعينوا بمن يقدروا عندما طلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، وطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة ، وفي آية أخرى بعشر سور ، وسر الاختلاف أنه هون عليهم في الثانية عندما قال لهم مفتريات ، والكلام المفترى من المفروض أنه سهل عليهم فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة مثل القرآن وعشر سور مفتريات ، ولم يطلب منهم شهداء ، لأن سماع ذلك منهم لا يحتاج إلى شهادة من أحد . واستعاض عن ذلك بأن سمح لهم بأن يستعينوا في تأليفهم بمن يقدرون .



	٥	٤	٣	٢	١	
①	مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ	مُفْتَرِيَتٍ	مِثْلِهِ	بِعَشْرِ سُوْرٍ	قُلْ	
②	مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ		مِثْلِهِ	بِسُوْرَةٍ	قُلْ	
③	شُهَدَاءَكُمْ		مَنْ مِثْلِهِ	بِسُوْرَةٍ		

## ٧ سبع أراض :

خلق الله ﷻ السماوات والأرض ، وبرغم أنه ﷻ خلق كل شيء إلا أنه يخص السماوات والأرض عند وصف ذاته ﷻ ، لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لأن السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والأرض مسكن الخلق وفيها أيضا العبر والمنافع<sup>(١)</sup>.

إن الكون خالق ومخلوقات ، فالانصراف عن عبادة الخالق ، يعني أن القوم يعبدون شيئاً من مخلوقاته ، فذكر أعظم المخلوقات (السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يحقر آلهتهم .

إن قضية التوحيد تتجه رأساً إلى إبطال من عدل عن الله إليه ، وهل عدل الذين كفروا إلا لشريك من السماوات والأرض ، فكيف يتركون خالق السماوات والأرض ، ويعبدون أحد الموجودين فيما خلق . فإثبات خلق السماوات والأرض تعريض وسخرية من الكفار . وتقدمت السموات ليس لأنها السبق في الخلق ، فالأرض أسبق منها ، ولكنها تقدمت على الأرض للسبق المعنوي أي المنزلة والمكانة ، فهي الأقوى في الدلالة على الخلق . ولم تتقدم الأرض على السموات إلا مرتين :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٤٨) (إبراهيم).

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٤﴾ إِلَّا ذِكْرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٥﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٦﴾ ﴾ (طه).

• في الأولى : يجب تقديم الأرض ، لأنه يتحدث عن يوم القيامة عندما تبدل الأرض غير الأرض ، فهذا ما يراه الناس ، وقد لا توجد سموات . فالأرض هي المشاهدة في هذا الوقت .

• في الثانية : قدم الأرض مراعاة للترتيب . لأنه لا يتحدث عن الخالق ، فالقضية في القرآن

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٢ / ٩٧)

ليست مكانة الله ليبدأ بالأعظم فيهما ، لكن الاعتراض في القرآن : هل هو من عند الله أم لا ، فهنا المحور ليس الحديث عن الله ذاته ، ليبدأ الثنائية بأقوى الاثنتين وهى السماء . ولكن المحور هو القرآن : وهل هو من عند الله أم من عند البشر ، فهنا بدأ بأولهما ترتيباً وليس بأعظمهما . وهذا يجرننا لأمر غاية في الأهمية هو الأرض ، وهل هي جمعاً أم مفردة . إن القرآن يتحدث عن رفقتها السماء بطريقتين : الجمع والمفرد ، بينما لم ترد الأرض إلا مفردة . فبرغم كثرة ورودها في القرآن في ( ٤٦٤ ) آية ، إلا أنها جاءت ( ٤٦٦ ) مرة كلها مفردة ، بالرغم أنها تلازمت مع السماوات في كثير منها ، فتعبير ( السموات والأرض ) ورد بتلك الصيغة ( ١٣٣ ) مرة . وتعبير ( ما في السماوات وما في الأرض ) ورد ثماني وعشرين مرة ، ومع ذلك فالسماوات تأتي جمعاً ، وتظل الأرض تلتزم الأفراد . وذلك لأنها مفردة ..

إن افتراض وجود أراضٍ أخرى غير تلك الأرض يعطي معاني سلبية ننزه رب العزة عنها ، فانظر لو قرأنا هذه الآيات مع التسليم بوجود أراضٍ أخرى :

﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(١)</sup> لو كانت الأرض جمعاً لكانت الآية تعني أن له ما في السماوات كلها وله ما في أرض واحدة أما باقى الأراضى فليست له سبحانه وتعالى ، ولا يستقيم المعنى إلا أن تكون الأرض مفردة .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(٢)</sup> لو كانت هناك أراضى أخرى ، لكان يعني أنه سبحانه وتعالى بديع السماوات كلها ولكنه بديع أرض واحدة .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(٣)</sup> لو كانت ثمة أراضٍ أخرى لكان الله له غيب السماوات وغيب أرض واحدة منها هي التي ذكرها .

ر (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)<sup>(٤)</sup> إذن الأراضى الأخرى خلقت خارج الأيام الستة ، مما يقطع أن من المستحيل أن تكون هناك إلا أرضاً واحدة .

(١) سورة النساء : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(١٧٠)</sup>

(٢) سورة الأنعام : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(١٠١)</sup>

(٣) سورة هود : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(١١٣)</sup>

(٤) سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾<sup>(٥٤)</sup>

﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ۝١٢﴾ (١) فهل باقي الأراضي ليست له ؟؟

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۝١﴾ (٢) فهل باقي الأراضي لم يخلقها الله له عز وجل

؟؟

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۝٧٣﴾ (٣) فهل خلق السموات وهذه الأرض

بالحق ، وخلق باقي الأراضي بغير الحق ؟

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٦٣﴾ (٤) : فهل مقاليد الأراضي الأخرى ليست له ؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٨﴾ (٥) : فهل تلك الأراضي لا يعلم غيبها ، سبحانه

وتعالى عن ذلك ؟؟ وهل لا يعلم سرهن

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٦﴾ (٦) : وهل لا يعلم سرهن ؟

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٠﴾ (٧) : وهل جل وعلا .. ليس له ميراثهن ؟

﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٧﴾ (٨) : وهل تلك الأراضي ليست لها خزائن ؟ أم أنها

لها ، لكن يسيطر عليها آخر من دون الله ؟

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٣٥﴾ (٩) : وهل سيكون رب العزة نور كل مكان إلا هذه

الأراضي التي لم يذكر أن نوره يشملها ؟؟

(١) سورة الأنعام: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ۝١٢﴾

(٢) سورة الأنعام: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۝١﴾

(٣) سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۝٧٣﴾

(٤) سورة الزمر: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٦٣﴾

(٥) سورة الحجرات: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٨﴾

(٦) سورة الفرقان: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٦﴾

(٧) سورة الحديد: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٠﴾

(٨) سورة المنافقون: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٧﴾

(٩) سورة النور: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٣٥﴾

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۗ ﴾ (الأنبياء) .

فهل الأراضي الأخرى كانت منفصلة عن تلك الأرض التي اجتمعت مع السموات قبلاً قبل أن يباعد الله √ بينهما ؟ ولاحظ عدوله إلى ضمير المثني أي أنه جعل السماوات كلها في ناحية والأرض هذه وحدها في ناحية ، فأين الأراضي الأخرى ..

إن الأمثلة أكثر من أن تعد ، كلها تستبعد فضل الله وامتلاكه لهذه الأراضي المزعومة ، لأنه في كل أحاديثه عن نفسه لا يتطرق إلى ذكرها . وهو الذي لا يخفى عليه من شيء في الأرض ولا في السماء .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُحْفِي وَمَا نُعَلِّمُ وَمَا يُخْفَىٰ عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۗ ﴾ إبراهيم: ٣٨

مما سبق .. نرى أن الله √ لو كانت ثمة أراضٍ أخرى لذكرها ، وهو أدري بكونه ، ولم يكن أحد موجوداً ليدعى نظرية في الخلق:

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۗ ﴾ (التكوير)

فكل نظرية لا بد أن تتبثق من صاحب الخلق ، وفي كل كلامه √ يؤكد أنها أرض واحدة . وليس هناك إلا آية واحدة ليست صريحة يستند عليها القائلون بالجمع ، ويتركون مئات الآيات الصريحة ويستندون على تلك الآية بناء على فهمهم الخاص لها :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْمَوْا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ ﴾ (الطلاق) .

فكلمة (مِثْلَهُنَّ) تعنى أن الله خلق سبع سموات ، وخلق الأرض مثلهن ، فهنا يمكن أن تفهم مثلهن في العدد أو مثلهن في الكيفية . ونميل إلى الرأي الثاني لأنه لو أراد أن يذكر العدد لجمع الأرض ، لكنه يرسخ أفرادها في كل هذا العدد . في حين جاءت السماء مفردة ( ١٢٤ ) وجمعا ( ١٨٨ ) . فإعراض القرآن عن استخدام الأرض جمعا يقرر أن المثلية من حيث الكيفية لا الكم .

والقرآن استخدم لفظه (مِثْلِهِ) قبلاً في تحديه لغير المسلمين بأن يأتوا بسورة من مثله:

﴿وَمِنْكُمْ فِي رَبِّ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة).

ولا يعقل أن يقصد القرآن في تحديه بأن يأتي بسورة من مثله من حيث العدد ، فهذا لا يكون تحدياً لأن المثلية في العدد في مقدور الجميع ، فالتحدي في المثلية من حيث الكيفية .

وقد جاء في الحديث وعلى لسان علي بن أبي طالب اللفظة جمعاً : ولو أخذت على العدد فيكون المقصود أن الأرض سبعة أي سبع يوابس ، متجاوزة أفقياً . أو رأسياً أي طبقات الأرض كما يقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار بأن الأرض تنقسم إلى سبع طبقات رأسية .

إن ضمير الجمع (مِثْلُهُنَّ) لا يعود على الأرض ، وإنما يعود على السماوات لأنها جمع ، وانظر لو تحدثنا عن أبي بكر الصديق وهو واحد ، وأرادنا أن نقول أن هناك خمسة من الصحابة يماثلونه ، فماذا تراك تقول : ستقول ، وهناك خمسة رجال مثله . فالجمع في الآية الكريمة يرجع إلى السماوات ، وليست الأرض . ولو أن هناك رجال سبعة يتسمون بالقوة والجسارة وتحقيق البطولات في تاريخ بلد ما ، وأردنا أن نقول أن هناك بطلاً ما يشبههم ، فإننا سنقول : هذا الشاب مثلهم ، فالجمع أو الأفراد يرجع للمشبه به ، وليس للمشبه ، بدليل أننا لما شبهنا جمعاً بأبي بكر جاء الضمير مفرداً مثله ، ولما شبهنا واحداً بجمع جاء الضمير جمعاً يماثل المشبه به ، والأرض مشبه ، أما المشبه به الذي سيتفق معه الضمير فهو السماوات الجمع ، ولذلك جاء الضمير جمعاً .

وماذا لو قلت أن الله شبه الأرض بسمااء واحدة فقال خلق السماء ومن الأرض مثلها ، أكاد الذهن يتجه للعدد ٩٩ لكنه يتحدث عن الخلق ، لذلك لم يذكر أفراد السماء . ويجب أن يراعى وجود ( من ) فلو خلق من الأرض مثلهن لكان المخلوق من الأرض سبعة بالإضافة لها ، ولو أراد العدد لقال : خلق سبع سموات والأرض مثلهن بدون من .

وقد انساق أحد المهاجمين للإسلام لفهم الآية على أنها العدد ، فهاجم القرآن لأنه جعل السماوات سبعة والأرض سبعة ، والعجيب أن كتابه المقدس عبر عن الرض بالمفرد والجمع ، فعند البحث في الكتاب المقدس ، وجدنا لفظة أراضى قد جاءت جمعاً ( ١٤ ) في العهد القديم ، وفي الأسفار القانونية مرتين وفي قاموس الكتاب المقدس عشر مرات ، وفي الترانيم مرتين ، وفي قسم الأسئلة مرتين .

بينما لم يذكر القرآن الكريم لفظة الرض بصيغة الجمع أبداً ، وقد تكررت ٤٤٤ مرة كلها

بصيغة المفرد ، ولا توجد إلا لفضة مثلهن ، التي أضيفت إلى ضمير جمع لا يرجع إلى الأرض ولكن إلى السماء . ولا يمكن أن يقصد الله بتلك المثلية العدد ، وإلا ما كان أسهل قوله ولو لمرة واحدة.

## ٨ أيام الخلق :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (يونس).

تختلف لفظة ( الرب ) عن الإله : فالإله هو المعبود الذي نتقرب إليه بالعبادة والدعاء ليحقق نفعنا ويكشف عنا الضر . ولأن الله هو الرب الذي يتعهدهم بالتدبير والتربية فهو الأحق بالعبادة وحده . وكان مشركو العرب لا يعترفون برب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ويقولون: إنه أعظم الآلهة . عيّر النبي ﷺ المشركين بعبادة آلهتهم التي تعجز أن تخلق ذباباً ، ومثل أو هن البيوت (بيت العنكبوت) .. فكأنهم سألوا المسلمين من ربكم الذي تدعوننا إليه ؟ فجاء القرآن يجيب عن السؤال ، ولذلك جاءت كلمة الرب اسم إن لأنها محور الكلام التي سيقوم بإعطاء المعلومة عنها . وقد جرت العادة أن يتغير الضمير من السؤال إلى الإجابة ، لكن هنا الله لا يغير الضمير ، لأنه رب الفريقين . وكأنه يقول هو ربكم أيضاً . والرب هو السيد ، ومصالح الأمور

أما الإجابة عن السؤال ( من ربكم ؟ ) فهي (اللهُ) المعبود الذي له العبادة من كل شيء . الإله الذي لا إله غيره ، لأنه خلق المكان ، أما الأصنام والأوثان فهي مخلوقة في المكان . هذا هو ربكم الحق وإلهكم الذي لا إله لكم غيره ، ولا رب لكم سواه ، أما الأصنام والأوثان فلن تكون رباً ولا إلهاً لأحد أبداً لأنها مخلوقة غير خالقة وعاجزة عن نفع نفسها .

وقد وصف الله بقوله (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) فلفظة الخلق لأن الله وحده هو المنفرد بقدره ايجاد من عدم ، فهو الذي يجب أن يُفرد بالعبادة لأنه الموجد للوجود على غير مثال سابق ، وقد ذكر السموات جمعاً لأنه يقصد ذواتها وهي سبعٌ ، وذكر الأرض مفردة لأنها واحدة . واختص الاثنين بالذكر لئلا يظن المخلوقات التي لا تغيب عن عين المخاطب في أي لحظة ، وأينما كان .

جاءت لفظة (سِتَّة) على أصل بنائها فقد وضعت الكلمة بالتاء ، أي أن الأصل هو التاء ، والعرب تقابل الأصل بالأصل ، لذلك لما كانت معدودها مذكراً : اليوم ، والمذكر هو الأصل ، وقبل الأصل بالأصل فظلت التاء في الكلمة عند وصفها للمؤنث .

ويثور سؤال : هل هي أيام الدنيا ؟ إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم تكن الشمس قد خلقت بعد ، لكن عند خطاب الناس يراعى ما يفهمون ، أي خلقها في ستة أيام كل يوم بقدر أيام دنياكم . ويرى ابن عباس أن مقدار كل يوم من تلك الأيام كألف سنة مما تعدون كما نص على ذلك مجاهد ، والإمام أحمد بن حنبل ، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس .

أما السبب في جعلها في ستة أيام في حين كان الله ﷻ قادراً على خلقها في لمحة بالأمر (كن) كما يقول سعيد بن جبير : تعليماً لخلق التثبث والتأني في الأمور . وقال الألويسي :

- أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ، ومن يشاهده ، ذكره ابن الانباري .
- أن التثبُّت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده ، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة .
- أن التعجيل أبلغ في القدرة ، والتثبث أبلغ في الحكمة ، فأراد إظهار حكمته في ذلك ، كما يظهر قدرته في قوله : كن فيكون .
- انه علم عباده التثبُّت ، فاذا تثبث من لا يزلُّ ، كان ذو الزَّلَل أول بالتثبُّت .
- أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء ، أبعد من أن يُظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق . وأجيب بأنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور والصبر فيها كيلا يحمل المكلف تأخير الثواب والعقاب على التعطيل .
- ومن العلماء من قال : إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع الإحداث فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذلك إنما وقع على سبيل الاتفاق ، أما إذا أحدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للحكمة والمصلحة كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث حكيم عليم قادر رحيم .
- وأيضاً ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أولاً ثم يخلق السموات . والأرض بعده لأن خلق ما لا ينتفع به في الحال يجر إلى العبث . ثم إن ذلك العاقل - ملكاً كان أو جنياً - إذا شاهد في كل ساعة وحين حدوث شيء آخر على سبيل التعاقب والتوالي كان ذلك أقوى في إفادة اليقين لأنه يتكرر على عقله ظهور هذه الدلائل لحظة ف لحظة .
- ونفهم من كلام الألويسي أن الملائكة خلقت قبل خلق السموات والأرض .

وكل رأي قال إن بداية الخلق السبت فهو غير صحيح ، فقد ثبت أن الرسول ﷺ أخبر أن يوم

الجمعة فيه خلق آدم ، وآدم آخر الخلق ، وهذا يعنى أن الجمعة لا بد أن يكون آخر أيام الخلق ، فلا يمكن أن تكون بداية الخلق السبت ، وإلا كان معنى ذلك أن أيام الخلق أكثر من ستة أيام ، وهذا يتعارض مع نص الآية الكريمة .

ومال السمرقندي وقيل : الأيام الستة خاصة بالأرض دون السماء ، وأنه قال خلق السموات دون أن يقيدها بمدة ، ويكون قوله (والأرض) مفعولاً به بفعل مُقَدَّرٍ أي؛ وخلق الأرض ، وهذا الفعل مُقَيَّدٌ بِمُدَّةٍ سِتَّةِ أَيَّامٍ . وكل هذا ليهربوا من إشكال وجود اليوم قبل الشمس التى تتحكم في وجود اليوم . ويرد على ذلك بأن خلق السموات يتوسط خلق الأرض وأن الله حدد مدة خلقها في يومين في سورة فصلت .

نتفق على أساسيات أولاً :

- أيام الخلق ستة كما جاءت الآيات بذلك صريحة .
- انتهى الخلق يوم الجمعة كما صرح رسول الله ﷺ بشأن آدم عليه السلام . وإذن لا بد أن يبدأ الخلق يوم الأحد .

• بدأ الخلق إذن يوم الأحد ، ولذلك سُمِّيَ بالأحد ، فالأحد ما كان ليس قبله شيء . واليوم الثاني سُمِّيَ الاثنين ، والثالث : سُمِّيَ الثلاثاء ، والرابع سُمِّيَ : الرابع ، والخامس : سُمِّيَ الخميس ، وسُمِّيَ اليوم الأخير الجمعة لأن في هذا اليوم اجتمع الخلق كله . ولم يقع في السبت خلق فسُمِّيَ بالسبت أي القطع لقطع الخلق فيه .

• فأَيُّ العَظِيمِينَ خُلِقَ أَوَّلًا : الأرض أم السماء ؟ لقد بدأ الله ﷻ الخلق بخلق الأرض أولاً ، لكن أقصد بالأرض : ذاتها دون عوارضها ، وتم ذلك في يومين ، وتذكر سورة فصلت أن خلق الأرض تم في يومين :

﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ ﴾ (فصت) .

وبعد ذلك خلق السماوات في يومين ، والدليل على أن السماء خُلِقَتْ بعد الأرض أنه بعد أن ذكر خلق الأرض في سورة فصلت كما سبق في يومين ، استخدم حرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي ؛ ليعبر عن خلق السماوات هي الأخرى في يومين ، مما يدل أن كل منهما خُلِقَ في يومين ، لكن خُلِقَتْ الأرض أولاً بدليل وقوع خلق السماوات بعد حرف العطف ثم :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصحت

فقوله ( فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ) يترتب على الفعل السابق ( ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ) الذي يترتب بدوره على ( خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ) . أي أن ترتيب الأحداث : خلق الأرض ، وبعد وقت استوى إلى السماء وهي دخان ثم قضاهن سبع سموات . لو تأملت الكتابة القرآنية في كلمة ( سَمَوَاتٍ ) في هذه الآية ستجدها مختلفة عن سائر كتاباتها الأخرى التي وصلت إلى ( ١٨٩ ) مرة كلها لم يثبت فيها ألف الجمع ( سَمَوَاتٍ ) ، الذي أسميه ألف المساواة دلالة على تساوي مفرداته ، وذلك لأنه يتحدث في هذه الآية على تقسيم السماوات في أول أمرها ، قبل أن تختص كل سماء بأشياء خاصة بها ، قبل أن يوحي لكل سماء أمرها ، ففي بداية التقسيم كانت كل سماء مثل الأخرى ، وكل واحدة المسافة بينها وبين الأخرى ثابتة ، وكل واحدة مركز للأخرى ، فمن يقف في سماء سيجدها قد أصبحت كالأرض ، والسماء التي فوقها كالسماء تحوطه أينما نظر دلالة على كروية كل سماء ، وعلى ثبات المسافة بين السماء التي تقف فيها والتي فوقها ( نصف القطر ) . أي أن الأمر بين كل سماء وما فوقها كالأمر بين الأرض ( المركز ) والسماء الأولى التي تحوطها من كل جهة بنسبة ثابتة ، فلن تكون المسافة التي فوقك وأنت تقف في أي مكان فوق الأرض مختلفة عنها لو وقفت في مكان ثان أو ثالثة أو رابع ، فلو أن اثنين أحدهما يقف في القطب الجنوبي ، والآخر في القطب الشمالي والآخر في خط الاستواء ، أتظن أن المسافة بين كل واحد منهم وبين السماء مختلفة ؟؟

وهكذا نجد الخط القرآني يشير إلى أن السماوات في بداية أمرها كانت متساوية ، حتى اختصت كل سماء بأمرها . وهنا نجد الكتابة القرآنية للفظ سماوات تسقط الألف لتفاوت كل سماء عن الأخرى .

لاحظ قوله : ( فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ) : أي أن الأرض موجودة ، ولاحظ أيضاً أن الخلق لا بد أن يتم من مادة ، والمادة تسبق المخلوق منها ، وقد كانت المادة التي منها السموات والأرض واحدة :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَهُمَا طَّ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنبياء ) .

فبعد الفتق ، خلق الله ﷻ الأرض في يومين ، فأصبحت الأرض مخلوقة ، أما السماء فكانت لا تزال دخاناً ، وما إطلاق اسم السماء عليها إلا إطلاق ما سيكون ، تماماً كما يقول الأب عن ابنه : وأحمد كان مازال لم يأت ، فهو يطلق عليه اسم أحمد لأنه يتحدث عن زمن لم يكن فيه أحمد ، لكنه يحكي ذلك بعد أن وجد وحمل اسمه ، فبدلاً أن يقول : ولم نكن قد أنجبنا ، يذكر الاسم الذي سيحمل فيما بعد .

أي أنه لما قال :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت ) .

كانت الأرض وحدها التي تم خلقها ، أما السماء فلم تخلق بعد ، إن هي إلا مادة الخلق التي ستخلق منها وهي الدخان ، ويؤكد ذلك قوله بعدها :

﴿ فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت ) .

وبذلك خلقت الأرض في يومين ، ثم خلق بعدها السماوات سبعة في يومين ، ثم رجع إلى الأرض فخلق عوارضها وجهازها للسكنى في يومين ، وتم ذلك بعد خلق السماوات :

﴿ وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾ (التازعات ) .

يذكر النص أن دحو الأرض حدث (بعد ذلك) والمقصود ب(بعد ذلك) : خلق السماء ، وبذلك جاء خلق السماوات وسطاً بين خلق الأرض ولوازمها ، فخلقت الأرض أولاً في يومين ، ثم السماء ثانياً في يومين ، ثم لوازم الأرض في يومين ، فتمت الأيام الستة ، أربعة للأرض ، يتخللها يومان للسماوات :

﴿ وَحَلَّلَ فِيهَا رَوْسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنًا ﴿١٠﴾ ﴾ (فصلت ) .

أما قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (البقرة ) .

فبرغم أنه استخدم (ثُمَّ) بعد حديثه عن خلق الأرض ، إلا أن هذا ليس دليلاً على أن السماء خلقت بعد الأرض ، مثلما وجدنا في سورة فصلت ، فالاستواء هنا هو المرحلة الرابعة ، بعد المراحل الثلاث السابقة :

١. خلق الأرض في يومين .

٢. خلق السماوات المتساوية في يومين .

٣. خلق مستلزمات الأرض في يومين .

٤. الاستواء إلى السماوات لتمييز كل سماء عن الأخرى . وهذا لم يأخذ وقتاً .

[فصلت] { ١١ }	في يَوْمَيْنِ	فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ	فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ	ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ	1
[البقرة] { ٢٩ }		فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ		ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ	2 { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا }

### المغايرة الأولى :

**الصورة الأولى 1** : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }<sup>(١)</sup> : لم تكن السماء قد خلقت بعد ، ولذلك ذكر المادة التي كانت عليها قبل خلقها ، وسماها باسمها الذي تصير إليه .

**الصورة الثانية 2** : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ }<sup>(٢)</sup> : لم يذكر (وَهِيَ دُخَانٌ) لأنه يتحدث عن السماء بعد أن تم خلقها بالفعل .

### المغايرة الثانية :

**الصورة الأولى 1** : { فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ }<sup>(٣)</sup> : استخدم الفعل (قضى) الذي يعني فصل

(١) سورة البقرة : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }<sup>(١١)</sup> فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }<sup>(١٢)</sup> .

(٢) سورة البقرة : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }<sup>(٢٩)</sup> .

(٣) سورة فصلت : { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }<sup>(١١)</sup> فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ

الأمر على التمام ، من قولك : قضاها إذا أتمه وقطع عمله <sup>(١)</sup> :، فالقضاء حكم نافذ ، وقال ابن جرير : هو الإحكام والفرغ منه ، ومنه قيل للحاكم بين الناس : القاضي لفصله القضاء بين الخصوم ، وقطعه الحكم بينهم وفرغه منه به <sup>(٢)</sup> كما جاء في قوله تعالى : ( فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ) <sup>(٣)</sup> أي فاحكم ، وتلك أول مرة يتم فيه خلق السماوات: وهي مرحلة تم فيها :

﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ۖ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۗ ﴾ (النازعات) .

وجاءت لفظة (سَمَوَاتٍ) بألف المساواة دلالة على أن تلك بداية خلقهن ، وأن كل سماء مثل الأخرى . وذكر المدة (في يَوْمَيْنِ) . وسوف يأتي بعدها مباركة الأرض وتثبيتها بالجبال .

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۗ ﴾ (النازعات) .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ۗ ﴾ (فصلت) .

**الصورة الثانية 2** { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ } <sup>(٤)</sup> : استخدم فعل التسوية ، لأنه يتحدث عن السماوات بعد خلقهن ، لذلك لم يذكر (وَهِيَ دُخَانٌ) ، لأنها بعد خلقها لم تعد دخاناً . وقد استخدم الفعل ( فَسَوَّاهُنَّ ) للعدل بينهن ، فأوحي لكل سماء بشيء يختلف عما أُوحي للأخرى لكنها لا تقل عن أختها . وحجب ألف الجمع (سَمَوَاتٍ) ، لأن كل سماء بما اختصت به لم تعد مساوية للأخرى مثلما كانت في تجريدتها عند القضاء . ولم يذكر وقتاً لأن ذلك لم يستغرق وقتاً ، لأن السماوات قد تم خلقها فعلاً من قبل .

ولاحظ أنه فعل ذلك بعد : ( هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ) في إشارة صريحة إلى أن تلك المرحلة وهي الاستواء تمت بعد خلق الأرض الذات ، وكذلك ما فيها ( مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ) وهي الجزء الثاني في خلق الأرض وهي التي جاءت بعد خلق السماوات

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۗ ﴾ {

(١) أبو هلال العسكري . الفروق اللغوية . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . ٢٠٠٩ . ص ٢١٥ .

(٢) عبد الرحمن عميرة . دقائق لغة القرآن في تفسير ابن جرير الطبري . الجزء الثاني . عالم الكتب .

بيروت . الطبعة الأولى . ١٩٩٢ . ٤٩٤ .

(٣) سورة طه : { قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۗ ﴾ {

(٤) سورة البقرة : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۗ ﴾ {

لقوله تعالى (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾) ، فلا يمكن أن يجتمع :

١- القول إن خلق السماوات تم بعد أن خلق ما في الأرض جميعاً .

٢- دحو الأرض تم بعد خلق السماوات .

لا يستقيم الأمر أبداً كذلك إلا أن كان هناك مرحلتان للسماء : الأولى هي القضاء ، والثانية هي الاستواء . فالأولى حدثت بعد خلق الأرض الذات ، وحدث بعدها خلق مستلزمات الحياة لأهلها . ثم جاءت المرحلة الثانية وهي الاستواء بعد ذلك .

فنحن أمام أربع مراحل للخلق :

١- الأرض الذات : أول يومين .

٢- القضاء : خلق السماوات السبع : في يومين تالين ، ومادة خلقها هي : الدخان .

٣- مستلزمات الحياة لأهل الأرض : في يومين تالين . ليكون مجموع خلق الأرض في أربعة أيام يتخللها يومان لخلق السماوات في مرحلة القضاء .

٤- مرحلة الاستواء : وهو اختصاص كل سماء بشأن ما ، ولم تأخذ وقتاً .

فالأرض خلقت على مرحلتين ، الأولى خلق الأرض بعد فتقها عن السماء من مادتهما الأولى : الدخان ، وفي المرحلة الثانية تسخيرها للحياة ، وذلك تم بدحوها ، وتشبيتها بالرواسي ، وتقدير أقاتها ، وأعطائها الجاذبية:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسِي شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(الرسالات ) .

فالكفت هو الضم والجمع والقبض والجذب ، وهو معنى الجاذبية التي توجد في الأرض ، والتي بواسطتها يستقر الإنسان عليها ، وينجذب إليها<sup>(١)</sup> وهذه الجاذبية هي نفسها التي تحتفظ له بالغلاف الجوي الذي يحول ضوء الشمس إلى نهار ، وليس الأمر كذلك فحسب ، فهي أيضا التي

(١) محمد حسن هيتو . المعجزة القرآنية . الإعجاز العلمي والغيبي . مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة

تستعيد له الماء ثانية بعد مغادرته للأرض ، فالشمس تبخر بعض ماء البحار والمحيطات وتحوله لى بخار ، ولولا أن جاذبية الأرض أقوى من سرعة انطلاق الماء للخروج من نطاق الجاذبية ما نزل هذا البخار مطراً بعد تبخره ، ولمضى عن الأرض إلى غير رجعة ، ولو وصلت سرعة بخار الماء إلى ٢, ١١ كم / ث<sup>(١)</sup> لانفلت من الجاذبية ولذهب من الأرض ، وقد أشار الله عز وجل إلى تلك الإمكانية لذهاب الماء عن الأرض :

.. ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١٨) (المؤمنون) .

وفي تلك المرحلة الثانية لخلق الأرض ، كان سر الحياة ، وهو الماء :

.. ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٠) (الانبیاء) .

والماء ينزل من السماء ، لكن السماء ليست مصدره ، فالأرض هي مصدر الماء ، يصعد منها ثم يرجع إليها في دورة منتظمة . والماء في الأرض الذي لا يفتأ يرجع لها ثانية قادر على إغراق الأرض لو خرج من خزائنه فيها كالبحار والمحيطات ، وربما تقول : نعم الماء يصعد من البحار والمحيطات بفعل الحرارة ليصبح بخاراً ، وهذا البخار يصطدم بالجبال ، فترفعه إلى أعلى فيبرد لينزل مطراً ، ولولا الجاذبية لاستمر في الصعود . لكن .. هذه الدورة بعد نزول الماء من السماء ، أي أن الماء نزل أولاً من السماء ، ثم بعد ذلك بدأت الدورة منتظمة .

تعالوا بنا نتفق أن الماء واحد : وما أروع أفراده في قوله تعالى :

.. ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (القمر) .

انظر إلى قوله تعالى للتعبير عن التقاء كل من ماء السماء وماء الأرض ، لم يقل التقى الماءان ، بل قال ( فَالْتَقَى الْمَاءُ ) للتعبير عن وحدة الماء وأن مصدره واحد ، سواء قدم من الأرض أو نزل من السماء .

إذن هو من مصدر واحد ، وهذا المصدر يخبرنا رب العزة أنه من الأرض ، وأن هذا الماء الذي جعل منه كل شيء حي : تم في تعلق المرحلة الثانية ( تجهيز الأرض للحياة ) فلا بد أن تمت بالماء

(١) سليمان عمر قوش . الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم . دار الثقافة . الدوحة .

أولاً ، يقول عز وجل :

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ

﴿٣٣﴾﴾ (التأزمات ) .

انظر إلى قوله تعالى ( أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا ) لتعرف أن الماء خرج من الأرض ، ولم يحضر إليها . فالماء خرج من الأرض في مراحل تكوينها ، ويؤكد فاروق الباز اتفاق العلم مع ذلك ، فيقول إنك تجد أن بخار الماء يخرج من البراكين حينما تنثور <sup>(١)</sup> .

وقد قام موريس بوكاي في كتابه دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة <sup>(٢)</sup> بتلخيص النقاط التي تتعلق بالخلق كما جاءت في القرآن فكانت :

١. وجود ست مراحل للخلق عموماً .
٢. تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .
٣. خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة انفصلت إلى أجزاء محكمة بعد ذلك .
٤. تعدد السماوات ، وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض .
٥. وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

والعلم الحديث يؤكد ذلك فالعالم الفلكي جينز يقول : إن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام ، وأن السدائم ( المجموعات الفلكية ) خلقت من تكثف هذا الغاز ، ويقول فاروق الباز : إن أصل الكون عبارة عن غازات خفيفة جداً ، ومع هذه الغازات ذرات دقيقة جداً يمكن رؤية الضوء الذي تعكسه هذه الذرات ، ولكن لا يمكن تصورها نظراً لحجمها المتناهي في الصغر وهي مظلمة ، فهي لا تشع الضوء ، بل تعكسه ، وأقرب وصف لها هو الدخان كما وصفها

(١) سليمان عمر قوش . الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم . دار الثقافة . الدوحة . الطبعة الثانية ١٩٩٥ . ص ١٤٣ .

(٢) موريس بوكاي : التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث . ترجمة على الجوهري . مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع . القاهرة . ١٩٩٩ .

اللَّهُ عز وجل (لأن الدخان يتكون من غازات وذرات دقيقة وهو مظلم ، ولكنه يعكس الضوء ) (١)

وقد بدأ الخلق بخلق الأرض الذات دون عوارضها يومي الأحد والاثنين ، وبعد ذلك خلق السماوات في يومي الثلاثاء والأربعاء ، ويوم الخميس والجمعة دحا الأرض ، وثبتها بالجبال ، وبارك فيها ، ليكون المجموع بالنسبة للأرض أربعة أيام ، فإذا أضيف إليها يومي خلق السماء يصبح المجموع ستة أيام .

فالأيام الأربعة الخاصة بالأرض توزعت كالاتي :

- اثنان لخلق الأرض ( الهيئة )
- اثنان للعوارض ( الرواسي ، والمباركة والأقوات ) .

وهذا ما قرره الآية الكريمة :

﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (النزعات ) .

أي خلق الذات في يومين ، وخلقها مع مستلزماتها في أربعة أيام ، وجاء بعض المفرضين ليجمع المدتين ويزعم أن القرآن يجعل أيام الخلق ثمانية : ستة للأرض ، واثنان للسماء ، وفاته أن القرآن في نصوص صريحة يقرر أن أيام الخلق كلها ستة أيام ، بل أن لفظة ستة التي تكرر في القرآن سبع مرات ، لم يأت إلا للتعبير عن خلق السماوات والأرض معاً .

إن قوله ( في يَوْمَيْنِ ) عرضية ، ليست أساساً في معنى الآية التي وقعت فيها فهو يقول لهم : هل تكفرون بالذي خلق الأرض وتجعلون له وهو رب العالمين أنداداً ؟ والجملتان الاعتراضية نحويلاً لا يتأثر المعنى بخلوها ، فلو خلت العبارة منها لا يتأثر المعنى ، ويكون المعنى : ( أتكفرون بالذي خلق الأرض وتجعلون له وهو رب العالمين أنداداً ؟ خلقها ( هيئة ) كما خلق عوارضها ( الرواسي والمباركة والأقوات ) في أربعة أيام سواء . أما الأرض وحدها فجملتها الاعتراضية تحدد مدتها فقد تم خلقها في يومين .

فالمعنى إذن ( في أربعة أيام سواء خلق الله الأرض وما عليها في أربعة أيام منها يومان للأرض وحدها ، ومن ثم فالرواسي والمباركة والأقوات في يومين ) .

(١) سليمان عمر قوش . الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم . دار الثقافة . الدوحة .

الطبعة الثانية ١٩٩٥ ، ص ١١٩ .

ولو عكسناها : خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، ثم قال خلق الأرض في يومين لكان معنى ذلك أن هذا الجزء اختص بيومين من الأربعة ، وباقي الأشياء في اليومين الآخرين .

والخلاصة لقد بدأ الخلق بخلق الأرض أولاً في يومين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سماوات متساوية في يومين ، ثم بعد ذلك دحا الأرض وجعلها للحياة ، عندما أرسى الجبال فيها وقدر فيها رزقها في يومين ليكتمل خلق الأرض في أربعة أيام سواء ، ثم يرجع إلى السموات فيوحي لكل سماء أمرها لتمتاز كل سماء عن الأخرى بما حملت من مهام ليكتمل مجموع أيام الخلق : ستة أيام ، فازت الأرض منها بأربعة أيام ، منها يومان للأرض وحدها .

إنني لو قلت : مدة عملي بالتدريس ثلاثون سنة ، وقد عملت في مدرسة كذا خمسة عشرة سنة فهذا يعني أن تلك المدرسة اختصت بالخمس عشرة سنة من بين الثلاثين ، ولا يمكن أن تقول : عمل خمس وأربعين سنة .

ولا أدري لماذا يهاجم أهل الكتاب هذا الأسلوب ( تخصيص العدد الجزئي ثم ذكره في الإجمال) دون الحاجة لجمع الاثنين . وهو أسلوب متبع حتى عندهم في التوراة ..

وعندما تقول التوراة في الأصحاح السابع في السطر ١٧ : **وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْماً عَلَى الْأَرْضِ**<sup>(١)</sup> . ثم تقول في الأصحاح نفسه في السطر ٢٤ : **٢٤ : ٢٤ وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الْأَرْضِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْماً**<sup>(٢)</sup> . فإننا نفهم أن الرقم الأخير هو المدة الإجمالية وأن الرقم أربعين منه أي أن المجموع لهما معاً ( ١٥٠ ) يوماً لأن الأربعين من ضمن المائة والخمسين ، ولا نفهم أنها مائة وتسعين ، ولو فهمنا أنها مائة وتسعين : لكان هناك خطأ حسابياً لأن التوراة قالت في السطر الحادي عشر من الأصحاح نفسه أن الطوفان بدأ في السابع عشر من الشهر الثاني وقالت في الأصحاح الثامن في السطر أن الفلك استقرت بعد نقصان المياه في السابع عشر من السابع عشر من الشهر السابع كما ترى من هذين النصين :

١٠ **فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ فِي الشَّهْرِ الثَّانِي فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ أَنْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتِ السَّمَاءِ**<sup>(٣)</sup> .

٤٠ **وَاسْتَقَرَّ الْفُلُكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ**<sup>(٤)</sup> .

(١) سفر التكوين . الأصحاح (٧) . السطر ١٧ .

(٢) سفر التكوين . الأصحاح (٧) . السطر ٢٤ .

(٣) سفر التكوين . الأصحاح (٧) . السطر ١١ .

(٤) سفر التكوين . الأصحاح (٨) . السطر (٤) .

ولو طرحت بدء المياه واستقرار السفينة ستعلم مدة تعاضم المياه :  
بدأت ٢ / ١٧ وانتهت ٧ / ١٧ وهذه خمسة أشهر أي مائة وخمسين يوماً ، ومن ثم فإن العدد  
أربعين هو عدد جزئي يتضمنه العدد الإجمالي .

لقد بدأ الله ﷻ بخلق الأرض لأنها مركز الكون ، وستكون السماء كمحيط الدائرة لها ،  
فلا بد أن تكون البداية من مركز الدائرة . وتم الخلق في يومين هما : يوماً الأحد والاثنين . ثم  
خلق السموات سبعاً في يومين هما الثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع الأرض بعد ذلك دحاهما ، وثبتها  
بالرواسي ، ووضع فيها رزقها في يومين الخميس والجمعة . ليكون مجموع أيام خلق الأرض أربعة  
أيام .

والحقيقة أن الله خلق الأرض وأرزاقها في أربعة أيام ، والأرض وحدها في يومين من هذه  
الأيام الأربعة ، ويكون الأمر منطقياً : السموات في يومين ، والأرض بأرزاقها في أربعة أيام منهما  
يومان للأرض فيكون المجموع ستة أيام كما صرح القرآن في أكثر من موضع .



## ٩ سرعة الضوء :

يقول رب العزة في **سورة السجدة**:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ (السجدة) .

في البداية نقف على المغايرة في التعبير عن السماء في الآيتين :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (السجدة) .  
﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ (السجدة) .

[السجدة]	{ ﴿٤﴾ السَّمَوَاتِ	1
[السجدة]	{ ﴿٥﴾ السَّمَاءِ	2

**الصورة الأولى 1** : { السَّمَوَاتِ } : جاء بها جمعاً لأن الحديث عن الخلق ، والخلق للذوات ، فلو جاء بها مفردة لدل على أنه خلق المذكور فحسب ولم يخلق باقيها الذي لم يذكر ، فمادام يتحدث عن الخلق فيجب أن يذكر كل الذوات المخلوقة . وجاءت بدون ألف (السَّمَوَاتِ) لأن مفرداتها تختلف كل واحدة عن الأخرى ، فيما تحويه .

**الصورة الثانية 2** : { السَّمَاءِ } : جاء بها مفردة ، لأنه يقصد الجهة ، لأنه يتحدث عن أمر بين السماء والأرض ، فهو يقصد المسافة بينهما ، والمسافة بينهما لا تحتاج ذكر الذوات ، بل تحتاج الأدنى منها .

نقف في هذا المبحث عن الأمر المدبر بين السماء والأرض .. ما هذا الأمر ؟ الذي جاء في قوله تعالى :

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة) .

الفاعل في قوله تعالى ( يُدَبِّرُ ) هو الله √ . فما (الْأَمْرُ) ؟ الذي يدبره الله من السماء إلى الأرض ؟ إن الآية لا تتحدث عن طول يوم يساوي ألف سنة من أيامنا لكنها تتحدث عن حركة شيء أسماه الله √ (الْأَمْرُ) هذا الأمر يقطع المسافة بين السماء والأرض روحة وجيئة في نصف يوم ، وهذا النصف يوم عنده يساوي ألف سنة مما نعد ، فما هذا الأمر ؟

لقد أخبر الرسول S أن المسافة بين الأرض والسماء خمس مائة سنة وهذا يعني أن هذا المجهول الذي أشار إليه القرآن الكريم بكلمة الأمر قادر على أن يقطع تلك المسافة ذهاباً وإياباً في يوم من أيامنا . لكننا لو أردنا أن نقطع نفس المسافة التي قطعها هو في يوم من أيامنا لاحتجنا ألف سنة بالتمام والكمال . لأننا قد علمنا أن القرآن عندما يذكر أياماً فلا مجال للتقريب ، كما رأيت في قوله تعالى وازدادوا تسعاً في أولى مباحث هذا الكتاب .

وقد أثبت العلماء مؤخراً أن هذا الأمر المجهول هو الضوء . وثمة عالمان قاما بإثبات ذلك ، مما يغنيننا عن تكرار الأمر بالإحالة إليهما . هما محمد دودح ، ومنصور حسب النبي (١) ، أي أن وضع كلمة الضوء مكان المجهول الأمر : يجعلنا نقول : إن الضوء بسرعه المعروفة يقطع المسافة بين السماء والأرض في اثنتي عشرة ساعة ، فإذا فعلها ذهاباً وإياباً فهي يوم كامل ، وهذه المسافة التي يقطعها الضوء مرتين في يوم واحد نقطعها نحن في ألف سنة ، أي أن المسافة بين السماء والأرض التي يقطعها الضوء في نصف يوم نقطعها نحن في خمسمائة سنة .

جرت أول المحاولات لتقدير سرعة الضوء بواسطة العالم اولاس رومر في عام ١٧٦٧ وتوصل الي انها تساوي ٢٩٩٧٩٢ كم/الثانية. وفي المؤتمر الدولي للمعايير المنعقد في باريس عام ١٩٨٣ اعلن العلماء ان سرعة الضوء تساوي: ٤٥٨, ٢٩٩٧٩٢ كم/الثانية.

(١) منصور حسب النبي ، الإشارات القرآنية للسرعة العظمى والنسبية ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٨٩ .

وفي القرآن الكريم: في سورة السجدة الآية ٥ يقول المولى سبحانه وتعالى  
﴿ يَذُرُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة) .

وبواسطة العالم الدكتور محمد دودح تم التوصل الي سرعة الضوء في القرآن الكريم:

توجد قاعدة عامة في الفيزياء تنص علي أن :

سرعة أي جسم = المسافة / الزمن .

الزمن = زمن يوم ارضي = ٠,٩٩٦٦ , ٨٦١٦٤ ثانية

المسافة = مقدار الف سنة من مسيرة القمر = ١٢٠٠٠ دورة قمرية

وهي مسافة المجرة التي يقطعها القمر في مدار منعزل

= ١٢٠٠٠ × متوسط السرعة المدارية للقمر × زمن الشهر القمري

= ٧١٩٨٣٩٥ . ٦٥٥ × ٨٩١٥٧ . ٠ × ٣٦٨٢٠٧ × ١٢٠٠٠ =

وبذلك تكون المسافة = ٨٣١٣٤٧٢٣ , ٢٥ بليون كم

و بتطبيق المعادلة: وذلك بقسمة رقم المسافة (٢٥٨٣١٣٤٧٢٣٠ كم) على رقم

الزمن (٠,٩٩٦٦ , ٨٦١٦٤ ثانية) تكون سرعة الضوء تساوي = ٤٥٨ , ٢٩٩٧٩٢ كم / ثانية .

١٢٩١ , ٥٦٧٣٦١٥ مليار كم .

هذا ما قاله علماء الفيزياء . الأمر هنا هو الضوء . والسؤال لماذا عبر القرآن عنه بكلمة

الأمر ؟ إن لفظة الأمر تعني أي شيء ، فمن ثم إذا أراد أن يشير إلى مجهول فهي صالحة

، لأنها تعبر عن كل شيء ، فهي تصلح للتعبير عن أي شيء ، فهي تساوي المجهول (س) ،

وكان من المنطقي في عصر لا يعرف أحداً أن للضوء سرعة أن لا يصرح به ، وأن يكنى عنه ؛

لأن الناس كانت لا تتصور ذلك وقتها ، فهم كانوا لا يتصورون أن للضوء سرعة من الأساس



والله ﷻ يدبر هذا الضوء من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه . أي أن الضوء يقطع المسافة بين السماء والأرض في نصف يوم .

ينزل من السماء في نصف يوم ، ويعرج ثانية في نصف يوم ليكون الضوء قد قطع المسافة بين السماء والأرض في نصف يوم ، ويكرر رحلة الرجوع في نصف يوم آخر .

وهذه المسافة التي يقطعها الضوء في نصف يوم هي نفسها المسافة التي نقطعها نحن في خمسمائة عام ، (لأننا نقطع المسافة التي يقطعها الضوء في يوم في ألف سنة) إذن المسافة التي يقطعها الضوء في نصف يوم نقطعها نحن في خمسمائة عام. وهذا مصداق حديث النبي ﷺ عن المسافة بين السماء والأرض : ٥٠٠ عام ، وبذلك يتفق القرآن الكريم والحديث الشريف في أن المسافة بين الأرض والسماء مسيرة ٥٠٠ عام ، فتحديد المسافة بالزمن موجود قديماً ، لكنه كان موجود بالزمن كما كان العرب يقولون : المسافة بين مكة والقدس شهر ، أي تقطعها الإبل في شهر ، فإذا عرفت سرعة الإبل عرفت المسافة المكانية ، وقد أرشدنا رسول الله ﷺ أن المسافة بين السماء والأرض خمس مائة سنة ، فلو عرفت سرعة الوسيلة التي تصل بها ، فستعرف بسهولة المسافة المكانية بينهما ، فإن كان المجهول في الآية الكريمة هو الضوء ، والضوء معروف سرعته .. فهذا يعني ..

إن ارتفاع السماء والأرض هو مسيرة الضوء في نصف يوم :

$$٤٢٨٣٦, ٤٧٢٢٨ \div ٢ = ٢١٤١٨, ٢١٤١٨ \text{ كم}$$

ولأننا نؤمن أن الكون دائري ، وأن الأرض هي مركز هذا الكون ، فالمسافة بين أي نقطة من السماء إلى أي نقطة للأرض ثابتة وتساوي النتيجة السابقة : (١٢٩١٥٦٧٣٦١٤).

فإذا انتقلنا إلى آية أخرى .. سنجدها أيضاً تتحدث عن يوم كان مقدراه (حَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) ، والواضح أن آية السجدة لم تكن تتحدث عن نسبة يومين إلى بعضهما البعض ، أي أن اليوم في هذا الكوكب يختلف عن اليوم في هذا الكوكب ، لا ، إن الآية تتحدث عن حركة شيء ما ، هذا الشيء إذا تحرك يقطع مسافة في يوم من أيامنا ، لو أردنا أن نقطع نفس المسافة في نفس الزمن الذي قطعه بالثواني ، سنجد أن المسافة شاسعة وتحتاج إلى وسيلة



ولاشك أن هذا يتفق مع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال إن الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين مسيرة خمسمائة عام : إن ارتفاع الجنة :  $100 \times 500 = 50000$  سنة . أي أن الملائكة التي تصل سرعتها إلى خمسين ضعف لسرعة الضوء ( ١٥ مليون كم / ث ) ، لا تصل إلى سقف الجنة إلا بعد يوم متصل بتلك السرعة الخرافية . وهذه المسافة لو حاول الإنسان إن يقطعها بوسيلة مواصلات تتجاوز ٣ آلاف كم / س ، فإنه يصل إلى سقف الجنة الذي وصلته الملائكة في يوم بعد خمسين ألف سنة ، ذلك لو استمر في التحرك دون توقف .

ماذا نقول عن هذا الارتفاع الذي يستعصي على الوصف ، إننا إنك عندما تبني فندقاً ارتفاعه كيلو متر واحد ، فقد صنعت أكثر من ثلاثمائة دور ، وتحدث عن إعجوبة قلما تتكرر ، فما بالك إذا كانت الجنة ترتفع إلى ١٢٩٦ مليار كم .

## المراجع

- ١ . القرآن الكريم .
- ٢ . إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، استانبول ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ .
- ٣ . أبو جريبر الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ .
- ٤ . أبو الحسن المجاشعي ، النكت في القرآن ، تحقيق عبد الله الطويل ، دار بدر ، المنصورة ، ٢٠٠٧ .
- ٥ . أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩ .
- ٦ . ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الدار التنوسية ، تونس ، ١٩٨٤ .
- ٧ . ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء الأول ، مكتبة التراث الإسلامي ، حلب ، ١٩٨٠ .
- ٨ . ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الرابع ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ .
- ٩ . ابن العربي ، أحكام القرآن الجزء الأول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
- ١٠ . ابن النحاس : إعراب القرآن الكريم ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥ .
- ١١ . بروس بارتون وآخرون : التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ، ترجمة وليم وهبة وآخرون ، ماستر ميديا ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ .

- ١٢ . بطرس عبد الملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس ، الطبعة الرابعة عشر، دار مكتبة العائلة ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
- ١٣ . جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، المجلد الرابع ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤ .
- ١٤ . الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ .
- ١٥ . الرازي ، مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠١ .
- ١٦ . ريتشارد إليوت فريدمان ، من كتب التوراة ، ترجمة محمد زكريا ، دار البيان للنشر والتوزيع
- ١٧ . زغلول النجار ، الإعجاز العلمي في السنة النبوية ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧
- ١٨ . زغلول النجار ، السماء ، ، دار العلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤
- ١٩ . الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٢ .
- ٢٠ . الزمخشري : تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، المجلد الأول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٣ .
- ٢١ . رؤوف أبو سعدة ، من إعجاز القرآن ، العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن ، دار الهلال ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ .
- ٢٢ . سليمان عمر قوش ، الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم ، دار الثقافة ، الدوحة ، الطبعة الثانية ١٩٩٥ .
- ٢٣ . شفيق مقار ، قراءة سياسية للتوراة رياض الريس للكتاب والنشر ، لندن .
- ٢٤ .
- ٢٥ . عبد الرحمن عميرة ، دقائق لغة القرآن في تفسير ابن جرير الطبري ، الجزء الثاني ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ .

- ٢٦ . عبد العظيم المطعني ، دراسات جديدة في إعجاز القرآن ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ ،
- ٢٧ . عبد القادر عبد الرحمن السعدي ، أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية ، دار عمار عمان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ ،
- ٢٨ . عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٣ .
- ٢٩ . عبد الوهاب الطويلة ، توراة اليهود والإمام ابن حزم الأندلسي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى .
- ٣٠ . عودة أبو عودة: شواهد الإعجاز القرآني ، دراسة لغوية ودلالية ، دار عمار ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ ،
- ٣١ . عدنان الشريف : من علم الطب القرآني ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠١ .
- ٣٢ . الكتاب المقدس : دار الكتاب المقدس ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩ .
- ٣٣ . ليو تاكسل : التوراة ، كتاب مقدس ، أم جمع من الأساطير ، ترجمة حسان ميخائيل إسحاق ، الجندي للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .
- ٣٤ . محمد بن الزبير (مشرفاً) : سجل أسماء العرب ، موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب ، جامعة السلطان قابوس ، مكتبة لبنان ، المجلد الرابع ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ .
- ٣٥ . محمد سيد طنطاوي : بنو إسرائيل في القرآن والسنة ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ .
- ٣٦ . محمد متولى الشعراوي: تفسير الشعراوي ، مؤسسة أخبار اليوم ، قطاع الثقافة ، القاهرة .
- ٣٧ . مكي بن أبي طالب : مشكل إعراب القرآن ، تحقيق محمد عثمان ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ٢٠٠٩ .
- ٣٨ . منصور حسب النبي : الإشارات القرآنية للسرعة العظمى والنسبية ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- ٣٩ . موريس بوكاي : التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ، ترجمة علي الجوهري

- ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ٤٠ . الواحدي النيسابوري ، أسباب النزول ، دار الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
- ٤١ . محمد حسن هيتو ، المعجزة القرآنية ، الإعجاز العلمي والغيبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٨ ،
- ٤٢ . محمد نور الدين المنجد ، الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق ، ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠١ .
- ٤٣ . موريس بوكاي : التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث ، ترجمة على الجوهري ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
- ٤٤ . ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ ، وانظر أيضاً :

1. ا . سورة . الجزء الأول . ص 222



## فهرست

### الأعداد السماوية دكتور صلاح شفيق :

#### الصفحة

( ١٧ - ٨ )

• مقدمة:

( ٨٦ - ٢٠ )

• الفصل الأول : أعداد مخصصة

- تمهيد: ..... )٢٠ (
- (1) ثلاث مائة سنين : ..... )٢١ (
- (2) فتم ميقات ربك أربعين ليلة : ..... )٣٤ (
- (3) تلك عشرة كاملة : ..... )٤١ (
- (4) ألف سنة إلا خمسين عاماً : ..... )٤٧ (
- (5) أربعة أشهر وعشرا : ..... )٦١ (
- (6) واختار موسى قومه سبعين رجلا ..... )٦٦ (
- (7) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون : ..... )٧٢ (
- (8) وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا ..... )٧٨ (

( ١٨٤ - ٨٧ )

• الفصل الثاني : التمييز

- تمهيد: ..... )٨٨ (
- المبحث الأول : اختلاف التمييز:
- (1) قروء ، أشهر : ..... )٩٠ (
- (2) سنبلات ، سنابل : ..... )٩٤ (

- (3) مرات، عورات : ..... (٩٦)  
 (4) سنة، عاماً : ..... (١٠٠)  
 (5) أيام، ليال : ..... (١٠٢)  
 (6) شهادات، شهداء : ..... (١٠٧)  
 (7) رهط، رجال : ..... (١١٠)  
 (8) حجج، سنين : ..... (١١٢)

(١١٧) المبحث الثاني : التمييز المجرور بمن :

- (1) أربعة من الطير : ..... (١١٧)  
 (2) سبعاً من المثاني : ..... (١٢٠)  
 (3) ألفاً من الذين كفروا : ..... (١٢٤)  
 (4) بألف من الملائكة : ..... (١٢٦)  
 (5) بثلاثة آلاف من الملائكة : ..... (١٢٩)  
 (6) بخمسة آلاف من الملائكة : ..... (١٣٢)

(١٤٠) المبحث الثالث : انعدام التمييز :

- (1) وليال عشر : ..... (١٤٢)  
 (2) أزواجاً ثلاثة : ..... (١٤٤)  
 (3) ظلمات ثلاث : ..... (١٤٨)  
 (4) سبع عجاف : ..... (١٥٠)  
 (5) سبع شداد : ..... (١٥٤)  
 (6) عشرة كاملة : ..... (١٤٦)  
 (7) سيقولون ثلاثة : ..... (١٥٨)  
 (8) ثلاثمائة سنين : ..... (١٦٠)  
 (9) مائة ألف أو يزيدون : ..... (١٦٢)  
 (10) أربع حرم : ..... (١٦٥)  
 (11) سبعاً شداد : ..... (١٦٨)  
 (12) يومئذ ثمانية : ..... (١٧٠)  
 (13) وأتمناها بعشر : ..... (١٧٢)  
 (14) من يمشى على أربع : ..... (١٧٣)

- (15) عليها تسعة عشر : ..... (١٧٥)  
 (16) فإن أتممت عشراً : ..... (١٧٦)  
 (17) اثنتي عشر أسباطاً : ..... (١٧٨)  
 (18) إن لبثتم إلا عشراً : ..... (١٨٠)

) ٢٧٠ - ١٨١ (

## • الفصل الثالث : العدد السماوي

- تمهيد: ..... (١٨٢)  
 (1) العدد واحد : ..... (١٨٣)  
 (2) الفرق بين واحد وواحد : ..... (١٩٦)  
 (3) الفروق بين الصيغ العددية : ..... (٢٠٣)  
 (أ) اثنان وحدها : ..... (٢٠٣)  
 (ب) الوصف باثنين : ..... (٢٠٤)  
 (ج) ثاني : ..... (٢٠٧)  
 (د) مثلث : ..... (٢٠٨)  
 (4) الفرق بين ثاني اثنين، وثالث اثنين : ..... (٢١٠)  
 (5) التكرارات الثنائية : ..... (٢١٥)  
 (أ) مرتين : ..... (٢١٥)  
 (ب) ضعفين : ..... (٢٢٢)  
 (ج) اثنتين : ..... (٢٢٥)  
 (د) كرتين : ..... (٢٢٧)  
 (6) التجمعات الثنائية : ..... (٢٣١)  
 (أ) الجمع : ..... (٢٣١)  
 (ب) الفريقان : ..... (٢٣٣)  
 (ج) الحزبان : ..... (٢٣٦)  
 (د) الفئتان : ..... (٢٣٩)  
 (هـ) الطائفتان : ..... (٢٤٢)  
 (و) الخصمان : ..... (٢٥١)  
 (7) الكل والمتبقى : ..... (٢٥٤)  
 (8) العدول عن العدد : ..... (٢٥٦)  
 (أ) آخر، أخرى : ..... (٢٥٦)